ابن جبير في مصر والحجاز

كامل كيلاني



ابن جبير في مصر والحجاز

تأليف
كامل كيلاني



ابن جبير في مصر والحجاز

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٣٤٨ ٥

المحتويات

مقدّمَة ٧
١- من غرناطة إلى الإسكندرية ١١
٢- من الإسْكندريَة إلى القاهرة ١٥
٣- من القاهِرة إلى عَيذابْ ٢٩
٤- من عَيذاب إلى جُدّة ٤١
٥- من جُدّة إلى مَكّة ٤٧
٦- الحرَمُ المَكىّ ٥١
٧- آثار مَكّة ٧٣
٨- طيّبات مَكّة ٨١
٩- عاداتٌ وتقاليد ٨٧
١٠- أعيَاد رَمضَان ١٠١
١١- بَيْن العِيدَيْن ١١١
١٢- عرفات ١٢١
١٣- من مَكّة إلى المدينة ١٣٧
١٤- الحرَمُ المدَنِي ١٤٩
١٥- آثار المدينة ١٥٥
١٦- أَيّام الوداع ١٥٩
محفوظات ١٦٣

مقدّمَة[1]

بقلم كامل كيلاني

أول يناير سنة ١٩٤٠م

١

أَيُّها الصبيُّ العزيزُ:

حَدَّثْتُك في مُقدِّمةِ القصَّةِ الأُولى — من هذه المجموعة — بما اسْتَولَى على نفسِي مِن التردُّدِ والحَيْرَةِ حينَ همَمْتُ بتقديمِ قِصةِ «ابنِ يَقْظَانَ» التي يسَّرْتُها لك، وأَدنَيْتُها إلى فهمكَ، فأَقبلتَ عليها مبتهِجًا راضيًا. ولعلَّك تَذْكُر، ما أَفْضَيْتُ به إِليكَ في مقدِّمَتِها، مِن أَنَّنِي وقفتُ — حينئذٍ — طويلًا، فلم أَدْرِ بأَيِّ المجموعتينِ أُلْحِقُها.

أَبِالْقِصَصِ العلميةِ، أَمِ بِالْقِصَصِ العربيةِ؟ ثُم انتهيتُ إِلى إلحاقِها بالقِصَصِ العربيةِ؛لأَنها — كما قلتُ لكَ — عَريقةٌ بتفكيرها وخيالِها في العُروبةِ.

[1] نثبت في هذه الطبعة مقدمة الطبعة الأولى، كما أثبتناها في الطبعات السابقة.

٢

فلمَّا همَمْتُ بإِظهارِ هذه الرِّحلةِ لَكَ، عَرَضَ لي مِثلُ هذه الأَسئلةِ، إِنَّ هذه الرحلةَ الشَّائقةَ هِيَ — في مجموعها — من أَبرعِ الكتبِ الجُغْرافيَّةِ وأَحْسَنِها طريقةً، وأَهْداها أُسلوبًا في ترغيبِ الناشِئَةِ، وتعْريفهم تَقْويمَ البُلْدانِ. فهل أُلحِقُها بما أَظهرتُهُ لكَ من القصصِ الجغرافيّةِ؟

وفيها كثيرٌ من الشَّبَهِ بِالْقِصَصِ العالَمِيَّةِ التي اخترتُها لك، فهل أُلحقُها بمجموعة «أَشهرِ القصصِ»؟ وقد كانتْ حافِزَةً لابن بَطُّوطةَ على إِظهارِ رحلته الشائقةِ الَّتِي وعدتُك بتلخيصها منذُ أَعوامٍ، فلمَّا أَعدَدْتُها لك، لم أَرَ بدًّا من إِرجائِها حتَّى تقرأَ هذهِ الرِّحْلةَ المعجِبَةَ التي أَلْهمَتْ ابنَ بَطُّوطَةَ بدائعَ مِنْ معانيهِ الرائعةِ.

وهي قد مثَّلَتْ عَصْرَ «صلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ» وَصَوَّرَتْ نَواحِيَ تاريخيَّةً مِنْهُ، لا ينبغي أَن يَجْهَلَها طالبٌ في المدارسِ الثَّانَوية — في مِثل سنِّكَ وثقافَتِكَ — فهل أَفتتحُ بها المجموعةَ التاريخيَّةَ التي أَعدَدْتُها لك؟

٣

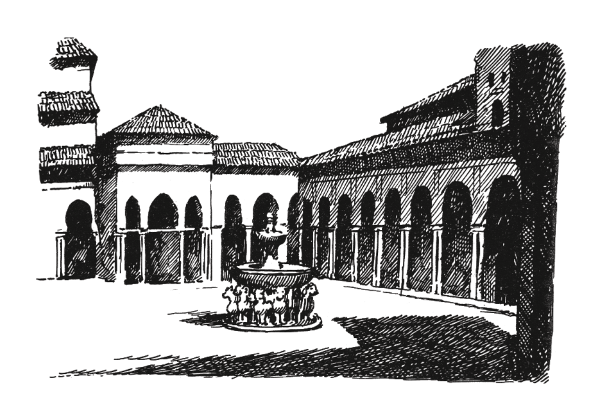
عَلَى أَنِّني قدِ انْتَهيْتُ إِلَى إِلحاقِها بالقِصَص العربيَّةِ؛ لأَنَّها كسابِقَتِها آيةٌ من روائع الفنِّ العربيِّ والتفكيرِ العربيِّ.

وقد جَمَعتْ هذه الرِّحلةُ في بعضِ فُصُولِها المُبْدَعةِ — إِلى ما حدَّثْتُكَ به من المَزَايا — أَفَانِينَ مِن صدقِ التعبيرِ، وبراعةِ التصويرِ، واستفاضةِ الوصفِ، وأَصَالَةِ التفكيرِ، وطَوَّعَتْ من المَعاني المُسْتَعْصِيَةِ، وجَلَتْها في أَحسنِ مَعْرِضٍ، وأَشرَفِ صياغَةٍ، وافْتنَّ فيها مُبْدِعُها ما وسِعَهُ طَبْعُه المَوْهُوبُ وخيالُهُ الخِصْبُ.

وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّ هذِهِ الرحلَةَ سَتُكْسِبُكَ — إِن شاءَ اللهُ — قُدرةً على البيانِ، وتمكُّنًا من فنِّ الإِنشاءِ، وسَتَزْدَادُ ثقافَتُكَ الفكريَّةُ والجغرافيةُ والدِّينيَّةُ والتاريخيةُ واللُّغَويةُ كُلَّما أَمْعَنْتَ النَّظَر، وأَطلتَ الرَّوِيَّةَ في تَفَهُّمِها، واسْتيعابِ طُرَفِها المُسْتَمْلَحةِ قراءَةً وتفكيرًا.

٤

وقد كَتبَ هذهِ الرحلةَ الُمعجِبَة «أَبو الحُسَيْنِ محمدُ بنُ جُبيْرٍ الأَندلسِيُّ»، وهُو من «غَرناطَةَ» إِحْدى حَواضِرِ الأَنْدلُسِ الَّتِي ازْدَانَتْ بكَثيرٍ مِنْ بَدائِعِ الآثارِ، وَلا سِيَّما قَصْرُ الْحَمْراءِ الَّذِي تَرى مَشْهَدًا مِنه في هذه الصُّورَةِ.



وقدِ ابتدأَ «ابْنُ جُبَيْرٍ» رِحْلَتَهُ هذهِ مِنْ «غَرْناطةَ». وكانَ أَوَّلُ تقييدِهِ لها كما قال: «يومَ الْجُمُعَةِ الُموفِي ثلاثينَ لشهرِ شَوال سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخَمْسِ مئة[٢] على متنِ البحرِ.

٥

وقد كان إِقبالُكَ على القصَّة العربيَّةِ السابقِةِ «حيِّ بنِ يَقْظانَ» حافِزًا لِي ومُشَجِّعًا على إِظهارِ هذه الرِّحلةِ — بعدَ أَنْ أَوْجَزْتُها وفصَّلْتُها وَعُنِيتُ بِتَبْوِيبِها وَتَيْسِيرِ أُسلوبها لكَ — حتى لا تَتَعثَّرَ — في أَثناء مطالعَتِها — بما يَنْبُو عنهُ ذوقُكَ الغَضُّ، من المَعانِي والعِباراتِ المغلَقةِ التي لا يكاد يَسْتَسِيغُها — في هذا العصرِ الحدِيثِ — من كانَ في مِثلِ سنِّكَ. وقدْ حذفتُ

[٢] ٢٥ من فبراير سنة ١١٨٣م.

الفضولَ منها، وغَيَّرْتُ بعضَ أَلفاظِها وعِبارَاتِها حتى لا يتطَّرقَ السَّأَمُ إِلى نفسِكَ. ولكنَّنِي تَوَخَّيْتُ الاِقتصادَ في ذلك — ما وسِعَني الجَهْدُ — فلم أَحُلْ بينكَ وبينَ أُسْلوبِ المُؤلِّفِ إلاَّ قَلِيلًا.

أَمَّا بعدُ، فقد انتقلتُ بِكَ — أَيُّها الصبيُّ العزيزُ — في هذا الكتاب وسابِقِهِ إِلى مَرْحلةٍ جديدةٍ، راجيًا أَن تَأْلَفَ أُسلوبَ غيري من الكتَّابِ والمؤَلِّفِينَ، كما أَلِفْتَ أُسْلُوبِي — من قبلُ — في الأَعوام المَاضِيةِ.

وفَّقَنِي الله إلى نفْعكَ وتَعْليمكَ، ويسَّرَ اللهُ لكَ سبيلَ الانْتفاعِ والتَّعَلُّمِ، ونَفَعَ الله بكَ وطنَكَ ولُغَتَكَ، إِنَّهُ أَكرمُ مسئُول.

الفصل الأول

من غرناطة إلى الإسكندرية

(١) بَدْءُ السَّفَرِ

كان السَّفَرُ والانفصالُ من «غَرْنَاطَةَ» حَرَسها اللهُ، للنِّيَّةِ الحِجازيَّة — قَرَنها اللهُ بالتَّيْسيرِ والتَّسْهيلِ، والصُّنْع الجميلِ — أَوَّلَ ساعةٍ من يَوْمِ الخميسِ، الثامِنِ لِشَهْرِ شَوَّالٍ سَنَةَ ثمانٍ وسبْعِينَ وخَمْسِ مئة، وَبِمُوافَقَةِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ لِشَهْرِ فبرايِرَ الأَعْجَمِيِّ.

(٢) إلى «سَبْتَةَ»

وكانَتْ مرحَلَتُنا إِلَى مَدينة «إِسْتِجَةَ»، ثُمَّ مِنها إِلَى غَيْرِها، حَتَّى يَسَّرَ اللهُ عَلَيْنا في عُبورِ البَحْر — إِلَى قَصْر «مَصْمودَةَ» — تَيْسيرًا عجيبًا. ونَهضْنا مِنْهُ إِلَى «سبْتَةَ» غُدْوَةَ يومِ الأَرْبِعاءِ الثامنِ والْعِشْرِينَ من الشهر المُؤَرَّخِ.

(٣) في مَرْكَبٍ رُومِيٍّ

وأَلْفَيْنا بها مَرْكَبًا رُومِيًّا لِبَعْضِ الأَهْلِينَ مِنْ سُكان «جَنَوَةَ»، وكانَ مُقْلِعًا إِلَى الإِسْكَنْدريَّة، فَسهَّل اللهُ علينا الرُّكوبَ فِيهِ، وأَقْلَعْنا ظُهْرَ يَوْمِ الخميسِ، وكان طريقُنا في البحرِ مُحاذِيًا لِبَرِّ الأَنْدَلُسِ.

وفِي صبِيحةِ يومِ الْجُمُعَةِ السَّابعِ لذي القَعْدةِ، قابلْنا بَرَّ جزيرةِ «يابسةَ»، ثُمَّ قَابَلْنَا — يومَ السبتِ بَعْدَه — بَرَّ جزيرةِ «مَيُورقةَ»، ثُمَّ يَوْمَ الأَحَدِ بعدَهُ قَابَلْنَا جَزِيرَةَ «مِنُورقة» ومن «سَبْتَةَ» إِلَيْها نَحوُ ثمانيةِ مَجَارٍ (والمَجرَى: مئة ميل).

(٤) جزيرة «سَرْدانية»

وفارقْنا بَرَّ هذه الجزيرة، وظَهَرَ لَنا برُّ جزيرة «سَرْدانِيَةَ» أَوَّلَ ليلةِ الثُّلاثاءِ: الحادي عشَرَ من الشَّهْرِ — دفْعةً واحدةً — علَى نحوِ ميلٍ أَو أَقَلَّ. وَبَيْنَ الجزيرتين: «سَرْدانِيَةَ» و«مِنُورقَةَ» نحوُ أَرْبَعِ مئة ميل، فكانَ قطْعًا مُسْتَغْرَبًا في السُّرعةِ.

وطرأَ علَيْنا مِنْ مُقابَلَةِ الجزيرة — فِي اللَّيلِ — هوْلٌ عظِيمٌ، عَصَم الله منهُ بريحٍ أَرْسَلَها في ذلِكَ الْحِينِ — مِنْ تِلْقاءِ البَرِّ — فأَخْرَجتْنَا الرِّيحُ عَنِ البَرِّ، والحمدُ لله على ذلك.

(٥) ضلال المَرْكَب

وكُنَّا في حال الوَحْشة وانْغِلاق الجهاتِ بِالْمَطر، فلا نُمَيِّزُ شَرْقًا من غَرْب، فأَطْلَع اللهُ علَيْنا مَرْكَبا للرُّومِ، قَصَدنا إِلى أَن حاذَانا، فَسُئِل عن مَقْصِدهِ، فأَخْبر أَنَّهُ يُرِيدُ جزيرةَ «صِقِلِّيَةَ» وأَنَّه من «قَرْطَاجَنَّةَ» — عَمَلِ «مُرْسِيَةَ» — وقد كُنَّا اسْتَقبلْنا طريقَهُ الَّتِي جاءَ منها مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، فأَخَذْنا عِنْد ذلك في اتِّباعِ أَثَرِه — واللهُ المُيَسِّرُ — فخرج علينا طرَفٌ من بَرِّ «سَرْدانِيَةَ» المَذكور، فأَخَذْنا في الرُّجوعِ عَوْدًا على بدءٍ.

(٦) عاصِفَةُ الْبَحْرِ

وفِي لَيْلَةِ الأَرْبِعاءِ — التاسعَ عشرَ لذِي القَعْدَة — عصفَتْ علينَا مِنْ أَوَّلِها، ريحٌ هاجَ لها الْبَحْرُ وهال، وجاءَ معها مطَرٌ أَرسلَتْهُ علينا الرِّياحُ بقُوَّة، فكأَنَّما أَمْطَرتْنا السَّماءُ سِهامًا، فعَظُم الخَطْبُ، واشْتَدَّ الكَرْبُ، وجاءَنَا الْمَوْجُ — من كلِّ مكان — أَمثالَ الجِبَال السائِرَةِ، فبقِينا على تِلْك الْحَالِ اللَّيلَ كلَّه، والْيَأْسُ قدْ بلَغ منَّا مَبْلَغَه، وارتجَيْنَا — مع الصَّباحِ — فُرْجةً تُخَفِّفُ عنَّا بَعْضَ ما نزَل بنا.

فجاءَ النَّهارُ بما هو أَشدُّ هَوْلًا، وأَعظمُ كَرْبًا، وزادَ البحر اهْتِيَاجًا، وتغيَّمتِ السَّماءُ، واسْوَدَّتِ الآفاقُ، واشْتدَّتِ الرِّيحُ والْمَطرُ عُصوفًا، حتى لم يثْبُتْ معها شِراعٌ، فلجأْنا إِلَى اسْتِعمال الشُّرُعِ الصِّغارِ، فأَخذتِ الرِّيحُ شِراعًا مِنها ومزَّقَتْهُ وكَسرتِ الخَشَبةَ الَّتي ترتبطُ الشُّرُعُ فيها، وهي المَعروفَةُ عِنْدَهم بِالْقَرِيَّةِ. فحينئذٍ تَمَكَّن اليأْسُ من النُّفوسِ، وارتفعتْ

أَيدي المُسلمينَ بالدُّعاءِ إلى اللهِ — عزَّ وجلَّ — وأَقمنا عَلَى تلك الحالِ النهارَ كُلَّهُ. فلما جَنَّ الليلُ فَترتِ الرِّيحُ بعْضَ فُتور، وسِرْنا — في هذه الحالِ كُلِّها — سيرًا سَريعًا.

(٧) زوالُ المِحنةِ

وفي ذلك اليومِ حاذَيْنا جزيرةَ «صِقِلِّيَةَ»، وبِتْنا تلك الليلةَ التَّالِيَةَ مترَدِّدين بين الرَّجاء والْيأْس، فلمَّا أَسْفَر الصُّبْحُ نشَر اللهُ رَحْمَتَه، وانْجلَى الغَيْمُ، وأَقْشَعتِ السَّحابُ، وطابَ الْهَواءُ، وأَضاءَتِ الشَّمسُ، وأَخَذَ الْبَحْرُ في السُّكون، فاسْتبشَر النَّاس، وعاد الأُنْسُ وذهَب اليأْسُ، والْحمدُ للهِ الذي أَرانا عَظيمَ قُدْرته، ثم تَلافَى بجميلِ رحمتهِ، ولطيفِ رَأْفتِهِ، حَمْدًا يكونُ كِفاءَ مِنَّته ونِعْمَته.

وفي هذا الصَّباحِ ظهَر لنا برُّ «صِقِلِّيَةَ»، وقد اجْتَزْنا منه أكثرَهُ، ولَمْ يَبْقَ منهُ إلاَّ الأَقلُّ.

(٨) جَبلُ البُرْكان

فلمَّا كانَ عَصْرُ يوم الْجُمُعة أَقْلَعْنَا من المَوضع الذي كُنَّا أَرْسَيْنا فيه، وفارقْنا البرَّ — أَوَّلَ تلك الليلةِ — وأَصبَحْنَا وبيننا وبينهُ مسافةٌ بعيدة. وظهرَ لَنا — إِذْ ذاكَ — الجبَلُ الذي كان فيه البُرْكان، وهُو جَبلٌ عظيمٌ مُصَعِّدٌ في جَوِّ السَّماءِ، قَدْ كساهُ الثَّلْجُ. وأُعْلِمْنا أَنَّه يَظْهَرُ في البحر — مع الصَّحْوِ — عَلَى أَزْيَدَ من مئة ميلٍ، وأَخَذْنَا نَخُوضُ الأَمْواجَ واللُّجَج خَوْضًا، وأَقْرَبُ ما نُؤَمِّلُه منَ البَرِّ إلَيْنَا جَزيرةُ «إِقْريطِشَ» وَهيَ منْ جزائرِ الرُّومِ التَّابعةِ لصاحبِ القُسْطَنْطينِيَّةِ.



(٩) ظهورُ المنار

وفِي صبيحةِ يومِ الأَرْبِعاءِ السادِسِ والعشرينَ منهُ ظَهر لنا البرُّ الكبيرُ المُتَّصلُ بالإِسكندرية، المَعروفُ بِبَرِّ الْغَرب، وحاذَيْنَا منهُ موضِعًا بينَهُ وبينَ الإِسْكَندريةِ نحوُ أَرْبَعِ مئة ميل، عَلَى ما ذُكِرَ لنَا، فأَخَذْنَا فِي السَّير، والْبَرُّ المَذْكُورُ منَّا يمينًا.

وفِي صَبيحةِ السَّبْتِ التاسِع والعشرينَ من الشهر، أَطْلَع اللهُ عَلَينا البُشْرَى بالسَّلامة، بظهور مَنارِ الإسكندريَّةِ عَلَى نحو العِشْرينَ ميلًا، والحمدُ لله عَلَى ذلكَ.

(١٠) مِيناءُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ

وفِي آخر الساعَةِ الخامسةِ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ، كان إِرساؤُنا بمُرْسَى الْبلد، ونُزولُنا منهُ إِثْر ذلك، فكانَتْ إقامتُنا عَلَى مَتْنِ الْبحْرِ ثلاثين يومًا، ونزولُنا فِي الحادي والثلاثين.

وكان نُزُولنا بفُندُقٍ يُعْرَف بفُنْدُقِ «الصَّفَّار»، بِمَقْرَبة منَ «الصَّبَّانَةِ».

الفصل الثاني

من الإسْكندريَة إلى القاهرة

(١) أُمَناءُ السلطان

وكان أَوَّلُ شهر ذي الْحِجَّةِ هُوَ الْيَوْمَ الثَّانِيَ الَّذِي حَلَلْنا فيهِ بالإِسْكَنْدَرِيَّة، وَأَوَّلُ ما شاهَدْنَا يومَ نُزولنا أَنْ طلَع أُمناءُ إلى المَرْكَبِ — مِنْ قِبلِ السُّلطانِ — لتقييدِ جميع ما جُلِبَ فيه، فاسْتُحضِر مَنْ كانَ فيهِ من المُسْلِمينَ جميعًا — واحدًا واحدًا — وكُتِبَتْ أَسماؤُهُم وصِفَاتُهم وأَسماءُ بلادهم.

(٢) تَعَسُّفُ الأُمناءِ

وسُئِل كلُّ وَاحِد مِنَّا عَمَّا لَدَيْهِ من سِلَعٍ لِيُؤَدِّيَ زَكَاةَ ذلك كُلِّهِ دُونَ أَنْ يُبْحثَ عَمَّا تَجِبُ عَلَيْهِ الزَّكاةُ — مِنْ ذلك — وَمَا لَمْ تَجِبْ. وكَانَ أَكْثَرُهم مسافرينَ لأَداءِ الْفَريضَةِ، لَمْ يَسْتَصْحِبُوا سِوَى زادٍ لِطَريقِهِمْ، فلَزِموا أَداءَ زَكاةِ ذلِكَ كُلِّه.

(٣) الأُحْدوثَةُ السَّيِّئَةُ

وهذه لا مَحالةَ مِنَ الأُمورِ الَّتِي أَخْفَوْا حقيقتَها، ولبَّسُوا أَمْرَهَا عَلَى السُّلْطَان الكبيرِ المَعروفِ بـ«صلاحِ الدِّينِ». ولَوْ عَلِم بذلك — عَلَى ما يُؤْثَرُ عَنْهُ من العَدْلِ وإِيثَارِ الرِّفْق — لأَزالَ ذلك، وكفى اللهُ المُؤْمِنِينَ تِلك الْخُطَّةَ الشَّاقَّةَ، واستَأْدَوْا زَكاتَهُمْ، فأَدَّاها النَّاسُ عَلَى أَجملِ الوُجوهِ.

وما لَقِينا ببلادِ هذا الرَّجُلِ — مما تَقْبُحُ ذِكْراهُ — سِوَى هذهِ الأُحْدُوثَةِ التي هي من نَتائج عُمَّالِ الدَّواوينِ.

(٤) عجائب الإسكندرية

وممَّا أُعْجِبْنَا به حُسْنُ وضْعِ البلد، واتِّساعُ أَزقَّتِهِ ومبانيهِ، حتَّى إنَّنَا مَا شَاهدنَا بلدًا أَوْسَعَ مَسالِكَ مِنْهُ، ولا أَعْلَى مَبْنًى ولا أَحْسنَ منْظَرًا، ولا أَحْفَلَ منه أَسْواقًا.

ومِنَ الْعَجبِ في وَضعه أَنَّ بِناءَه تَحْتَ الأَرْضِ كبنائه فوقَها، وأَعْتَقُ وأَمْتَنُ، كَما أَنَّ الماءَ مِنَ النِّيل يخْتَرقُ جميع دِيارها وأَزقَّتِها تَحْتَ الأَرْضِ، فَتَتَّصِلُ الآبارُ — بعْضُها ببَعْض — ويُمِدُّ بعضُها بعضًا.

وعاينَّا فيها أَيضًا من سَواري الرُّخام وأَلْواحِهِ — كَثْرةً وعُلُوًّا واتِّسَاعًا وحُسْنًا — ما لا يُتَخَيَّلُ بالْوَهم.

(٥) منار الإسكندرية

ومن أَعْظَمِ ما شاهَدْناهُ من عجائِبها «الْمَنَارُ»، وهُو آيةٌ للمُتَوَكِّلينَ وهِدايةٌ لِلْمُسافِرينَ، لَوْلاَهُ ما اهْتَدَوْا في الْبَحْرِ إلى برِّ الإسكندرية. ويَظْهَرُ على أَزْيَدَ من سبعين مِيلًا. ومبْنَاهُ في غايَةِ العَتاقَةِ والوَثَاقَةِ — طُولًا وعَرْضًا — يُزَاحِمُ الْجَوَّ سُمُوًّا وارتفاعًا، وَيَقْصُر عنْهُ الْوَصْفُ، ويَنْحَسِرُ دُونَهُ الطَّرْفُ. ذَرَعْنا أَحَدَ جوانبِه الأَرْبَعِ، فأَلْفَيْنَا فيه خَمْسِينَ باعًا وَنَيِّفًا، ويُذْكَرُ أَنَّ فِي طُولِهِ أَكْثَرَ من مئة وخمسينَ قَامَةً، وأَمَّا داخِلَهُ فَمَرْأًى هائِلٌ اتِّساعُه: مَعارجَ وَمَدَاخِلَ، وكَثْرَةَ مَساكِنَ.

(٦) العناية بالغرباءِ

ومِنْ مناقبِ هذا البلدِ ومفاخِره — العَائِدَةِ في الحقيقة إِلَى سُلْطَانِهِ — المدارسُ التي أَنْشَأَها السُّلطانُ لأَهْل الطَّلَبِ والتَّعبُّدِ، الذينَ يفِدون من الأَقطار النائية، فيَلقى كل واحد منهم مسكنًا يأْوِي إِليه، ومدرسًا يعلمه الفنَّ الذي يريدُ تعلَّمَه، وأَجْرًا يكْفِيه في جميع أَحواله، ومحَارسَ لحِراسته وتأْمِينهِ.

واتسعَ اعتناءُ السلطانِ بهؤلاءِ الغُرَباءِ الطارئينَ، حتَّى أَمَر بتعيين حمَّاماتٍ يَسْتَحِمُّون فيها متى احتاجُوا إِلى ذلك، ونصَب لَهُمْ مُسْتَشْفًى لعلاج مَن مَرِضَ منهمُ، ووكَلَ بهم أَطِبَّاءَ يتفقدون أَحوالَهم. وتحت أَيْدِيهم خُدَّامٌ يَأْمُرونَهم بالنَّظر في مصالِحهم التي يُشِيرونَ بها،

مِنْ علاجٍ وغِذاءٍ. وقَدْ رُتِّبَ — أَيضًا — فيهِ أَقوامٌ بِرَسْمِ الزِّيَارة لِلْمرْضَى الذين يأْنَفُونَ مِنْ دُخُولِ ذلك المارَسْتانِ (المُستشفى) — مِنَ الغُرَباءِ خاصَّةً — ويُنْهُون إلى الأَطباءِ أَحوالَهم، لِيتكَفَّلوا بمُعالَجَتِهم وهُمْ في بُيوتِهمْ.

ومنْ أَشْرفِ هذه المَقاصدِ أَيضًا أَنَّ السلطانَ عَيَّنَ لأَبْناءِ السَّبيلِ — مِنَ المَغارِبةِ — خُبْزَتين لِكُلِّ إنسانٍ في كلِّ يَوْم، بالِغًا ما بلغُوا، ونَصَب لِتَفْرِيق ذلك — كلَّ يَوْمٍ — إنسانًا أَمينًا مِنْ قِبَله. ولهذا كُلِّهِ أَوقافٌ مِنْ قِبَلِهِ، حَاشَا مَا عَيَّنَهُ لَهُ من زَكاة العَيْنِ. وأَكَّدَ عَلَى المُتَوَلِّين لِذلك — مَتى نقَصهُم من الأَمْوالِ والوظَائِف المَرْسُومَةِ شَيْءٌ — أَن يَرْجِعوا إلى صُلْبِ مالِه.

(٧) دسائس المتَقَرِّبين

وهذا السلطانُ الَّذِي سنَّ هذه السُّنَنَ المَحمودَةَ، ورسم هذه الرسومَ الكريمةَ، هو «صَلاحُ الدِّين أَبو الْمُظَفَّرِ يوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ» وصَلَ اللهُ صَلاحَهُ وَتوفيقَهُ.

ومنْ أَعجبِ ما اتَّفَق للغرباءِ أَنَّ بعضَ من يُريد التَقرُّبَ بالنصائِح إلى السُّلطانِ، ذكرَ: أَنَّ أكثرَ هؤلاءِ يأْخُذون جِرَايةَ الْخُبْز، ولا حاجةَ لهُم بها، لأَنَّهم لا يَصِلُون إلا بِزَادٍ يَكْفيهم، فكاد يُؤَثِّر سعيُ هذا المُتَنَصِّحِ المُتَظَاهِرِ بالْغَيْرةِ.

(٨) عدل صلاح الدين

فلمَّا كانَ في أَحَدِ الأَيَّامِ خرج السُّلطانُ — عَلَى سبيلِ التَّطلُّعِ — خارجَ بلدِه، فتَلَقَّى منهم جماعةً قد لَفَظتهُم الصَّحْرَاءُ المُتَّصلةُ بطرابُلْسَ — وقد كادوا يَهْلِكونَ عَطَشًا وجُوعًا — فسأَلَهُم عن وِجْهَتهم، واستطلع ما لديهم، فأَعلموه أَنهم قاصدونَ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ وأَنهم رَكِبوا البَرَّ، وكابدوا مَشَقَّةَ الصَّحْراءِ. فقال: «لَوْ وَصل هؤلاءِ، وهُمْ قد اعْتَسفُوا هذه المجاهِلَ (سَارُوا فيها على غَيْرِ مَعْرِفَة) وكابدُوا من الشَّقَاءِ ما كابَدُوا، وبِيد كُلِّ واحد منهم زِنتُه ذهبًا وفضةً، لوَجب أَنْ يُسَاعَدُوا ولا يُقْطَعُوا عن العادةِ الَّتي أَجْرَيناها ووَقفناها علَيْهم، فالْعَجب مِمَّن يَسْعَى على مِثْل هؤلاءِ ويرومُ التقرُّبَ إلِيْنا بِالسَّعي في قَطْعِ ما أَوجَبْناهُ — للهِ عزَّ وجَلَّ — خالصًا لوَجْهِهِ».

ومَآثِرُ هذا السُّلْطَانِ ومقاصدُه فِي الْعَدْلِ لا تُحْصى كَثْرةً.



(٩) مَساجدُ الإسكَندَريةِ

ومنَ الْغَرِيبِ أَيْضًا — في أَحوالِ هذَا البَلَدِ — تصرُّفُ النَّاسِ فيهِ باللَّيْلِ كتَصرُّفِهم بالنهارِ، فِي جَمِيعِ أَحْوالِهِمْ. وهو أَكْثَرُ بلادِ اللهِ مساجِدَ، حتَّى لَيَكُونُ مِنْها الأَرْبَعَةُ والْخَمْسَةُ في مَوضع. ورُبَّما كَانَ لَها أَئِمَّةٌ مُرَتَّبُونَ مِنْ قِبَلِ السُّلطانِ. فَمِنْهُم مَنْ له خَمْسَةُ دَنَانِيرَ مصْريَّةٍ في الشَّهْرِ، وَمنْهُم مَنْ لَهُ فَوْقَ ذلِكَ، ومنْهُم منْ لَهُ دُونَهُ.

(١٠) مدينة «دمنهور»

ثُمَّ كَان الانِفصالُ عنِ الإِسكَنْدرِيةِ — عَلَى بَركَةِ اللهِ وحُسْنِ عَوْنِهِ — صَبيحةَ يوْمِ الأَحَدِ الثَّامِنِ لذِي الْحِجَّةِ، فكانَتْ مَرْحَلَتُنا مِنْهُ إِلَى مَوضعٍ يُعْرَفُ بـ«دمَنْهُورَ»، وهوَ بَلَدٌ مُسَوَّرٌ فِي بَسِيطٍ — مِنَ الأَرْضِ — أَفْيَح (فَسِيحٍ رَحْبٍ)، وهذا الْبِسيط مُتَّصِلٌ مِن الإِسْكَنْدَريَّةِ إِلَى مِصْرَ، والْبَسِيطُ كُلُّه مُحَرَّثٌ (مَزْروعٌ) يعُمُّهُ النِّيلُ بفَيْضِهِ، والْقُرَى فِيه — يميناً وشِمالاً — لا تُحْصَى كَثْرَةً.

(١١) مدينة «طنطا»

ثُم أَجَزْنَا النِّيلَ فِي مَرْكَبِ تَعْدِيَة. واتَّصل سَيْرُنا إِلَى مَوْضِع يُعْرَف بـ«برْمَةَ»، فكانَ مَبِيتُنا بِهَا. وهي قَرْيَةٌ كبيرَةٌ فِيها السُّوقُ وجَمِيعُ الْمَرافِقِ.

ثُمَّ بَكَرْنَا مِنْهَا يَوْمَ الثُّلاثاءِ، وهو يَوْمُ عِيدِ النَّحْرِ من سنَة ثمانٍ وسَبْعِينَ وخَمْسِ مئة، فَشاهَدْنَا الصَّلاةَ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بـ «طَنْدِتَا» وهي مِنَ الْقُرَى الْفَسِيحةِ الآهِلَة.

(١٢) مدينة «القاهرة»

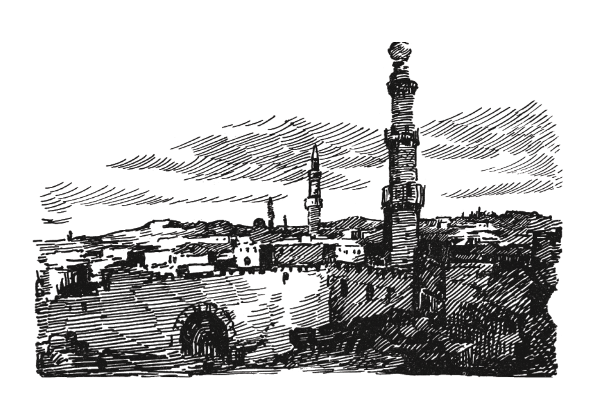
واتَّصلَ سَيْرُنا إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بـ«سُبْك»، وكان مَبِيتُنا بها.

واجْتَزْنا ذلكَ اليَوْمَ عَلَى موضعٍ حَسَن يُعْرَفُ بـ«مَليجٍ»، والعِمارَةُ مُتصلةٌ، والْقُرَى مُنْتَظِمَةٌ فِي طرِيقِنَا كُلِّها.

ثُمَّ بَكَرْنَا مِنها يوْمَ الأَربعاءِ بَعْدَهُ. فَمِن أَحْسَنِ بَلَدٍ مَرَرْنَا علَيْه، موضعٌ يُعْرَفُ بـ«قَلْيوبَ»، عَلَى سِتَّةِ أَمْيالٍ من «الْقَاهِرة»، فيهِ الأَسْواقُ الجمِيلَةُ، ومَسْجِدٌ كَبِير.

ثُمَّ مِنها إِلَى «القَاهرةِ» — وهي مدينةُ السُّلْطَانِ الْحَفيلةُ الْمُتَّسِعَةُ — ثُمَّ مِنْها إِلَى مِصْرَ الْمَحْرُوسَةِ.

ثُمَّ اجتَزْنا القِسْمَ الثانِيَ من النِّيلِ فِي مَرْكَبِ تَعْدِية أَيضًا، وكانَ نُزُولُنا في مِصرَ بِفُنْدُقِ «أَبي الثَّنَاءِ»، فِي «زُقَاقِ القَنَادِيلِ» بِمقْرَبَةٍ من جامعِ «عَمْرِو بْنِ الْعَاص».



(١٣) المسجد الحسيني

ومن الآثارِ الَّتِي شَهِدنَاها بمدينة «الْقَاهِرَةِ»، ذلك المَشْهَدُ العظيمُ، حيثُ رأْسُ «الحسين بن عَلِيٍّ بْنِ أَبي طَالب» — رَضِيَ اللهُ عَنْهُما — وهُوَ في تابوتِ فِضَّةٍ مَدْفُونٍ تَحْتَ الأَرْضِ، قَدْ بُنِيَ علَيْهِ بُنْيانٌ رَائِعٌ، يَقْصُر الوَصْفُ عنْهُ، ولا يُحِيطُ الإِدراكُ به، مُجَلَّلٌ بأَنْواعِ الدِّيباجِ، مَحفوفٌ بِأَمْثَالِ الْعَمَدِ الكِبارِ: شَمْعًا أَبْيَضَ، ومنْهُ ما دُونَ ذلك، قَدْ وُضِعَ أَكْثَرُها في أَتْوَار — أَعْنِي أَوانِيَ صَغِيرَةً — وكلُّ تَوْر من تلك الأَتوارِ منَ الفضة الخالِصَةِ والْمُذهَّبَةِ.

وعُلِّقت عليه قَنادِيلُ مِنْ فِضَّةٍ، وَحُفَّ أَعْلاَهُ كلُّهُ بأَمْثالِ التَّفَافِيحِ، وكلُّ تُفَّاحَة مِنْ تِلْك التَّفافِيحِ مَصْنوعَةً مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِص، فِي مَصْنَعٍ رائِعِ الْمَنْظَرِ، شبيهِ الرَّوضَة، يُقَيِّدُ الأَبْصَارَ فَلا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتحوَّلَ عنهُ لِحُسْنِه. وَفِيهِ مِنْ أَنْواعِ الرُّخَامِ الْمُجَزَّعِ (الْمُلَوَّن)، الْغَرِيبِ الصَّنْعَةِ، الْبَدِيع التَّرْصيعِ ما لا يتَخيَّلُه الْمُتَخَيِّلُونَ.

والْمَدْخَلُ إِلَى هذِهِ الرَّوْضَةِ على مسجدٍ عَلَى مِثَالِها — في التأَنُّق والغرابَةِ — حِيطَانُه كلُّها مِنْ مِثْلِ ذلِكَ الرُّخامِ الْمُجَزَّعِ الَّذِي وصفْناهُ.

ورأَيْنا الأَسْتَارَ الْبَدِيعَةَ الصَّنْعِةِ — مِنَ الدِّباجِ — مُعَلَّقَةً ترُوعُ الناظِرَ إِليها في كلِّ مكان.

(١٤) مَشاهِدُ أَهْلِ البيت

وفِي تلكَ اللَّيلةِ بِتْنا فِي الجَبَّانَةِ الْمَعْرُوفَةِ بالْقَرافَةِ، وهِي أَيْضًا إِحْدَى عَجَائِبِ الدُّنْيَا — لِمَا تَحْتَويهِ مِنْ مَشاهِدِ الأَنْبِياءِ وأَهْلِ الْبَيْتِ والصَّحابَةِ والتَّابِعين والْعُلَماءِ والزُّهَّادِ والأَوْلياءِ.

(١٥) الْمَشْهَدُ الشافعيُّ

وفيها مَشْهَدُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، وهو من المَشاهد العظيمة: احتفَالًا واتِّساعًا، وقد بَنَى السُّلْطانُ بإِزائه مَدْرَسَةً لَمْ يَعْمُرْ — بهذِهِ البلادِ — مِثلُها، ولا أَوْسَعُ مِساحَةً، ولا أَحْفَلُ بناءً، يُخَيَّلُ لِمَنْ يتَطوَّفُ عَلَيها أَنَّها بَلَدٌ مُسْتَقِلٌّ بذَاتِه، بإِزائها الحَمَّامُ، إِلَى غَيْرِ ذلِكَ منْ مَرافِقِها. والبِناءُ فيها حتَّى السَّاعَةِ، والنَّفَقَةُ علَيْها لا تُحْصَى.

(١٦) مَأْوَى الغُرَباءِ

ومن العجب أَنَّ تلك القَرَافَةَ كلَّها مساجدُ مبنيَّةٌ ومشاهدُ معمورةٌ، يأْوِي إِلَيْها الغرباءُ والعلماءُ والصلَحاءُ والفقراءُ، وإِنَّما يُنْفَقُ عَلَى كُلِّ موضِعٍ منها من قِبَل السُّلطان في كُلِّ شهر. والمَدارِسُ الَّتِي بـ«مِصْرَ» و«الْقَاهِرةِ» كذلِكَ. وَحُقِّقَ عِنْدَنا أَنَّ الإِنْفَاقَ عَلَى ذلك كلِّه نيِّفَ على أَلْفَيْ دينارٍ مَصْرِيٍّ في الشَّهر.

وذُكِر لَنا أَنَّ لجامعِ «عَمْرِ بْنِ الْعَاصِ» بـ«مِصْرَ» — مِنَ الْفَائِدَةِ — نَحْوَ الثَّلاثِينَ دِينَارًا مصريًّا فِي كلِّ يَوْمٍ: تَتَفَرَّق في مَصالِحه ومُرتَّبات قَوَمَتِه وسَدَنَتِهِ (خُدَّامِهِ) وأَئِمَّتِهِ، والْقُرَّاءِ فيهِ.

(١٧) خطيب المسجد

وفِي بعْضِ الْجَوامِعِ رَأَيْنا الْخَطِيبَ يَجْمَعُ — في خُطْبَتِهِ — الدُّعاءَ للصَّحابةِ وللتَّابعين ومَنْ سِواهُم، ولأُمَّهات المُؤمنينَ زَوْجاتِ النَّبِيِّ — صلَّى الله عليهِ وسلَّم — ولعَمَّيْهِ الكَرِيمَيْنِ: «حَمْزَةَ» و«العَبَّاسِ» رَضِيَ الله عنهما، ويُلَطِّفُ الْوَعْظَ، ويُرَقِّقُ التَّذْكِيرَ، حَتَّى تَخْشَعَ الْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ، وتَتَفَجَّرَ الْعُيون الْجَامِدَةُ.

ويأْتِي للْخُطْبَةِ لابِسًا السَّوادَ عَلَى رَسْمِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وصِفَةُ لِباسِهِ بُرْدَةٌ سَوْدَاءُ علَيْها طَيْلَسانٌ أَسْوَدُ — وهُو الَّذي يُسَمَّى بِالْمغرِبِ: الإِحْرَامَ — وعِمامَةٌ سَوْدَاءُ، مُتَقَلِّدًا سَيْفًا. وعنْدَ صُعودِه الْمِنْبَرَ يَضْرِبُ بنَعْلِ سَيْفِهِ الْمِنْبَرَ — فِي أَوَّلِ ارْتقائِه — ضَرْبةً يُسْمِعُ بها الْحَاضِرِينَ، كَأَنَّها إِيذانٌ بالإِنْصَاتِ، وفِي تَوَسُّطِه أُخْرَى، وفِي انتهاءِ صُعودِهِ ثَالِثَةً، ثُمَّ يُسَلِّم عَلَى الْحَاضِرِينَ يَمِينًا وَشِمالًا، وَيَقِفُ بَيْنَ رايَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ فِيهِما تَجْزِيعُ بَياضٍ قَدْ رُكِّزَتا فِي أَعْلَى الْمِنبَرِ.

ودُعاؤُه فِي هذا التَّاريخ للإِمامِ الْعَبَّاسِيِّ «أَبي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ النَّاصِر لدينِ اللهِ»، ثمَّ لِمُحْيي دَوْلَتِهِ «أَبِي المُظَفَّر يُوسُفَ بنِ أَيُّوب صلاحِ الدين»، ثُمَّ لأَخيهِ — وَلِيِّ عهدِهِ — «أَبي بكْرٍ سَيْف الدِّين».

(١٨) حِصْنُ القلعَةِ



وشاهَدْنا — أَيضًا — بُنْيانَ القَلعةِ، وهُوَ حِصْنٌ يتَّصِل بـ«القاهرة» حَصينُ الْمَنَعَةِ، يُرِيدُ السُّلْطانُ أَن يَتَّخِذَهُ مَوْضِعَ سُكْناهُ، وَيَمُدَّ سُورَهُ حتى يَنْتَظِمَ الْمَدِينَتَيْنِ: مِصْرَ الْمَحْروسةَ والْقاهِرَةَ. والْمُسَخَّرُونَ في هذا الْبُنْيانِ هُمُ الأُسارَى من الرُّومِ، وعَدَدُهم لا يُحْصَى كَثْرَةً. وَلا سَبيلَ أَنْ يَمْتَهِنَ ذلكَ الْبُنْيانَ أَحدٌ سِواهُمْ.

وهؤُلاءِ الأَسْرَى هُم الْمُتَولَّوْن لجميع امتِهانِهِ ومَئُونته العظيمةِ، كَنَشْرِ الرُّخامِ، ونحْتِ الصُّخورِ العِظامِ، وحَفْرِ الْخَنْدَقِ الْمُحْدِقِ بسُورِ ذلك الْحِصْنِ، وهُو خَنْدَقٌ يُنْقَرُ بالْمَعاوِلِ نَقْرًا فِي الصُّخُور، ولا يزَالُ عَجَبًا مِنَ الْعَجائِبِ الْبَاقِيَةِ الآثارِ.

ولِلسُّلْطَانِ أَيْضًا — بِمَواضِعَ أُخَرَ — بُنْيَانٌ. وهؤلاء الأَسْرَى مِنَ الرُّومِ — الَّذِينَ أَسْلَفْنَا ذِكْرَهُمْ — يَخْدُمونَ فيه.

(١٩) المارَسْتَان

ومِمَّا شاهدناهُ أَيْضًا — من مفاخرِ هذا السلطانِ — المارَستانُ الَّذِي بمدينةِ القاهِرَةِ، وهُو قَصْرٌ من الْقُصورِ الرَّائِعَةِ حُسْنًا واتِّساعًا، أَبْرَزَهُ لِهذه الفَضيلةِ تَأَجُّرًا واحْتِسَابًا، وعَيَّنَ قيِّمًا — مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ — وَضَعَ لَدَيْهِ خزائِنَ الْعقَاقِير، ومكَّنَهُ مِنِ اسْتِعْمالِ الأَدْوِيةِ

والأَشْربَة وإقامَتِها — عَلَى اخْتِلافِ أَنْواعِها — وَوُضِعَتْ فِي مَقاصِيرِ ذلك الْقَصْرِ أَسِرَّةٌ — يتَّخِذُها الْمَرْضَى مضاجعَ — كامِلةُ الْكُسَا، وَبَيْنَ يَدَىْ ذلكَ الْقَيِّمِ خَدَمَةٌ يتكَفَّلُون بِتَفَقُّدِ أَحْوالِ المَرْضَى بُكْرةً وعَشِيَّةً، فيُقابِلون من الأَغذيةِ والأَشْربةِ ما يَليقُ بهم.

وبإِزاءِ هذا الموضِعِ مَوْضِعٌ مُقتطَعٌ لِلنِّساءِ المرضَى، ولهنَّ من يَكْفلُهنَّ.

(٢٠) محابسُ المَجانين

ويتَّصِلُ بهذين الموضِعَيْنِ موضِعٌ آخرُ متَّسِعُ الْفِناءِ، فيهِ مَقاصِيرُ — عليها شَبابيكُ الحديدِ — اتُّخِذَتْ مَحابسَ للمجانينِ. ولهم أَيضًا من يتفَقَّدُ — في كلِّ يوْمٍ — أَحوالَهم، ويُقابلُها بما يَصْلُح لها.

والسُّلطانُ يتَطَلَّع هذه الأَحْوالَ كلَّها بالبحْثِ والسُّؤَال، ويُؤَكِّدُ — في الاِعْتِناءِ بها والْمثابَرَة عليها — غايةَ التأْكيدِ.

وبـ«مصر» مارَسْتانٌ (مُستشفًى) آخَرُ، على مِثْلِ ذلك الرَّسمِ بعَيْنِهِ.

(٢١) فِي مَسْجِدِ ابْنِ طُولونَ

وبيْنَ مِصرَ والْقَاهِرَةِ المَسجِدُ الكبيرُ المنسوبُ إلى أَبي الْعبَّاسِ: أَحْمَدَ بن طُولُونَ، وهو من الْجَوامِع العتِيقَةِ الأَنيقَةِ الصَّنْعةِ، الواسِعةِ البُنْيان. جَعلهُ السلطانُ مأْوًى لِلْغُرَباءِ — من المَغارِبةِ — يسكُنونَهُ ويَجْتَمِعُون فيه. وأَجْرَى عليْهِمُ الأَرْزاقَ فِي كلِّ شهر.

ومِنْ أَعجبِ ما حَدَّثَنا بِهِ أَحَدُ الْمُتَخَصِّصِينَ مِنْهُم: أَنَّ السُّلطانَ جعل أَحكامَهم إليهم، ولَم يَجْعل يدًا لأَحد عليهم، فقَدَّموا — مِن أَنْفُسِهم — حاكِمًا يَمْتَثِلُونَ أَمرَهُ، ويتَحاكمونَ فِي طَوارِئِ أُمورِهمْ عنْده. واسْتَصْحَبُوا الدَّعَةَ والعافِيَة، وتفرَّغُوا لِعبادةِ ربِّهِمْ، ووجَدوا — مِن فَضْل السُّلطان — أَفْضل مُعينٍ على الْخَيْرِ الَّذِي هُمْ بِسَبيله.

(٢٢) الفقراءُ واليتامى

وما مِنْها جامِعٌ مِنَ الْجوامِع، ولا مسجِدٌ مِنَ المَساجِدِ، ولا رَوْضةٌ من الرَّوضاتِ المبنِيَّةِ على الْقُبورِ، ولا محْرَسٌ من المَحارس، ولا مدْرسةٌ من المدارس، إلاَّ وَفَضْلُ السُّلطانِ يعُمُّ جمِيع مَنْ يَأْوى إليها، ويُلْزَمُ السَّكَنَ فيها. تَهُون عَلى السُّلْطانِ — في ذلِك — نفقاتُ بُيوتِ الأَموالِ. ومنْ مآثِرهِ الْكَريمةِ الْمُعْربةِ عنِ اعْتِنائِه بأُمورِ الْمُسْلِمينَ كافَّةً: أَنَّهُ أَمَرَ بعمارَةِ محاضِرَ أَلْزمها مُعَلِّمين لِكِتَاب اللهِ — عزَّ وجَلّ — يُعَلِّمُون أَبْنَاءَ الفُقراءِ والأَيْتامِ خاصَّةً، وتَجْرِي عليْهِم الْجِرايةُ الكافِيةُ لهمْ.

(٢٣) قناطرُ صلاح الدِّين

ومِنْ مَفاخرِ هذا السُّلطانِ وآثارِهِ — الْبَاقِيةِ الْمَنْفعةِ لِلْمُسْلمينَ — القناطرُ التي شرعَ في بنائِها بِغَرْبيِّ مِصْرَ. وعَلَى مِقْدارِ سَبْعةِ أَمْيال مِنهَا رصيفٌ ابْتُدِئَ من حَيِّزِ النِّيلِ بإزاءِ «مصر»، كأَنَّهُ جَبَلٌ مَمْدُودٌ عَلَى الأَرْضِ، تسِيرُ بِهِ مقدارَ سِتةِ أَمْيال حتى يتَّصِلَ بتلك القَنْطَرةِ، وهيَ نَحْوُ الأَرْبعينَ قَوْسًا — مِنْ أَكْبَرِ ما يكونُ — منْ قِسِيِّ الْقَناطرِ. والقَنْطَرةُ مُتَّصِلَةٌ بالصَّحْراء التي تُفْضِي مِنها إلى الإسكَنْدَرِيَّةِ. له في ذلك تَدْبيرٌ عجيبٌ حازِمٌ — مِن تدابيرِ المُلوك الْحَزَمةِ — إعْدادًا لحادِثَة تَطْرَأُ مِنْ عدُوٍّ يَدْهَمُ جِهةَ ثَغْرِ الإِسكَندرِيَّةِ عندَ فَيْضِ النيلِ وانْغِمارِ الأَرضِ به، وامتناعِ سلوكِ العساكرِ بسببه.

فَأَعَدَّ ذلك مَسْلَكًا في كُلِّ وقت — إِن احْتيجَ إِلى ذلك — واللهُ يدْفَعُ عَنْ حوْزَةِ المسلمينَ كلَّ متوَقَّعٍ ومحذُور.

(٢٤) أَهرامُ مصر

وبِمَقْربةٍ من هذهِ القنطرةِ الْمُحْدثَةِ، تَرى الأَهرامَ القَديمةَ الْمُعْجِزَةَ البِناءِ، الغريبةَ المنظر، الْمُرَبَّعَةَ الشَّكلِ، كَأَنها القِبابُ الْمَضْرُوبةُ قَدْ قامَتْ في جَوِّ السماءِ، ولا سِيَما الاِثْنانِ مِنها، فإِنَّهما يَغَصُّ الْجَوُّ بهما سُمُوًّا. في سَعةِ الواحدِ مِنها — منْ أَحد أَرْكانِهِ إِلى الرُّكْن الثَّانى — ثَلاثُ مئة خُطْوَةٍ وسِتٌّ وسِتُّون خُطْوَةً، قَدْ أُقيمتْ مِنَ الصُّخورِ العِظامِ المَنْحُوتَةِ، ورُكِّبَتْ تَرْكيبًا هائلًا، بديعَ الإِلْصاقِ دون أَن يتَخَلَّلَها ما يُعينُ على إِلْصاقِها. وَهي مُحدَّدة الأَطْرافِ

فِي رأَى الْعيْنِ، ورُبَّما أَمْكَنَ الصُّعودُ إِليها، عَلَى خَطرٍ ومشَقَّةٍ. فَتَلْقَى أَطرافَها الْمُحدَّدةَ كأَوْسَعِ ما يكونُ من الرِّحاب. لَو رام أَهلُ الأَرْضِ نَقْضَ بِنائِها لأَعْجزَهُمْ ذلك.

ولأَحدِ الكَبيريْنِ منها بابٌ يُصْعدُ إِليه عَلَى نَحْوِ القامَةِ مِنَ الأَرضِ — أَوْ أَزْيَد — ويُدْخَلُ منهُ إِلى بيْت كَبيرٍ، سَعتُه نَحْوُ الْخَمْسِينَ شِبرًا، وطولُه نحوُ ذلك.

وفِي جَوْفِ ذلك البيت رُخامةٌ طويلةٌ مُجَوَّفَةٌ، يُقالُ إِنها قَبْرٌ.

ودونَ الكَبيرِ هَرمٌ سَعتُهُ من الرُّكْنِ الوَاحدِ إِلى الرُّكْنِ الثَّانى مئة وأَرْبعونَ خُطْوَةً. ودونَ هذا الصغيرِ خمسةٌ صِغارٌ؛ ثَلاثةٌ مُتَّصلَةٌ، والاثنان — عَلَى مَقْربةٍ منها — مُتَّصِلانِ.

(٢٥) «أَبو الهَوْل»

وعَلَى مقْربة منْ هذهِ الأَهْرامِ صُورَةٌ غَرِيبةٌ مِنْ حَجَرٍ، قَدْ قامتْ علَى صِفَةِ آدمِيٍّ هائِلِ المَنْظَر، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الأَهْرَامِ، وظَهْرُهُ إِلى القِبْلَةِ: مَهْبِطِ النّيلِ. وهي تُعْرَفُ بِأَبِي الأَهْوَالِ.

(٢٦) مدينةُ «الجيزة»

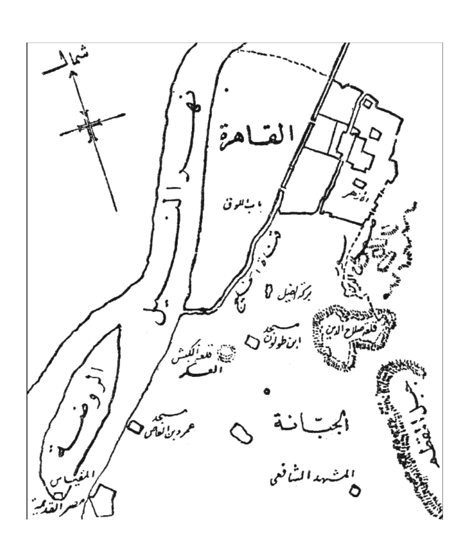
وعلَى شَطِّ النِّيلِ مِمّا يَلِي غَرْبِيَّ مِصرَ — والنِّيلُ مُعْتَرِضٌ بَيْنَهُما — قَرْيةٌ كَبيرَةٌ حَفْلَةُ الْبُنْيانِ، تُعْرَفُ بِ«الْجِيزَةِ»، لهَا — كلَّ يَوْمِ أَحَدٍ — سوقٌ من الأَسْوَاقِ الْعَظِيمَةِ يُجْتَمَعُ إِليها.

ويعْتَرِضُ بيْنَها وبيْنَ «مِصْرَ» جَزِيرَةٌ فِيها مساكِنُ حِسَانٌ، وعَلاَلِيُّ مُشْرِفَةٌ. وَهي مَجْمَعُ اللَّهْوِ والنُّزْهَةِ، وبينها وبينَ «مِصْرَ» خَليجٌ مِنَ النِّيل، يذهبُ بطُولِها نَحْوَ الْمِيلِ، ولها مَخْرجٌ لَهُ.

(٢٧) الْمقياس

وبِهذِهِ الْجزيرَةِ مَسْجِدٌ جَامِعٌ يُخْطَبُ فيه، وَيَتَّصِلُ بهذا الْجامِعِ الْمِقياسُ الذي يُعْتَبَرُ فيهِ قَدْرُ زِيَادَةِ النِّيلِ عِنْدَ فَيْضِهِ كلَّ سَنَةٍ. واسْتِشْعارُ ابتدائِهِ فِي شَهْر يُونْيَةَ، ومُعْظَمُ انْتِهَائِهِ أَغُشْتُ (أَغُسْطُس)، وآخِرُهُ أَوَّلُ شَهْرِ أُكْتوبَر. وهذا المِقياسُ عَمُودُ رُخَامٍ أَبْيَض مُثَمَّنٌ، فِي مَوْضِعٍ يَنحَصِرُ فيهِ الماءُ — عِنْدَ انْسِيابِهِ إِلَيْهِ — وهُو مُفصَّلٌ على اثْنَتَيْنِ وعشرينَ

ذِراعًا مُقَسَّمةً على أَربعةٍ وعشرينَ قِسْمًا: تُعْرَفُ بالأَصابعِ، فإذا انْتَهآ الْفَيْضُ عِنْدَهُمْ إلى أَن يَسْتَوْفي الماءُ تِسْع عشْرةَ ذِراعًا فهي الْغايةُ عِنْدَهُمْ في طِيب العام. والمُتوسِّط عندهُم ما استَوْفى سَبْعَ عشرةَ ذِراعًا، وهُوَ الأَحْسَنُ عِنْدَهُمْ من تِلْكَ الزِّيادةِ. والذي يَسْتَحِقُّ بهِ السُّلْطانُ خَراجَهُ مِنْ بلادِ مصْرَ: سِتَّ عَشْرةَ ذراعًا فصاعِدًا، وعليها يُعْطَى الْبِشارَةَ الذي يُراعِى الزِّيادَةُ في كلِّ يَوْمٍ، ويُعْلِمُ بها مُياوَمَةً حتى تَسْتَوْفِيَ الغايَةَ. وإِنْ قَصَّر عَنْ سِتَّ عَشْرةَ ذِراعًا فلا جبايةَ لِلسُّلْطَانِ في ذلك الْعامِ ولا خَراجَ.



ومن مفَاخِرِ هذا السُّلطَانِ أَنَّه سهَّلَ السَّبِيلَ للحُجَّاجِ — بعْد أَن كَادَت تنقَطِعُ. وكَفَى اللهُ المؤمنينَ عَلَى يَدَىْ هذا السُّلطانِ العادِلِ حَادِثًا عَظيمًا، وخَطْبًا أَلِيمًا، فَاسْتَحقَّ بذلك الشُّكْرَ مِن كلِّ مَن يَعتَقِدُ أَنَّ حَجَّ البيتِ الْحَرامِ، أَحدُ القَواعِدِ الْخَمْسِ مِن الإِسلامِ. وَاسْتَوْجَب الدعاءَ له في كلِّ صُقعٍ مِن الأَصْقَاعِ، وَبُقْعَةٍ مِن البِقَاعِ. واللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ من أَحسنَ عَملا.

(٢٨) الْمُكوس والضرائب

وكان في البِلادِ المِصرِيةِ وسواها مُكُوسٌ وضرائِبُ علَى كلِّ ما يُبَاعُ ويُشْتَرى — ممَّا دَقَّ أَو جَلَّ — حتى كَان الْمَكْسُ يُؤَدَّى عَلَى شُرْبِ ماءِ النِّيلِ، فضْلًا عمَّا سِواهُ. فمَحا هذا السُّلطانُ هذه البِدَعَ اللَّعِينَةَ كلَّها، وبَسَطَ الْعَدْل، وأَمَّنَ السُّبُلَ.

فَاطمَأَنَّ الناسُ — في بلادِه — وزاوَلُوا أَعمالَهم في سَوادِ اللَّيل، كما يُزاوِلونَها في ضَوءِ النَّهار، ولَمْ يسْتَشْعِرُوا لظلامِ اللَّيلِ هَيبةً تَثْنِيهِم عن ذلك، كما شاهدْنا أَحْوالَهم في «مِصرَ» و«الإسْكَنْدَريَّةِ».

الفصل الثالث

من القاهِرة إلى عَيذابْ

(١) مَواطنُ الأَنبِياءِ

وفِي صَبِيحةِ اليوْمِ السَّادِسِ مِن شَهر الْمُحَرَّمِ، كَان انفِصالُنا عن «القاهِرَة»، وصُعودُنا — فِي النِّيلِ — قاصِدينَ إِلى «قُوص»

وقد رأَيْنا الْقُرى مُتَّصلَةً علَى شطِّ النِّيلِ، فمِنْهَا قَرْيَةٌ فِي الضِّفَّةِ الشَّرْقيَّةِ مِن النِّيلِ مُباشَرَةً، لِلصَّاعِدِ فيهِ. ويُذكَرُ أَنَّ فيها كَان مَولدُ النَّبيِّ «مُوسى الكليمِ» صلَّى الله علَيهِ وسَلَّمَ، ومنْها أَلْقَتْهُ أُمُّهُ فِي الْيَمِّ، وهُو النِّيلُ. وعاينَّا أَيضًا بغَرْبيِّ النِّيلِ؛ مُيامِنًا لنا — يوْمَ إِقلاعِنا، وفِي اليَوْم الذي ولِيَهُ — المَدينَةَ القَديمةَ المنْسُوبَةَ لـ«يُوسَف الصِّدِّيقِ»، وبِها مَوْضِعُ السِّجْنِ الذي كَان فيهِ. وتُنْقَلُ أَحْجارُهُ إِلى القَلعَةِ الْمُبْتَناةِ الآنَ عَلَى «القاهِرَة»، وهُو حِصْنٌ حَصينُ المَنَعَةِ، وكانَ بهذِهِ المَدِينَةِ الطَّعامُ الذي اختَزَنَهُ بها «يوسفُ» صلَّى الله علَيهِ وسلَّمَ.

(٢) مُنْيَةُ ابنِ الخَصِيب

ومنْها الْمَوْضِعُ المَذكُورُ بـ«مُنْيةِ ابن الْخصِيبِ»، وهُو بلَدٌ على شَطِّ النيلِ — مُيامِنًا للصَّاعِد فيهِ — كبيرٌ، فِيهِ الأَسْواقُ والْحَمَّاماتُ وسائِرُ مرافِق الْمُدُنِ. اجْتَزْنا علَيْهِ فِي الْيَوْم الثَّامن لإِقلاعِنا مِنْ «مِصرَ» — لأَنَّ الرِّيحَ سَكَنَتْ عنَّا، فتَربَّصْنا فِي الطَّرِيقِ.

ولو ذَهَبْنا إِلى رَسْمِ كُلِّ موضِعٍ يعترِضُنا فِي شَطَّيِ النِّيلِ — يمينًا وشِمالًا — لضاقَتِ الكتبُ عنْهُ. لكنْ نَقْصِدُ من ذلك إِلَى الأَكْبرِ الأَشْهَر.

(٣) إِلَى أُسْيوطَ

ومرَرْنا بمدِينةٍ قديمة كان لها سُورٌ عتيقٌ، هدمَه «صَلاحُ الدينِ» وجعلَ — علَى كُلِّ مركَبٍ مُنْحَدِرٍ في النيل — وَظِيفةً من حَمْل صَخْرِه إلى القاهرةِ، فنُقِلَ بأَسْرِهِ إِلَيْها.

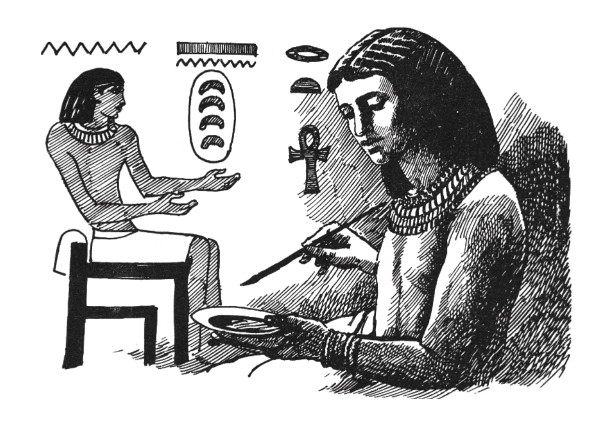
ومن الْمَواضِعِ التي اجْتَزْنا علَيْها في الصَّعِيد: موضعٌ يُعْرَفُ بـ«مَنْفَلُوطَ» بمقرَبَةٍ مِنَ الشَّطِّ الْغَرْبيِّ، مُيامنًا للصَّاعِد في النِّيل — فيهِ الأَسْواقُ وسائِرُ ما يُحتاجُ إِلَيْهِ من الْمَرافِق، في نهايةٍ منَ الطِّيبِ. وقَمْحُ هذا الْبَلَدِ يُجْلَبُ إِلَى «مِصرَ»، لِطيبهِ ورزانَةِ حَبَّتِهِ (ثِقَلِها). وقَدِ اشْتَهر عِنْدَهُمْ بذلِكَ. فالتُّجَّارُ يُصَعِّدُون في الْمَراكِبِ لاسْتِجْلابهِ.

ومنْها مدينةُ «أُسْيُوط»، وهي من مُدُنِ الصَّعيدِ الشَّهيرَةِ، بَيْنَها وبيْن الشَّطِّ الْغَرْبيِّ من النِّيلِ مقدارُ ثلاثةِ أَميالٍ.

وهي جميلةُ الْمَنْظَرِ، حَوْلَها بَساتِينُ النَّخْلِ، وسُورُها عتيق.

(٤) هَيْكَلُ إِخْمِيمَ

ومنها موضع يعرف بـ«أَبي تِيجٍ». وهو بلَدٌ فيهِ الأَسْواقُ وسائرُ مرافقِ الْمُدُنِ، وهو في الشَّطِّ الغربيِّ منَ النِّيل. ورأَينا مدينةَ «إِخْمِيمَ» وهي أَيضًا من مُدنِ الصَّعيدِ الشهيرةِ الْمذكورةِ، بشرْقِيِّ النيلِ، وعلى شَطِّه. وهذهِ الْمَدينةُ قديمةُ الإِنشاءِ، عتيقةُ الوَضْعِ، وبها آثارٌ ومصانعُ من بُنْيانِ الْقُدَماءِ، وكنائِسُ يَعْمُرُها — إِلى الآنَ — بعضُ نصارَى القِبْطِ. ومنْ أَعْجَبِ الهياكل — الْمُتحَدَّثِ بغرائبها في الدنيا — هَيْكَلٌ عظيمٌ في شرقِيِّ تلك المَدينة وتحتَ سُورها، طولُه مِائَتا ذِراعٍ وعشرونَ ذراعًا، وسَعَتُهُ مئة وسِتُّونَ ذِراعًا. وهو يُعْرَفُ عنْدَ أَهْلِ هذه الجهةِ بِاسْمِ «الْبَرْبَى»، وهذا الاسْمُ يُطلقونه على الآثارِ القديمةِ التي تماثلُه، وهذا الهيكلُ العظيمُ قَام على أَرْبعينَ سَارِيةً، حاشَا حِيطَانَهُ. دَوْرُ كلِّ كلِّ سارية (عمُودٍ) منها خَمْسُون شِبرًا، وبينَ كلِّ ساريةٍ وساريةٍ ثلاثون شِبْرًا.



ورُءوسُها في نِهايةٍ من العِظَم والإتقَانِ، قد نُحِتَتْ نحتًا غريبًا، فجاءَتْ بديعةَ الشَّكلِ، مُركَّنَةً (مَتينَةَ البِناءِ)، كأَنَّ الخرَّاطينَ تَناولُوها. وهي كلُّها مزخَرَفَةٌ بأَنواعِ الأَصْبغَةِ اللاَّزَوَرْدِيَّةِ وسواها. والسَّواري كلُّها منقوشةٌ، مِنْ أَسْفلها إلى أَعلاها. وقدِ انتصب علَى رأْسِ كلِّ ساريةٍ منها إلى رأْس صاحبتها التي تليها لَوْحٌ عظيمٌ من الحجرِ المَنحوت. وسَقْفُ هذا الهيكل كُلُّهُ مِنْ أَلْواح الْحِجارة المُنْتَظِمةِ ببديع الإِلْصاقِ. فجاءَتْ كأَنَّها فَرْشٌ واحدٌ. وقَدِ انتظمتْ جَميعَهُ التصاويرُ البديعةُ والأَصْبغَةُ الغَريبَةُ، حتى ليُخَيَّلُ للنَّاظر فِيها أَنَّها سَقْفٌ مِنَ الخشَب المَنقُوش. والتَّصاويرُ عَلَى أَنواعٍ، في كلِّ بلاطَةٍ من بلاطاته. فمنها ما قد جلَّلَتْهُ طُيورٌ بِصُوَرٍ رائِقَة، باسطَةٌ أَجْنحتَها، تُوهمُ النَّاظِرَ إِلَيْهَا أَنَّها تَهُمُّ بالطَّيَرانِ. ومنها ما قَدْ جلَّلَتْهُ تَصاوِيرُ آدَمِيَّةٌ، رائِقَةُ المنظَر، رائعَةُ الشَّكْلِ، قَدْ أُعِدَّتْ لكلِّ صورة منها هيئَة هي عليها: كَإمْساكِ تِمْثالٍ بيدِها، أَو سلاحٍ، أَوْ طائرٍ، أَو كأْسٍ، أَو إِشارةِ شخص إلى آخرَ بِيَدِهِ، أَو غيرِ ذلك، مما يَطُولُ الوَصْفُ لَهُ، ولا تتأَتَّى العبارةُ لِاسْتيفائِهِ. ودَاخِلَ هذا الهيكلِ الْعَظِيمِ وخارجَهُ وأَعلاهُ وأَسْفَلَه: تصاويرُ، كلُّها مُختلفاتُ الأَشكال والصِّفةِ. منها تصاويرُ هائلةُ المَنظَر، خارجةٌ عن صُوَرِ الآدمِيِّين، يسْتَشْعِرُ الناظرُ إِليْها رُعْبًا. وَيَتَمَلأُ منْها عِبْرَةً وتَعَجُّبًا. ولَسْتَ ترى فيه مَغْرِزَ إِشْفَى (والإِشفَى: المِثْقَب الذي يُخْرَز به الْجِلدُ)، ولا تَجِدُ مَغْرِزَ إِبرة، إلا وجدتَ فيه صورةً أو نَقْشًا، أَو كتابةً لا تُفْهَمُ كأَنَّها الْخَطُّ الْمُسْنَدُ (وَهُوَ خَطٌّ يَمَنِيٌّ قَدِيمٌ). وقَدْ عَمَّ هذا الهيكلَ العظيمَ الشأْنِ — كُلَّهُ — هذا النَّقْشُ البديعُ.

ويتَأَتَّى فِي صُمِّ الحِجارةِ مِنْ ذلك ما لا يتأَتَّى في الرِّخْوِ من الْخَشَبِ، فَيَحْسَبُ الناظرُ — استعظامًا له — أَنَّ الزمانَ لَوْ شُغِلَ بتَرْقِيشِهِ وتَرْصِيعِهِ وتَزْيِينِهِ، لضَاقَ عَنْهُ. وعَلَى أَعْلَى هذا الهَيكلِ سَطْحٌ مَفروشٌ بأَلْواحِ الْحِجارَةِ العَظيمَةِ — عَلَى الصِّفَةِ المَذكُورَةِ — وهُو في نِهايةِ الارتفَاعِ، فَيحارُ الْوَهْمُ فيها، ويَضِلُّ العَقْلُ، حِين يتَمَثَّلُ الْجُهودَ التي بُذِلَتْ في رَفْعِ هذهِ الصخور الهَائِلَة، إلى أَعلَى ذلك الهَيكلِ.

وداخِلَ هذا الهيكلِ — من الْمَجالسِ والزَّوايا، والمَداخِلِ والمَخارجِ، والْمَصاعِدِ والمَعارجِ، والمَسارِبِ والمَوالجِ — ما تَضِلُّ فيه الجماعاتُ من الناسِ، ولا يَهْتَدِي بعضُهم لِبَعْض إلاَّ بالنِّداءِ العَالِي. وعَرْضُ حائِطِهِ ثمانيةَ عشَرَ شِبْرًا، وهُو كلُّهُ من حِجارةٍ مرْصُوصَةٍ عَلَى الصِّفةِ التي ذكرناها. فشأْنُ هذا الهيكلِ عظيم، ومَرْآهُ مِنْ عجَائِبِ الدُّنيا الَّتي لا يبْلغُها الْوَصْفُ.

(٥) أَعوانُ الزكاةِ

وفِي بلادِ هذا الصَّعيدِ التي تعترضُ طريقَ الحُجَّاجِ والمُسافرينَ: كإِخميمَ، وقُوصٍ، ومُنْيَةِ ابْنِ الْخَصيبِ، كثيرٌ من الأَذَى والمُضايقاتِ التي يُلْحِقُها المَكَّاسُونَ بهم، متعلِّلين بالرغبة في تَحْصِيلِ الزَّكاةِ، فهم — كأَصحابِهم الذين استَقْبَلونا في ميناءِ الإسكندرية — يُدْخِلون أَيْديَهُمْ في أَوْساطِ التُّجار، فَحْصًا عمَّا تأَبَّطُوهُ أَوِ احْتَضنوه من دراهِمَ أَوْ دنانيرَ، دونَ أَن يُراعُوا ما يَسْتَوْجِب الزَّكاةَ. ورُبَّما أَلزمُوهُمُ الأَيْمانَ عَلَى ما بأَيديهِمْ، وهلْ عندهُمْ غيرُ ذلك؟ ويُحْضرُونَ كتابَ اللهِ العزيزِ يَقَعُ الْيمِينُ عليهِ، فيقِفُ الحُجَّاجُ — بَيْن أَيْدِي هؤلاءِ المُتناولينَ للزَّكاةِ — مَواقِفَ خِزْيٍ ومَهانَة، تُذَكِّرُهُمْ أَيَّام المُكوسِ.

(٦) جَوْر المَكَّاسين

وهذا أَمر لا شك في أَن «صلاحَ الدِّينِ» لا يَعْرِفُه، ولو عَرَفَهُ لأَمر بِقَطْعِهِ وإزالتهِ، كَما أَمر بقَطعِ ما هُو أَعْظَمُ مِنْه، ولجاهدَ أَصحابَ هذا الجَورِ المُتَنَاوِلينَ للزَّكاةِ، فإِن جِهادَهُمْ من الواجبات، لِما يَصْدُر عنهم من التَعسُّفِ، والْجَوْر، وَعَسِيرِ الإِرْهاقِ، وسوءِ المعامَلَةِ مع غُرباءَ قد انْقطَعُوا إلى الله، وخرجُوا مُهاجِرين إلى حَرمِه الأَمِين. ولَوْ شاءَ اللهُ لكانَتْ هذه المُناسَبةُ فُرْصةً لتَحْصيلِ الزَّكاةِ، ومَنْدُوحَةً لاقْتِضائِها عَلَى أَجمَلِ الوُجوهِ مِنْ ذَوى الْبضائع

فِي التِّجاراتِ، مَتَى حالَ عَلَيْها الْحَوْلُ، واسْتَوْجَبَتِ الزَّكاةَ. أَمَّا اعتراضُ الغرباءِ الْمُنْقَطعينَ — مِمَّنْ تَجِبْ الزَّكاةُ لَه لا عَلَيْهِ — فأَمْرٌ لا يَرْضاهُ ذلِكَ السُّلْطانُ العادِلُ، الَّذي قَدْ شمِلَ البلادَ عَدْلُهُ، وسارَ فِي الآفاقِ ذِكْرُهُ.

(٧) شياطِينُ الإِنْسِ

وَمِنْ أَشْنَعِ ما شَاهَدْناهُ — مِنْ ذلِكَ — خُروجُ طائفةٍ من المَرَدَة: أَعوانِ الزكاة، وقد رأَينا فِي يدِ كلِّ مارد منهم مِسَلَّةً — مِنَ المَسالِّ الطِّوالِ — فيَصعَدُونَ إِلى الْمَراكِبِ استِكْشَافًا لِما فيها، فلا يَتْرُكون غِرارة ولا عِكْمًا (زَكيبةً) إِلاَّ تَخَلَّلُوهُ وخَرَّقُوهُ بِتِلْكَ المِسَلاَّتِ الْمُؤْذِيَةِ، مَخافَةَ أَن يكونَ فِي تلك الغِرارة أَو الْعِكْم — اللَّذَيْنِ لا يَحْتَوِيانِ غَيْرَ الزَّادِ — شَيْءٌ غُيِّبَ عليهِ مِنْ بِضَاعَة أَوْ مَال.

وقد نَهَى اللهُ عن التَّجَسُّسِ، فكَيْفَ عَنْ كَشْفِ ما يُرِيدُ صاحِبُهُ أَن يسْتُرَهُ، ولا يُحب أَنْ يُطْلِعَ عليه أَحَدًا — لحقارَتِه أَو نفاستِهِ — من غَيْرِ أَن يَبْخَلَ بواجِبٍ يلزَمُهُ. واللهُ الآخِذُ على أَيدي هؤلاءِ الظَّلَمةِ بيدِ هذا السُّلطانِ العادِلِ وتوفيقِهِ، إِنْ شاءَ الله.

(٨) طائفةٌ من مُدُن الصعيد

ومِنَ المواضِعِ التي اجتَزْنا عليها — بَعْدَ «إِخْمِيمَ» موْضِعُ مُنْشاةِ السُّودانِ، عَلَى الشَّطِّ الْغَرْبِيِّ من النِّيلِ. وهي قَرْيَةٌ مَعْمُورَةٌ، ويقالُ إِنَّها كانت فِي الْقِدَمِ مَدينَةً كبيرةً. وقدْ قام أَمام هذه القَرْيةِ — بينَها وبينَ النِّيلِ — رصيفٌ عال من الحِجارة كأَنَّهُ السُّورُ يَضْرِبُ فِيهِ النيلُ ولا يَعْلُوهُ عِنْدَ فَيْضِهِ ومدِّهِ. فالْقَرْيَةُ — بِسَبَبِهِ — فِي أَمْنٍ من أَمْواجِ النيل ومياهِهِ.

ومنها موضعٌ يُسَمَّى «الْبُلْيَنَةَ» وهي قَرْيَةٌ حسَنَةٌ كثيرةُ النَّخْل، بالشَّطِّ الْغَرْبِيِّ مِنَ النيلِ، بينَها وبينَ «قُوصٍ» أَرْبَعَةُ بُرُدٍ، ومنها موضعٌ يسمَّى «دَشْنَة» بالشَّطِّ الشرْقِيِّ من النيل، بينها وبينَ «قُوصٍ» بَريدانِ (والْبرِيد: اثْنَا عَشَرَ مِيلًا). ومنها موضعٌ بغَرْبيِّ النيلِ، وعلى مقرَبة من شَطِّهِ، يسمَّى «دَنْدَرَةَ» وهيَ مدينةٌ من مُدُنِ الصَّعِيد، كثيرةُ النخلِ، مُسْتَحْسَنَةُ المَنظَرِ، مُشْتَهِرةٌ بِطَيِّبِ الرُّطَبِ، بينها وبينَ «قُوصٍ» بَرِيدٌ. وذُكِرَ لنا أَنَّ فيها هَيْكَلًا عَظِيمًا — وهو معروفٌ عِنْدَ أَهْلِ هذهِ الجهاتِ «بالْبَرْبَى» — حَسبما ذكَرنا عندَ ذِكرِ «إِخْمِيمَ» وهَيْكَلِها. وَيقالُ إِنَّ هَيْكَلَ «دنْدَرَةَ» أَحفلُ منهُ وأَعظمُ. ومنها مدينةُ «قِنا»

وهي من مُدن الصَّعِيدِ، بَيْضاءُ أَنيقَةُ الْمَنْظَرِ، ذاتُ مبان حفِيلَةٍ. ومنها «قِفْطٌ» وهيَ مدينةٌ بِشَرْقِيِّ النيل — وعلى مقدار ثلاثةِ أَمْيال من شَطِّه — وهيَ من الْمُدُنِ المذكورةِ في الصَّعيدِ حُسْنًا ونظافَةَ بُنيانٍ، وإِتقانَ وَضْعٍ.

ثم كان الوصولُ إلى «قُوصٍ» يومَ الْخَميس الرَّابعِ والعشرينَ لِمُحَرَّمٍ؛ فكانَ مُقامُنَا في النيلِ ثمانيةَ عَشَرَ يَوْمًا، ودخلنا مَدِينَةَ «قُوص» في التاسعَ عَشر، وهذهِ المدينةُ حفيلةُ الأَسْواقِ، متَّسِعةُ الْمَرافقِ، كثيرةُ الْخَلْقِ، لِكَثْرةِ الصادِرِ والوارِدِ من الحُجَّاجِ والتُّجَّارِ اليَمَنيينَ والهِنْدِيينَ وتُجَّار أَرْضِ الْحَبَش؛ لأَنَّها مَخْطَرٌ (مَمَرٌّ) لِلْجَمِيع، ومَحَطٌّ لِلرِّحالِ، ومُجْتَمَعُ الرِّفاقِ، ومُلْتَقَى الْحُجَّاجِ المَغارِبةِ والمِصريينَ والإِسْكَنْدرِيينَ ومَنْ يتَّصلُ بهمْ. ومنها يُسافِرون مُفَوِّزين (قاطِعينَ الْمَفازة) بِصَحْراءِ «عَيْذَابَ»، وإِليها انْقِلابُهُمْ حين يَرْجِعُون من الْحَجِّ. وكان نُزُولُنَا فيها بفُنْدُقٍ يُنْسَبُ لابْنِ الْعَجَمِيِّ.

(٩) خُسوفُ القمر

واستَهَلَّ هِلالُ «صَفَر» ليلةَ الأَرْبِعاءِ، ونَحْنُ بـ«قُوصٍ» نُريدُ السَّفَر إلى «عَيذابَ»، وفي يَوْمِ الإِثْنَيْنِ الثالثَ عشرَ منهُ، أَخْرَجْنا جميعَ رِحالِنا — مِنْ زَاد وسواهُ — إلى موْضِعٍ بِقِبْلِيِّ الْبَلَدِ وعَلَى مَقْرَبةٍ منهُ، فَسيحِ السَّاحَةِ، مُحْدَقٍ بالنَّخِيل، يَجْتَمِعُ فيهِ رِحالُ الحاجِّ والتُّجارِ، وتُشَدُّ فيهِ، ومنهُ يَسْتَقِلُّونَ وَيَرْحَلون، وفيهِ يُوزَنُ ما يُحْتَاجُ إلى وزْنِهِ عَلَى الْجَمَّالِينَ.

فلما كُنَّا إِثرَ صَلاةِ العِشاءِ، رفعْنا منهُ إلى ماءٍ يُعْرَفُ بالحاجِرِ، فبِتْنَا بهِ. وأَصْبَحْنا — يومَ الثُّلاثاءِ بَعْدَهُ — مُقيمينَ به، بِسَببِ تَفقُّدِ بعضِ الجمَّالين — مِن العَرب — لِبُيوتِهِمْ، وكَانَتْ عَلَى مَقْرَبة مِنْهُمْ.

وفي لَيلة الأَرْبِعاءِ: الخامسَ عشَرَ منهُ — ونَحْنُ بالحاجِرِ — خُسِفَ القَمرُ خُسوفًا كُلِّيًّا — أَوَّلَ الليلِ — وتمادَى إلى هَدْءٍ منهُ. ثمَّ أَصْبَحْنا يَوْمَ الأَرْبِعاءِ مُسافِرينَ — إلى نصف النَّهار — فَبلَغْنا موْضعًا يُعْرفُ بِقِلاع الضِّياعِ. ثمَّ كانَ الْمَبيتُ بِمَوْضع يُعْرَفُ بِمَحَطِّ اللَّقيطَةِ. كلُّ ذلكَ في صَحْراءَ لا عِمارَةَ فيها.

(١٠) مصرعُ العَبدين

ثُمَّ غَدَوْنا يَوْمَ الخميسِ، فنَزَلْنا عَلَى ماءٍ يُنْسَبُ لِلْعَبْدَيْن، وقد سأَلْنا عن العَبْدَين من هُما، فَقيلَ لَنَا إِن عَبْدَينِ قد ماتا عطشًا — قبل أَن يرِدا هذا الماءَ — فَسُمِّيَ ذلكَ المَوْضعُ بهما. وقَبْراهُما بهِ، رَحِمَهُما اللهُ. ثُمَّ تزَوَّدْنا منهُ الماءَ لثلاثةِ أَيَّام، وَفَوَّزْنا (سِرْنا في المَفَازة، وهي: الصَّحْراءُ) مُسافرِينَ سَحَرَ يَوْم الْجُمُعةِ السَّابعَ عشَرَ منهُ، نَبيتُ كُلَّما جاءَ الليلُ، ونرَى في طَريقنا القَوافِلَ العَيْذابِيَّةَ والقُوصِيَّةَ — صادِرَةً ووارِدةً — والْمَفازَةَ مَعْمورَةً أَمْنًا. فلمَّا كانَ يَوْمُ الإِثْنَيْنِ المُوفي عِشرينَ منهُ، نزَلنا على ماءٍ بموْضِعٍ يُعْرفُ بِاسْمِ «دنْقاش» وهيَ بئْرٌ مَعِينةٌ قَرِيبٌ ماؤها مِنْ وجهِ الأَرْض، فَيرْتَوِي منها — من الأَنام والأَنعامِ — ما لا يُحْصِيهِمْ إلا اللهُ عَزَّ وجَلَّ.

(١١) الهوادِجُ اليمنيَّة

ولا يسافَرُ في هذه الصَّحْراءِ إلاَّ عَلَى الإِبل؛ لِصَبْرِها عَلَى الظَّمَإ. وأَحْسَنُ ما يَسْتَعينُ بهِ المُسافِرونَ — مِن أَهْلِ اليسارِ وذَوِي التَّرْفيهِ — أَنَّهُم يَضَعون عَلَى الْجِمالِ شَقادفَ تُشْبِهُ الهَوادجَ والمَحاملَ. وأَحْسنُ أَنواعِها اليمانيَّةُ، وهي مُجَلَّدَة مُتَّسِعَةٌ، مَشْدودةٌ إِلى الجمالِ بأَحْزِمة يُوصَلُ بين كُلِّ اثْنَيْنِ منها بالحبال الوثيقة. ويوضع الهَوْدَجُ أَوِ الشُّقْدُفُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعير. ولها أَذْرُعٌ قَدْ حَفَّتْ بأَرْكانِها، يكونُ عَليها مِظَلَّةٌ تَقي مَنْ في الهَوْدَجِ حَرَّ الشَّمس؛ فَيقعُدُ مُسْتريحًا، ويتناوَلُ — مع عَديلِهِ — ما يَحْتاجُ إِليهِ من زادٍ وسِواهُ، ويُطالِعُ — متَى شاءَ المُطالَعةَ — في مُصْحَفٍ أَوْ كتابٍ. ولِمنْ شاءَ — مِمَّنْ يأْلَفُ اللَّعِبَ بالشِّطْرَنْجِ وَيَسْتَجِيزُهُ — أَن يُلاعِبَ عَديلَه تَفَكُّهًا وإِجْماعًا لِلنَّفْسِ. وبالْجُمْلَةِ فإِنها مُريحَةٌ مِن نَصَبِ السَّفَرِ. وأَكْثرُ المُسافِرينَ يرْكَبونَ الإِبلَ عَلَى أَحْمالِها، فَيُكابدونَ مِن مَشَقَّةِ الْحَرِّ ولَفْحِ الشَّمس عَنَتًا وَمَشَقَّةً.

(١٢) شِجار الجمّالين

وفي هذا الماءِ وقعَتْ مُشاجرَةٌ بِسَببِ التَّزَاحُمِ عَلَى الماءِ بين بعْضِ جَمَّالِي العرَبِ اليَمَنيِّينَ — أَصْحَابِ طريقِ «عَيْذَاب» —وبين بعْضِ الأَغْزازِ (والغُزُّ جِنْسٌ منَ التُّرْك)؛ فكادَت تلكَ الْمُهاوَشَةُ تُفْضي إِلى الفِتْنَةِ، ثمَّ عَصَمَ اللهُ منها ولَطَفَ.

(١٣) الطريقان

والقَصْدُ إِلى «عَيْذاب» مِن «قُوصٍ»، عَلَى طريقَيْنِ: إِحْداهُما تُعْرَفُ بِطَريقِ الْعَبْدَيْنِ — وهي هذه التي سلكْناها — وهيَ أَقْصرُ مَسافةً. والأُخْرَى تبْدَأُ مِن قرْية على شاطئِ النِّيل بالقُرْبِ من مَدينة «قِنَا»: وتَلتقي الطَّريقانِ عَلَى مَقْرَبة منْ ماءِ «دنقاش»، كما تَلْتَقِيانِ كذلك على ماءِ «شاغِبٍ»، وهو عَلَى مسافة يوْم بعْدَ «دنقاش».

فلمَّا كانَ غِشاءُ يوْمِ الإثنيْنِ، تَزَوَّدْنا الماءَ — لِيوْمٍ ولَيْلَةٍ — ورفعنا إلى ماءِ «شاغِبٍ»، فَوَرَدْناهُ. وهذا الماءُ ثِمَادٌ (قليلٌ) والنَّاسُ يَحْفِرُونَ عليهِ في الأَرْضِ، فَتَسْمَحُ الأَرْضُ بهِ قريبًا غيرَ بَعيدِ.

(١٤) مُلْتَقَى القوافِلِ

ثُمَّ رحلْنَا في وقت السَّحَرِ من يَوْمِ الْخَمِيسِ — بعْدَ أَن تزَوَّدْنا الْماءَ — فلَمَّا كانَ ضَحْوَةُ يَوْمِ الأَحَدِ نزَلْنا بـ«أَمْتانَ»

وفي هذا الْيوْمِ كانَ فَراغُنا مِنْ حِفْظِ كِتابِ اللهِ، عَزَّ وجَلَّ، لهُ الْحَمْدُ ولَهُ الشُّكْرُ عَلَى ما يَسَّر لَنا مِنْ ذلِكَ.

وقد وَرَدْنَا الْمَاءَ ب «أَمْتانَ» فِي بِئْرٍ معِينَةٍ، قَدْ خَصَّها اللهُ بِالْبَركةِ، وَهُوَ أَطْيَبُ مِياه الطَّرِيقِ وأَعْذَبُها. فَيُلْقِي كلُّ واردٍ دَلْوَهُ، وتلتَقي فيها دِلاؤُهُم التي لا تُحصى، فَتَرْوَى الْقوافِلُ النَّازِلَةُ عَليْها — عَلَى كَثْرَتِها — وتَرْوَى جَماعاتٌ كَثِيرة من الإِبل، لو وَرَدَتْ نَهْرًا من الأَنْهارِ لأَنْضَبَتْهُ وأَنْزَفَتْهُ.

وقد أَردنا أن نُحْصِيَ الْقَوافِلَ الْوارِدَةَ والصَّادِرةَ — في هذه الطَّريق — فما تَمَكَّنَ لَنا، ولا سِيَّما القَوافِلَ العَيْذَابيَّةَ التي تحْمِلُ سِلَعَ «الهند» وبضَائِعَها الْواصِلَةَ إِلى «الْيَمَنِ» ثُمَّ مِنَ «الْيَمَنِ» إِلى «عَيْذاب»

وأَكْثَرُ ما شاهَدْنا مِن ذلك أَحْمالُ الْفُلْفُلِ، فَلَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْنا — لِكَثْرَتِهِ — أَنَّهُ يُوازِي التُّرابَ قِيمةً.

وقد كُنَّا نَسِيرُ بِقارِعَةِ الطَّرِيق — في تلك الصَّحْراءِ — فَنَرى أَحْمالَ الفُلْفُل والقِرْفةِ وغَيْرِها من البضائِعِ والسِّلَعِ، مَطْرُوحَةً — لا حارِسَ لها — وقد تُرِكَتْ في عُرْضِ الطَّرِيق، إمَّا لإعْياءِ الإبِلِ الْحامِلَةِ لها أَوْ غيرِ ذلك من الأَعْذارِ. وتبقى تلك الأَحْمَالُ بِمَوْضِعها، إلى أَنْ يَنْقُلها صاحِبُها مَصُونَةً من الآفاتِ، عَلَى كَثْرَة المارِّينَ عليها من مُختَلِف النَّاسِ.

(١٥) طريق الوَضَحِ

ثُمَّ كانَ رَفْعُنا مِنْ «أَمْتَانَ» صَبِيحةَ يَوْمِ الإِثْنَين، ونزَلْنا على ماءٍ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِاسْمِ «مُجاجٍ» بِمَقْرَبَة مِنَ الطَّرِيقِ، ظُهْرَ يوْمِ الاثْنَيْنِ، ومِنْهُ تَزَوَّدْنا الْمَاءَ لأَرْبَعَةِ أَيَّام — إِلَى مَاءٍ بِموْضِعٍ يُعْرَفُ باسْم «الْعَشَراءِ»، عَلَى مسافَة يَوْمٍ مِنْ «عَيْذَاب».

ومِنْ هذه الرِّحْلَةِ الْمُجَاجِيَّةِ يُسْلَكُ الْوَضَحُ، وهي رمْلَةٌ سَهْلَةٌ تَتَّصِل بساحِلِ بَحْر «جُدَّةَ» وتُوَصِّلُ إِلَى «عَيْذَاب»، حَيْثُ يمْشى الْمُسَافِرُ في أَرض فَسِيحَةِ الأَرجاءِ، يَمْتَدُّ فيها الْبَصر يَمِينًا وشِمَالًا.

وفِي ظُهر الثُّلاثَاءِ كانَ رَفْعُنا مِنْ «مُجاجٍ»، سالكين عَلى الْوَضَحِ. وقَد استهلَّ هلالُ رَبيع الأَوَّل ليلةَ الجمعة، ونحن بآخِرِ الْوَضَح، عَلَى نحْو ثَلاثِ مَراحِلَ من «عَيْذَاب».

وفِي وقت الغداة مِن يوم الْجُمُعَةِ، كان نُزولُنا عَلَى الْماءِ بمَوْضِعِ «الْعُشَرَاءِ»، عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ «عَيْذَاب».

وَماءُ هذا الْمَوْضِع لَيْسَ بِخَالِص الْعُذُوبَةِ. وهُوَ فِي بِئْرٍ غَيْرِ مَطْوِيَّة (غَيْرِ مَبْنِيَّةٍ من الداخِلِ).

وأَلْفَيْنَا الرَّمْلَ قد انْهالَ عليها، وغطَّى ماءَها. فرامَ الْجَمَّالُونَ حَفْرَها واسْتِخْراج مائِها، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذلِكَ، وَبَقِيَتِ الْقَافِلَةُ لا ماءَ عِنْدَها.

فأَسْرَيْنَا تِلْكَ الليْلَةَ، فنزَلْنَا — ضَحْوَةً — عَلَى ماءٍ قَرِيبٍ مِنْ «عَيْذَاب»، وهو بِمَرْأَى الْعَيْنِ مِنها، تَسْتَقِي مِنْهُ الْقَوافِلُ وأَهْلُ الْبَلَدِ، ويَعُمُّ الْجَمِيعَ، وَهو بِئْرٌ كَبِيرَةٌ.

(١٦) مدينة «عَيْذَاب»

فلمَّا كان عَشِيُّ يَوْمِ السَّبْتِ دخلنا «عَيْذَاب»، وهي مدينةٌ على ساحِلِ بَحْرِ «جُدَّة»، غَيْرُ مُسَوَّرةٍ، أَكثرُ بيوتِها الأَخْصاصُ، وفيها الآن بناءٌ مُسْتَحْدَثٌ بالْجِصِّ. وَهيَ من أَحْفَلِ مَراسِي الدُّنْيا، لأَنَّ مراكِبَ الهندِ والْيَمَنِ تَحُطُّ فيها، وتُقْلِع منها، زَائِدًا إِلى مَراكب الحُجَّاجِ الصادرةِ والواردةِ. وهي في صَحراءَ لا نَباتَ فيها، ولا يُؤكلُ فيها شيْءٌ إِلاَّ مَجْلُوبٌ يَجيئها من البلادِ الأُخرى.

لكِنَّ أَهلَها — بِسَبَبِ الْحُجَّاج — تحْتَ مَرْفقٍ كثيرٍ، وفي خَيْرٍ عميمٍ، لأَنَّ لهم — على كلِّ حِمْل طَعامٍ يَجْلُبونَهُ — ضريبةً معلومةً خفيفَةَ المُؤْنَةِ، إِذا قيسَتْ إِلى الوظائِفِ المُكُوسيَّةِ التي كانوا يتقاضَوْنَها قبلَ اليوْمِ.

وقد ذكرنا أَن «صَلاحَ الدين» قد أَزالها، ولهم أَيضًا من المَرافِقِ من الحاجِّ إِكراءُ الْجِلاَبِ منهم (أَجرُ المَراكب)، فَيَجْتَمِعُ لهم مِنْ ذلك مالٌ كثيرٌ يتقاضَونَهُ من حمْل الحجَّاج إِلى «جُدَّةَ» ورَدِّهِمْ إِلى «عَيْذَاب» وقتَ انفِضاضِهِمْ من أَداءِ الْفَرِيضَةِ.

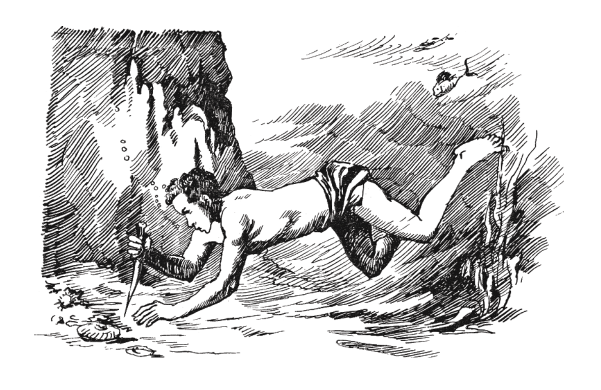
(١٧) في دارِ الحَبَشِيِّ

ولَسْتَ تَرى أَحدًا مِنْ أَهلها ذَوِي الْيَسَار والغِنى إِلاَّ مَنْ لهُ الْجَلَبَةُ والْجَلَبتان (المرْكَب والمَركَبَانِ). فهي تعود عليهم برزق واسِعٍ. سُبْحَانَ قاسِمِ الأَرزاقِ على اخْتِلافِ أَسبابها، لا إِله سِواهُ.

وكان نُزُولُنا فيها بِدَارٍ تُنْسَبُ إِلى «مَونَح» أَحَدِ قُوَّادِها الْحَبَشِيِّينَ الذينَ بَنَوْا فيها المَنازلَ وتأَثَّلُوا بها (اكتَسَبُوا وأَسَّسُوا) الدِّارَ والرِّباعَ والْجِلابَ.

(١٨) مغاصُ اللؤْلؤ

وفي بَحرِ «عَيْذَاب» مَغَاصٌ عَلَى اللُّؤْلُؤ في جزائر على مقرَبة منها. وأَوانُ الْغَوْصِ عليهِ في هذا التاريخِ الذي أُقَيِّدُ فيه هذه الأَحْرُفَ — وهو شَهْرُ يونْيُو الْعجمي — والشَّهْرُ الذي يَتْلُوهُ.



ويُسْتَخْرَجُ منهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ، لهُ قِيمةٌ سَنِيَّةٌ، يَذْهَبُ الغائِصونَ عليهِ إلى تلك الْجَزائِرِ في الزَّوارِيقِ، ويقيمونَ فيها الأَيَّامَ، فَيَعُودونَ بما قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ واحِدٍ منهم بِحَسَبِ حَظِّهِ مِنَ الرِّزْقِ. والْمَغاصُ منها قريبُ القَاعِ، ليسَ ببعيدٍ. وَيَسْتَخْرِجُونَهُ في أَصْدافٍ لها أَرْواحٌ — كَأَنَّها نَوْعٌ منَ الْحِيتانِ — وهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالسُّلَحْفاةِ. فإذا شُقَّتْ ظَهَرَتِ الشَّفتانِ — مِن داخلها — كأَنَّهُما مَحارتَا فَضَّةٍ. ثمَّ يَشُقُّون عليها فَيَجِدُونَ فيها الْحَبَّةَ — منَ الْجَوْهَرِ — قد غَطَّى عليها لَحْمُ الصَّدَفِ. فَيَجْتمِعُ لهمُ من ذلك بِحَسَبِ الْحُظُوظِ والأَرْزَاقِ. فَسُبْحانَ مُقَدِّرِها لا إِله سِواهُ.

(١٩) سُكانُ الجِبالِ

لكِنَّهُمْ بِبلْدَةٍ لا رطْبَ فيها ولا يابِس، قد أَلِفُوا بها عَيْشَ البَهائِمِ. فَسُبحانَ اللهِ الْمُحَبِّبِ الأَوْطانَ إلى أَهْلِها!

على أَنَّهم أَقْربُ إلى الْوحْشِ منهم إلى الإِنْسَانِ.

والرُّكوبُ من «جُدَّةَ» إليها آفةٌ لِلْحُجَّاجِ عظيمةٌ، إلاَّ الأَقلَّ منهم، مِمَّنْ يُسَلِّمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ. وذلك أَنَّ الرِّياحَ تُلْقِيهمْ — على الأَكْثَرِ — في مراسٍ بِصَحاري تَبْعُدُ منها مما يلي الْجَنُوبَ. فينْزِلُ إليهم البُجاةُ — وهم نوْعٌ من السُّودانِ ساكِنُونَ بالْجِبَالِ — فَيُكْرُونَ منهم الجمالَ، ثمَّ يَسْلُك بهم البُجاةُ غيرَ طريقِ الماءِ. فَرُبمَا ذهب أَكْثَرُهُمْ عطَشًا وحصل الْبُجاةُ عَلَى ما تَخلفَ منْ نَفَقَةٍ أَوْ سِواها. ورُبما كان من الْحُجَّاجِ مَنْ يتَعَسَّفُ تلك الصحراءَ عَلَى

قَدَمَيْهِ، ويمشي فيها على غير هُدًى، فَيَضِلُّ ويَهْلِكُ عَطَشًا. والذي يسْلَمُ منهم يصلُ إِلى «عَيْذَاب» كأَنَّهُ مَيِّتٌ قد عادَ إِلى الحياةِ وهَوُ مُنَشَّرٌ من كَفَن.

وقد شاهَدْنا منهمْ — مُدَّةَ مُقامِنا — أَقْوامًا قد وَصلوا عَلَى هذه الصِّفَةِ. في مَناظِرِهِم الشَّاحِبَةِ المُسْتحِيلَةِ وهَيْئَاتهِمُ الْمُتغَيِّرة، آيةٌ لِلْمُتَوسِّمينَ، وَعِبْرَةٌ للنَّاظِرينَ.

وأَكْثَر هَلاَكِ الْحُجَّاجِ بِهذهِ المَراسِي، ومنهم منْ تُسَاعِدُهُ الريحُ إِلى أَنْ يَحُطَّ بمُرْسَى «عَيْذَاب» وَهُوَ الأَقَلُّ.

الفصل الرابع

من عَيذاب إلى جُدّة

(١) سُفُنُ الحُجَّاج

والمَراكِبُ — التي يُصَرِّفونها في هذا البحرِ الفِرْعَوْنِيِّ — مُلَفَّقَةُ (مُتَضامَّةُ) الإنشاءِ والتَّرْكِيبِ، لا يُسْتعملُ فيها مِسْمارٌ الْبَتَّةَ، إنما هي مَخِيطةٌ بِأَمراس من القِنْبارِيِّ، وهو قِشْرُ جَوْز النَّارَجيل (الْجَوْزِ الهِنْدِيِّ). وَهُمْ يَدْرُسونهُ إلى أَن يُصْبِح خُيوطًا، وثَمَّ يَفْتِلون منهُ أَمْراسًا (حبالًا) يَخيطون بها المَراكِبَ، ويضعون في خلالها قِطَعًا منْ عِيدان النخل، بَدلا من الْمَسَامِيرِ. فإذا فَرَغوا منْ إنشاءِ المَرْكَبِ عَلَى هذه الصِّفَةِ، سقَوْها بالسَّمْنِ، أَوْ بدُهْنِ الْخِرْوَعِ، أَوْ بِدُهْنِ القِرْش، وهُو أَحْسَنُها. وهذا القِرْشُ حُوتٌ عَظيمٌ في البحْرِ، يَبْتَلِعُ الغَرْقَى. وإنما يدْهُنون المَرْكَبَ بدُهن القِرْشِ لِيَلِينَ عودُه ويَرْطُبَ — لكَثْرَة الشِّعاب التي تَعْتَرِضُ المَراكِبَ في هذا البَحْر — ولذلك لا يُصَرِّفون فيهِ الْمَرْكَبَ المِسْمارِيَّ.

وعُودُ هذه المَراكِب مَجْلوبٌ منَ الهِنْدِ واليَمَن، وكذلك الْقِنْبارِيُّ الذي ذكَرْناهُ آنفًا. ومن أَعْجَبِ أَمْرِ هذه المَراكِب أَنَّ شُرُعَها منْسوجةٌ من خُوصِ شَجَر الْمُقْلِ. فَمَجْموع ما في تلك السُّفُن مُتَناسِبٌ في اختلالِ البِنْيَةِ وضَعْفِ التَّرْكيب، فَسُبْحَان مُسخِّرِها عَلَى تلْك الحال، وتَبَارَكَ الْمُسَلِّمُ مِنها، لا إِله سِواهُ.

(٢) طمع المَلاَّحين

ولأَهْلِ «عَيْذَاب» — في الْحُجَّاجِ — أَحْكَامٌ جائِرةٌ، وذلِكَ أَنَّهُمْ يَشْحَنُونَ بِهم الجِلابَ — وَهِي المَراكِبُ — حتَّى يَجْلسَ بَعْضُهم عَلَى بَعْضٍ، وتَعودَ بِهِم كأَنَّها أَقْفَاصُ الدَّجاجِ الْمَمْلوءَةُ.

يَحْمِلُ أَهْلَها عَلَى ذلِكَ الْحِرْصُ والرَّغْبَةُ فِي الْكِراءِ، حَتَّى يَسْتَوْفِيَ صاحِبُ الْمَرْكَبِ مِنْهُمْ ثَمَنَهُ فِي طَرِيق واحِدَة، ولا يُبالِي بِمَا يصنَعُ الْبَحْرُ بها بَعْدَ ذلِكَ. ويَقُولُونَ:

«عَلَيْنَا بالأَلْواحِ، وعَلَى الحُجَّاجِ بالأَرْوَاحِ».

هذَا مَثَلٌ مُتَعارَفٌ بينَهُم، وهذهِ الْبَلْدةُ هِيَ أَحَقُّ بلاد الله بأَن يُطَهِّرَهَا السَّيْفُ وَيَمْحُوَ مظالمَ أَهْلِيها، ويُنْقِذَ الناسَ من شرورهم.

(٣) سُبُل الحُجَّاج

والأَوْلَى بِالْمَرْءِ أَلاَّ يرَاها وأَلاَّ يذهبَ إِلَيْها، وأَنْ يكونَ طريقُهُ عَلَى الشامِ إِلى العِراقِ، ويَصِلَ معَ أَميرِ الحاجِّ البَغْدَادِيِّ. وإِنْ لَمْ يُمْكِنْهُ ذلكَ أَوَّلًا، فَيُمكنُه آخِرًا عِنْدَ انْفِضَاضِ الحاجِّ، لِيَتَوَجَّهَ — مع أَمير الحاجِّ هذا — إِلى «بَغْدَادَ»، ومنها إِلى «عَكَّةَ»، فإِنْ شاءَ رَحَلَ منها إِلى «الإِسْكَنْدَرِيَّةِ»، وإِنْ شاءَ إِلى «صِقِلِّيَةَ» أَوْ سِواهُما. ويُمْكِنُ أَنْ يجِدَ مَرْكبًا منَ الرُّومِ يُقْلِعُ إِلى «سَبْتَةَ» أَوْ سِواها من بلادِ المُسْلمينَ.

وإِنْ طالَ طريقُه فَيَهونُ لَمَا لَقِيَ بِمَدينةِ «عَيْذَاب» ونحْوِها.

(٤) سُلطانُ البُجاةِ

وأَهْلُها الساكنون بِهَا منْ قَبيلِ السُّودانِ، يُعْرفُونَ بالْبُجَاةِ، ولهُمْ سُلْطانٌ منْ أَنْفُسِهم يَسْكُن مَعهُمْ في الْجبالِ الْمُتَّصِلَةِ بِها.

ورُبَّمَا وَصَل في بَعْضِ الأَحْيانِ، واجْتَمع بالْوالِي — الذي فيها من الْغُزِّ — إِظْهارًا للطَّاعةِ. والْفَوائِدُ كلُّها للسُّلْطان إِلاَّ الْقَليل. وهذه الفِرْقَةُ — مِن النَّاسِ — هيَ أَضَلُّ من الأَنعام سبيلًا، وأَقَلُّ عقولًا، وليسَ لهمْ دينٌ سِوَى كلمةِ التَّوْحيدِ التي يَنْطِقون بها إِظْهارًا للإِسْلامِ. ووَراءَ ذلك — مِنْ مَذاهِبِهِم الفاسِدَةِ، وسِيَرِهِم — ما لا يُرْضِي وَلا يَحِلُّ.

ورجالُهم ونساؤُهُم يتَصرَّفونَ عُرَاةً — إِلاَّ خِرَقًا يَسْتُرون بها بَعْضَ أَجْسادِهم — وأَكْثَرُهم لا يَسْتَتِرُونَ.

(٥) يومُ السَّفَر

وفِي يوْم الاِثْنين: الخامسِ والعشرينَ لربيعٍ الأوَّلِ، ركِبْنَا المَرْكَبَ لِلْعُبورِ إِلَى «جُدَّةَ»، فأَقَمْنا يومنا ذلك بالمُرْسَى، لِرُكود الرِّيحِ ومغِيبِ النَّواتِيِّ (المَلاَّحِينَ). فلَمَّا كانَ صَبيحةُ يومِ الثُّلاثَاءِ، أَقْلَعْنا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ — عزَّ وجَلَّ — وَحُسْنِ عَوْنِه المَأْمُولِ، فكانَتْ مُدَّةُ المُقَامِ بِعَيْذَاب — حاشَى يومَ الاِثْنَينِ المَذكُور — ثلاثَةً وعِشْرينَ يوْمًا، مُحْتَسَبَةً عِنْدَ الله، لشَظَفِ الْعَيْشِ وسُوءِ الْحالِ، واخْتلالِ الصِّحَّةِ لِعَدَمِ الأَغْذِيَةِ المُوافِقَةِ. وحَسْبُك مِن بَلَد كلُّ شَيءٍ فيهِ مَجْلُوبٌ حتَّى الْمَاءُ، فإِنَّهُ زُعاقٌ (مُرٌّ غَليظ لا يُطاقُ شُرْبُهُ)، والْعَطَشُ أَشْهَى إِلى النَفْسِ منهُ.

فَأَقَمْنا بَيْنَ هواءٍ يُذِيبُ الأَجْسَامَ، وماءٍ يَشْغَل الْمَعِدَةَ عن اشْتِهاءِ الطَّعام.

فَما ظَلَم من عَنَى هذه الْبَلْدَةَ بِقَوْلِهِ: «ماءٌ زُعاقٌ، وجَوٌّ كُلُّهُ لَهَبُ».

(٦) سِجن العفاريت

فالْحُلُولُ بها من أَعْظَمِ المَكَارِهِ التي حُفَّ بها السَّبِيلُ إِلى الْبَيْتِ الْعتِيقِ، زادَهُ اللهُ تَشرِيفًا وتكْرِيمًا، وأَعْظَمَ أُجُورَ الْحُجَّاجِ عَلَى ما يُكابِدُون، ولا سِيَّما في تِلْك الْبَلْدةِ الشَّقِيَّة، وقد لَهِجَ الناسُ بذِكر قبائحها حتَّى زعَمُوا أَن «سلَيمانَ بْنَ داوُدَ» — عَلَى نَبِيِّنَا وعلَيْهِ السَّلاَمُ — كان قدِ اتخَذها سِجْنًا للْعفارتَةِ (لِلْعَفارِيتِ). وهذه الأُسطُورةُ تُمثِّل ما يلْقَاهُ المُقيم فيها من مشَقَّةٍ وعَناءٍ.

(٧) بحْرُ فِرْعَوْن

وقد تَمادَى سَيْرُنا في البَحْرِ يومَ الثُّلاثَاءِ ويَوْمَ الأَرْبعاءِ بَعْدَهُ بريحٍ فاتِرَةِ الْمَهَبِّ، فلمَّا كان العِشَاءُ من لَيْلَةَ الخميسِ — ونَحن قد استَبْشَرْنا بِرُؤْيةِ الطَّيْر المُحلِّقةِ من بَرِّ الحِجازِ — لَمَعَ برْقٌ من جِهَة الْبرِّ، وهي جهَةُ الشَّرْقِ، ثُمَّ نَشَأَ نَوْءٌ أَظْلَم له الأُفُقُ إِلى أَن كَسا الْجَوِّ كُلَّهُ سَوَادًا.

وهبَّتْ رِيحٌ شديدةٌ صرَفَتِ المَرْكَبَ عن طريقهِ، راجعًا وراءَهُ. وتَمادَى عُصوفُ الرِّياحِ، واشْتَدَّتْ حُلْكَةُ الظُّلْمةِ وَعمَّت الآفاقَ، فلَمْ نَدْرِ الجِهةَ المَقصُودَة منها، إلى أَنْ ظَهر بَعْضُ النُّجوم، فاستَدلَلْنا بها بعْضَ الاسْتِدْلالِ، وحَطَطْنا الْقِلْعَ إِلى أَسْفَل الصَّارِي. وأَقمْنا لَيْلَتَنا

تلكَ في هَوْل يُؤْذِنُ بالْيَأْسِ، وأَرانَا بَحْرُ فِرْعَوْنَ بعْض أَهْوالِه المَوْصُوفَةِ، إلى أَن أَتَى اللهُ بالْفَرجِ مُقْتَرِنًا مع الصَّباحِ، فسَكَنَتِ الرِّيحُ، وأَقْشَعَ الغَيْمُ، وأَصْحَت السَّماءُ.

(٨) عائِقَةُ السُّفُنِ

ولاح لنا بَرُّ الحجاز — عَلَى بُعْدٍ — لا نُبْصِرُ منه إلاَّ بعضَ جِبالِه، وهي شَرْقًا من «جُدَّةَ». زَعَمَ رُبَّانُ المَرْكَبِ — وهو الرائِسُ — أَنَّ بينَ تلك الجبالِ التي لاحَتْ لنا وبَرِّ «جُدَّة» يَوْمَيْنِ، واللهُ يُسَهِّلُ لنا كلَّ صَعْبٍ ويُيَسِّرُ لنا كلَّ عَسيرٍ. فجرَيْنا يَوْمَنا ذلك — وهو يومُ الْخَمِيسِ — بريحٍ رُخَاءٍ طَيِّبَةٍ، ثمَّ أَرْسَيْنَا عَشِيَّةً في جَزِيرةٍ صغيرة في الْبَحْرِ على مَقْرَة مِنَ الْبَرِّ؛ بعد أَنْ لقِينا شِعابًا كثيرةً يكْثُر فيها الماءُ ويَضْحَلُ (يَقلُّ)، فتخلَّلنا في أَثنائها على حَذَر وتَحَفُّظٍ. وكانَ الرُّبَّانُ بَصِيرًا بصَنْعَتِهِ حاذِقًا فيها، فخلَّصنا اللهُ منها حتى أَرْسَيْنَا بتلكَ الْجَزيرَةِ، ونزَلْنَا إليها، وبِتْنَا بها ليلةَ الجُمُعَةِ التاسعِ والعشرينَ لرَبيعٍ الأَوَّلِ. وأَصبَح الهواءُ راكدًا والرِّيحُ غيرَ متنَفِّسَةٍ إلاَّ من الجهةِ التي لا تُوافِقُنَا، فأَقَمْنَا بها يومَ الجُمُعَة. فلمَّا كان يومُ السَّبْتِ تنَفَّستِ الرِّيحُ بعضَ تنَفُّسٍ؛ فأَقْلَعْنَا — بذلك النَّفَسِ — نَسِيرُ سَيْرًا رُوَيْدًا، وسكَنَ البَحْرُ حتى خَيَّلَ لناظِرِهِ أنه صَحْنُ زُجاج أَزْرَقُ، فأَقَمْنا على تلك الحالِ نرجو لطيفَ صُنْعِ اللهِ، عزَّ وجَلَّ. وهذه الجزيرةُ تُعْرَفُ بجزيرةِ «عائِقَةِ السُّفُنِ»، فعَصمَنا اللهُ من فَأْلِ اسْمِها المَذْمومِ، وللهِ الحَمْدُ والشُّكْر على ذلك.

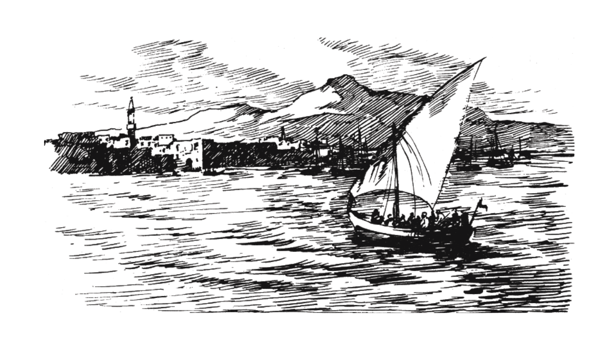
(٩) ميناء أَبحر

استهلَّ هِلالُ ربيعِ الآخِرِ — ليْلَةَ السَّبْتِ — ونَحْنُ بتلك الْجَزيرَةِ. ولم يَظْهَرْ تلك اللَّيْلَةَ للأَبْصَارِ — بسببِ الغُيُوم والمَطَرِ — لكنَّهُ ظَهَر في اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ كبيرًا مُرْتَفِعًا، فَتَحَقَّقْنَا إهلالَ لَيْلَةِ السَّبْتِ.

وفي عَشِيِّ يَوْمِ الأَحَدِ أَرْسَيْنَا بِمُرْسًى يُعْرَفُ بـ«أَبْحر»— عَلَى بَعْضِ يَوْمٍ من «جُدَّةَ» وهُوَ من أَعْجَبِ المَرَاسى وَضْعًا. وذلك أَن خَلِيجًا مِنَ الْبَحْرِ يَدْخُل إلى البَرِّ، والبَرُّ مُطِيفٌ بهِ من كِلْتَا حَافَتَيْهِ، فَتُرسِي المَراكِبُ منه في قَرارةٍ هادِئَةٍ.

فلمَّا كان سَحَرُ يومِ الإثْنَيْنِ بَعْدَهُ، أَقْلَعْنَا منهُ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ — تعالى — بريحٍ فاتِرَة، فلمَّا جَنَّ الليلُ أَرْسَيْنَا على مقرَبةٍ من «جُدَّة»، وهيَ بمَرْأَى الْعيْنِ مِنَّا. وحالَتِ الريحُ صبيحةَ يومِ الثُّلاثاءِ بيننا وبين دُخول مُرْسَاها، ودُخولُ هذه المراسى صعْبُ المَرام، بِسَبَبِ كَثْرة الشِّعاب والتفافِها.

وأَبصرنا من صنعة هؤلاءُ الرؤساءِ والنَّواتِيِّ — في التصرُّف بالمَرْكَبِ في أَثنائِها — أَمرًا عَجيبًا: يُدْخلُونها عَلَى مضايِقَ، ويُصَرِّفُونها خِلاَلَها تَصْرِيفَ الْفَارِسِ لِلْجَوادِ الرَّطْبِ العِنَانِ، السَّلِسِ القِيَادِ، وَيأْتُونَ — في ذلك — بِعَجَبٍ يَضِيقُ الْوصْفُ عنهُ.



(١٠) مُرْسَى «جُدَّة»

وفي ظُهرِ يَوم الثُّلاثاءِ كَان نُزُولنا بـ«جُدَّة» حامِدينَ الله — عزَّ وجَلَّ — وشَاكِرينَ عَلَى السَّلامَةِ والنَّجاةِ مِن هَوْلِ ما عايَنَّاهُ في تلك الثَّمانِيَةِ الأَيامِ طُولَ مُقامِنا عَلَى البَحْرِ.

وكَانَت أَهوالٌ شَتَّى، عصمَنا اللهُ منها بفَضْلِهِ وكَرمِه. فمِنْها ما كَان يطْرَأُ مِن البَحْر واخْتِلافِ رِياحِه وكَثْرة شِعابه المُعْتَرضةِ فيه. ومنْها ما كَان يطْرأُ من ضَعْفِ عُدَّةِ الْمَراكِب واختِلالِها واقتِصامِها (كَسْرِها) — المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ — عِنْدَ رَفعِ الشِّرَاعِ، أو حَطِّه، أَو جَذْبِ

مِرْساةٍ مِن مَراسِيهِ. وربَّمَا جَنَح أَسَفَلُ المَرْكبِ لِشِعْبٍ مِن تلك الشِّعابِ — في أَثناءِ تَخَلُّلِه — فنَسْمَعُ لَهُ هَدًّا وقَصْفًا يُؤْذِنانِ بالْيَأْسِ. فكُنَّا فيها نمُوتُ مِرارًا، ونَحيَا مِرارًا.

والْحَمْدُ للهِ — عَلَى ما مَنَّ به منَ العِصْمَةِ، وتكَفَّلَ به من الوِقَاية والكِفَايةِ — حَمْدًا يَبلُغُ رضَاهُ، ويَسْتَهْدِي المَزيدَ مِن نُعْمَاهُ.

الفصل الخامس

من جُدّة إلى مَكّة

(١) صاحِبُ «جُدَّة»

وكَان نُزُولُنا فيها بِدارِ القَائِدِ: «عَلِيٍّ»، وهُو صاحبُ «جُدَّة» مِن قِبَل أميرِ «مَكَّة». وقد حَلَلْنا صَرْحًا مِن تلك الصُّرُوحِ الْخُصوصِيَّةِ التي يَبْنُونَها في أَعالِي ديارِهم ويَخرُجون مِنها إلى سُطوح يَبِيتُون فيها.

وعندَ احْتلالِنا «جُدَّة» عاهَدْنا اللهَ — سُرُورًا بِمَا أَنعَمَ اللهُ به منَ السَّلامَةِ — أَلاَّ يكونَ انْصِرافُنا عَلَى هذا البَحْرِ المَخُوفِ الهَائِل، إلاَّ إنْ طَرأَتْ عَليْنا ضَرُورَةٌ تَحُولُ بيْننَا وبينَ سِواهُ منَ الطُّرُق، واللهُ وَلِيُّ الخِيرَةِ.

(٢) آثارُ «جُدَّة»

و«جُدَّة» هذهِ، قَرْيةٌ عَلَى ساحِلِ البَحْرِ، أَكْثَرُ بُيوتِها أخصَاصٌ. وفيهَا فنَادِقُ مَبْنِيَّةٌ بالْحِجَارَةِ والطِّينِ، وفي أَعلاها بُيوتٌ مِن الأَخصاصِ كالْغُرَفِ، ولها سُطُوحٌ يُسْتَراحُ فيها — باللَّيل — مِن أَذَى الْحَرِّ. وبهذِه الْقَرْيةِ آثارٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّها كانت مدينَةً قديمةً، وأَثَرُ سُورِها الْمُحْدِقِ بها باقٍ إلى الْيَومِ.

وبها مَوضِعٌ فيهِ قُبَّةٌ مُشَيَّدَةٌ عتيقَةٌ، يُذْكَرُ أَنهُ كَان مَنْزِلَ «حوَّاءَ» أُمِّ الْبَشَرِ — صلَّى اللهُ عليْها وسَلَّم — عِنْدَما تَوَجَّهَتْ إلى «مكَّة» فَبُنِيَ ذلك الْمَبْنَى علَيهِ، تَشْهِيرًا لِبَرَكَتِه، وإِذاعَةً لفَضْلِه، واللهُ أَعْلَمُ.

(٣) أَهْل «جُدَّة»

وأَكْثَرُ سُكانِ هذهِ الْبَلْدةِ — معَ ما يَلِيها مِنَ الصَّحْراءِ والْجِبال — أَشَرَافٌ. وهُم — مِنَ الْفَقْرِ وشَظَفِ الْعيْشِ — بِحالٍ يتَصَدَّعُ لهَا الْجَمَادُ إشفَاقًا وحُزْنًا. ويَسْتَخْدِمونَ أَنْفُسَهُمْ فِي كلِّ مِهْنَةٍ منَ المِهَنِ، مِنْ إكْراءِ جِمَالٍ — إِنْ كَان لهُمْ جِمَالٌ — أَو مَبيعِ لَبَنٍ أَو ماءٍ، إِلى غَيرِ ذلك مِنْ ثَمَرٍ يلْتَقِطُونَهُ، أَو حَطَبٍ يَحتَطِبُونَه. ورُبَّمَا شَارَكَتْهُمْ في هذه المِهنِ الْحَقيرةِ نِساؤُهُم الشرِيفَاتُ بِأَنْفُسِهِنَّ. فسُبحانَهُ الْمُقَدِّرِ لِمَا يَشَاءُ.

(٤) آبار «جُدَّة»

وبِخَارجِ هذه البَلْدَةِ مَصانعُ قديمةٌ تدُلُّ عَلَى قِدَمِ اخْتِطاطِهَا وإِنشائها. ويُذْكَرُ أَنها كَانتْ مِن مُدُنِ الفُرْسِ. وبها جِبابٌ (آبار) مَنْقُورَةٌ في الْحَجَر الصَّلْدِ، يَتَّصِلُ بَعْضُها ببعْض، تفوتُ الإِحْصاءِ كَثْرَةً. وَهي داخِلَ الْبَلَدِ وَخارِجَهُ، حتى إِنهم يَزْعُمون أَن التي خارجَ الْبَلدِ ثَلاثُ مئة وسِتُّونَ جُبًّا، ومثْلَ ذلك داخِلَ البَلَدِ. وعايَنَّا نَحْنُ جُمْلَةً كَثيرَةً لا يأْخُذُها الإِحْصاءُ.

وعجائِبُ المَوْضوعاتِ كَثيرَةٌ، فَسُبحانَ الْمُحِيطِ عِلْمًا بها.

(٥) مَذاهِبُ المُتَطرِّفينَ

وأَكْثَرُ هذه الْجِهاتِ وَسِوَاها فِرَقٌ وَشِيَعٌ، لا دينَ لهُمْ، قد تَفرَّقوا عَلَى مَذاهِبَ شَتَّى. وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي الحاجِّ ما لا يُعْتَقَدُ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ، قدْ صَيَّرُوهُمْ منْ أَعْظمِ غَلاَّتِهم التي يَسْتَغِلُّونها: ينْتَهبونهم انتِهابًا، ويَنْتَحِلونَ الأَسبابَ لاغْتِصابِ ما بِأَيْدِيهم اغْتِصابًا، واسْتِجلابِ ما يَمْلِكُون اسْتجلابًا. فالحاجُّ معهم لا يزالُ في غرامَةٍ ومَشَقَّة، إلى أَن يُيَسِّرَ اللهُ رُجُوعَهُ إِلى وَطنِهِ.

(٦) فضلُ «صلاحِ الدِّينِ»

وَلَوْلا ما تلافي اللهُ به الْمُسْلِمينَ في هذه الْجِهَاتِ — بـ«صَلاحِ الدِّينِ» — لأَرْهَقَهُمُ الظُّلْمُ. فإِنهُ رفَعَ ضَرائبَ الْمُكُوس عن الحاجِّ، وجَعلَ — عِوَضَ ذلك — مَالاً وَطعَامًا، يأْمُرُ بتَوْصيلِهما

إلى «مُكْثِرٍ» أَميرِ «مكَّةَ». فَمتَى أَبْطأَتْ عَنهُمْ تلْك الْوَظيفَةُ الْمُتَرَتِّبَةُ لهُمْ — مِن المَال والطَّعَامِ — عادَ هذا الأميرُ إلى تَرْويعِ الحاجِّ وتَخْوِيفهِمْ وانْتِهابِ ما مَعَهُمْ بِسببِ الْمُكُوسِ.

وَاتَّفَقَ لَنا — من ذلك — أَنْ وَصَلْنَا «جُدَّة»، فأمْسَكْنَا بها خِلالَ ما خُوطِبَ «مُكْثِرٌ» الأَمِيرُ، فورَدَ أَمْرُهُ بِأَنْ يَضْمَنَ الْحاجُّ: بعْضُهُمْ بَعْضًا، ويَدخلوا إلى حَرَمِ اللهِ، فإِنْ ورَدَ المَالُ والطَّعَامُ اللَّذَانِ بِرَسْمِهِ مِنْ قِبَلِ «صَلاحِ الدِّينِ» وَإِلاَّ فهو لا يَتْرُكُ مالَهُ قِبَلَ الحاجِّ. هذا لَفْظُهُ وكلامُهُ، كأَنَّ حَرَمَ اللهِ ميراثٌ بيَدِهِ، مُحَلَّلٌ أَن يتقَاضَى أَجْرَهُ منَ الْحَاجِّ. فَسُبْحَانَ مُغَيِّر السُّنَنِ ومُبَدِّلِها.

وقَدْ جَعلَ لَهُ «صلاحُ الدِّينِ» — بَدَلًا لِتأْمين الْحَاجِّ — أَلْفَيْ دِينَار وأَلْفَيْ إِرْدَبٍّ من الْقَمْحِ، حَاشى إِقْطاعاتٍ أُقْطِعَها بِصعِيدِ مِصْرَ، وبِجِهة الْيَمَنِ بهذا الرَّسْم المَذكُورِ.

ولَوْلاَ مَغِيبُ هذا السُّلْطَانِ الْعَادِلِ: «صَلاَحِ الدِّين» بجهةِ الشَّام — في حُروبٍ لهُ هناكَ معَ الإِفْرِنْجِ — لما صَدَرَ عنْ أَمِيرِ «مَكَّةَ» — هذا — ما صَدَرَ مِنْ ظُلْمِ الْحَاجِّ.

(٧) قُطَّاعُ الطُّرُقِ

فأَحَقُّ بلادِ اللهِ بأَنْ يُطَهِّرَها السَّيْفُ ويَغْسِلَ أَرْجاسَها وأَدْنَاسَها — بالدِّمَاءِ الْمَسْفُوكَةِ في سبيلِ اللهِ — هذهِ الْبِلاَدُ الحِجَازِيَّةُ، لِما هُمْ عليهِ من فَكِّ عُرَا الإِسْلاَمِ، واسْتِحْلاَلِ أَمْوالِ الحَاجِّ ودِمَائِهم. وقد اتَّخَذُوهُ مَعيشَةَ حَرَامٍ، وجَعلُوهُ سببًا إلى اسْتِلاَبِ الأَموال ونَهْبِها، ومُصادَرَةِ الحُجَّاجِ عليها، وضَرْبِ الذِّلَّةِ والْمَسْكَنِة عليهم. فَهُمْ يَعْتَبِرُونَ المُسْلِمِينَ كأَنَّهُمْ أَهلُ ذِمَّة لَدَيْهِمْ، ويَسْتَجْلِبُونَ أَموالَهُمْ — بِكلِّ حِيلَة وسبب — وَيَرْكَبُونَ طَرَائِقَ من الظُّلْم لم يُسْمَعْ بمِثْلِهَا.

ولا رَيْبَ أَنَّ هذا السُّلْطَانَ الْعادِلَ «صلاحَ الدِّينِ» الذي قد ذكَرْنَا سِيرَتَهُ ومَناقِبَهُ — لَوْ كَانَ لهُ أَعْوَانٌ علَى الحَقِّ لاسْتَطاعَ أَن يُنقِذَ المُسْلِمينَ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ، ولَطِيف صُنْعِهِ.

(٨) مُكْثِرُ بْنُ عِيسَى

وَفِي عَشِيِّ يَوْمِ الثُّلاثاءِ الحادِى عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ كانَ انْفِصَالُنا مِنْ «جُدَّة»، بَعْدَ أَنْ ضَمِنَ الْحُجَّاجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَثبتَتْ أَسْماؤُهُمْ فِي زِمَامِ عِنْدَ قَائِدِ «جُدَّةَ»: «عليٍّ بْنِ مُوَفَّقٍ»، حَسْبَما نَفَذَ إِلَيْهِ ذلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ صَاحِبِ «مَكَّة: مُكْثِرِ بْنِ عِيسَى».

وهذَا الرَّجُلُ «مُكْثِرٌ» مِنْ ذُرِّيَةِ «الْحَسَنِ بنِ عليٍّ»، رِضْوانُ اللهِ علَيْهمَا؛ لكِنَّهُ مِمَّنْ يَعْمَلُ غَيْرَ صَالِحٍ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْل سَلَفِهِ الْكَريمِ.

(٩) مَحَلَّةُ الْقَرين

وأَسْرَيْنَا تِلك اللَّيلَةَ إِلى أَن وَصَلْنا «الْقَرينَ» مع طُلوعِ الشَّمْسِ. وهذا الْمَوْضِعُ هو مَنْزِلُ الْحَاجِّ ومَحَطُّ رحَالِهم، ومنهُ يُحْرِمُونَ، وَبِهِ يُرِيحُونَ الْيَوْمَ الذي يُصْبِحُونَهُ.

فإِذا كان في عَشِيَّة، رفَعُوا وأَسْرَوْا لَيْلَتَهُم وصبَّحُوا الْحرَمَ الشَّرِيفَ، زادَهُ اللهُ تَشْرِيفًا وتَعْظِيمًا. والصَّادِرُون مِن الْحَجِّ يَنْزِلون بهِ أَيْضًا، وَيُسْرُون منهُ إِلى «جُدَّةَ»، وبهذا الْمَوضِعِ بئْرٌ عَذْبةٌ مَعِينَةٌ (قَريبَةُ الْمَاءِ)، والْحَاجُّ — بِسَبَبِها — لا يَحْتاجُون إِلى تَزَوُّدِ الْمَاءِ غَيْرَ لَيْلَةِ إِسْرائِهِمْ إِلَيْهِ.

فأَقَمْنَا بَياضَ يَوْم الأَرْبعاءِ، مُريحينَ بالْقَرين.

الفصل السادس

الحَرَمُ المكيّ

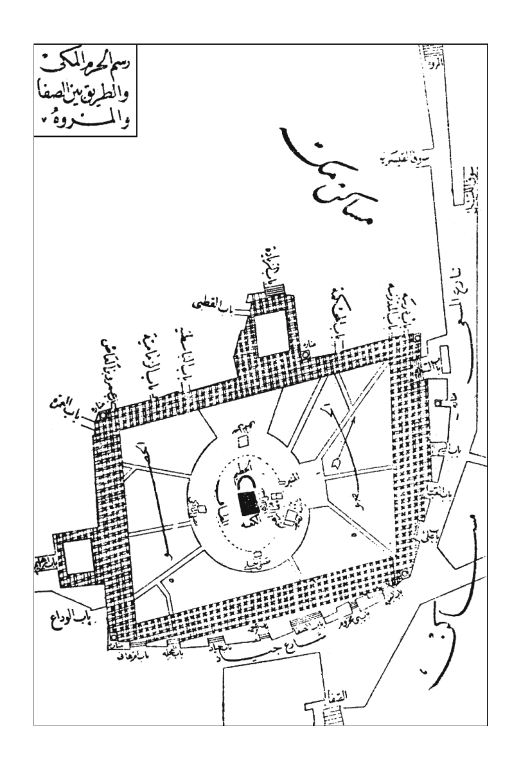
(١) مكةُ المُكرمة

فلَمَّا حانَ وقْتُ الْعَشِيِّ رُحْنَا مِنهُ مُحْرِمينَ بعُمْرَة، فأَسرَيْنَا ليْلَتَنا تلك، فكانَ وُصولُنا مع الْفَجْرِ إِلى قَريبِ الْحَرمِ. فنزَلْنَا مُرْتَقِبِينَ لانْتِشَارِ الضَّوْءِ، ودخَلْنا «مكَّةَ» — حَرَسها اللهُ — عَلَى باب العُمْرَةِ — في السَّاعَةِ الأُولَى مِنْ يَومِ الْخَميس الثالِثَ عشَر لِرَبيعِ الآخِرِ، وهُوَ الرَّابعُ منْ شَهْرِ أَغُشْتَ (أَغُسطُسَ). وكَان إِسرَاؤُنَا تلك اللَّيْلَة والبَدْرُ قَدْ أَلْقَى عَلى البَسِيطَةِ شُعَاعَهُ، واللَّيْلُ قدْ كَشَفَ عنَّا قِنَاعَهُ، والأَصْواتُ تَصُكُّ الآذانَ، بالتَّلبِيَةِ منْ كلِّ مكانٍ، والأَلْسِنةُ تَضِجُّ بالدُّعاءِ، وتَبْتَهِلُ إِلى اللهِ بالرَّغْبَاءِ (الضَّراعَةِ). فَتارَةً تَشتَدُّ فِي التَّلبِيَةِ، وآوِنَةً تَتَضرَّعُ بالأَدْعِيَةِ. فيا لَها لَيْلَةً كَانت في الحُسْنِ بَيضَةَ الدِّيك، فَهيَ عَرُوسُ لَيَالِي الْعُمْر.

(٢) حَرَمُ الكعْبَةِ

وهكَذَا بَلَغْنَا حرَمَ اللهِ العَظِيمَ، ومُبَوَّأَ الْخَلِيلِ «إِبْرَاهِيمَ»، فأَلْفَيْنَا الكَعْبَةَ: الْبَيْت الْحَرَامَ، عَرُوسًا مَجْلُوَّةً مَزْفُوفةً إِلى جَنَّةِ الرِّضوانِ، محفُوفَةً بوُفُودِ الرَّحْمنِ. فَطُفْنا طَوافَ الْقُدومِ، ثُمَّ صلَّيْنا بالْمقامِ الْكَرِيم، وتعَلَّقنَا بأَسْتار الْكَعْبةِ — عِنْدَ المُلْتزَمِ — وهُوَ بيْنَ الْحَجَرِ الأَسْودِ والْباب. ودخَلْنا قُبَّةَ «زَمْزَمَ» وشَرِبْنا مِنْ مائِها. ثُمَّ سَعَيْنا بيْنَ الصَّفا والْمَرْوَةِ، ثُمَّ حلَقْنا وأَحْلَلْنا. فالْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَرَّمَنا بالوِفادَةِ علَيْهِ، وهُو حَسْبُنا ونِعْمَ الْوَكِيلُ.

وكان نُزُولُنا فِيها بدارٍ قَريبَةٍ من الْحَرَمِ، ومِن بابِ السُّدَّةِ: أَحَدِ أَبْوابِهِ، فِي حُجْرةٍ كَثِيرةِ المَرَافقِ المَسْكَنِيَّةِ، مُشْرِفةٍ عَلَى الْحَرم وعَلَى الكَعبَةِ المُقَدَّسَةِ.



(٣) أَسْعَدُ الأَهِلَّة

اسْتَهلَّ هلالُ «جُمَادَى الأُولَى» وقد كَمَلَ لنا بمكَّةَ ثمانيةَ عشَرَ يومًا، فهِلالُ هذا الشهْرِ أَسْعَدُ هِلاَل اجتلتْهُ أَبْصَارُنَا، فيما سَلَفَ من أَعْمَارِنَا. طلع علينَا وقد تَبَوَّأْنا مَقعَدَ الْجِدارِ الكَريمَ، وحرمَ اللهِ العظيمَ، والقُبَّةَ التي فيها مَقامُ إبراهيمَ، ومَبْعثَ الرسول، ومَهْبِطَ الرُّوحِ الأَمِينِ: «جبريلَ» بالوحْيِ والتنزيل.

فأَلهَمَنا اللهُ شكرَ هذه المِنَّةِ، وعرَّفَنا قَدْرَ ما خصَّنَا به من نِعْمَة، وخَتَمَ لنا بالْقَبُولِ، وأَجْرَانَا عَلَى كريمِ عَوائِدِه، من الصُّنْعِ الجميل، ولَطيفِ التَّيْسِيرِ والتَّسْهِيلِ.

(٤) الأَرْكانُ الأَرْبعَة

البيتُ المُكَرَّمُ له أَربعةُ أَركانٍ، وهو قريبٌ من التربيعِ. وأَخبرني زعيمُ الشَّيبِيِّين الذين إِليهم سِدانَةُ الْبَيْتِ (خِدْمَتُهُ) أَنَّ ارْتفاعَه في الهواءِ، مِنَ الصَّفْح (الجانب) الذي يُقابلُ بابَ الصَّفَا — وَهو من الحجَرِ الأَسْودِ، إِلى الرُّكْن الْيَمانيِّ — تِسْعٌ وعِشرُونَ ذِراعًا، وَمِنْ سائِرِ الجوانبِ ثَمانٍ وعِشرُونَ. وأَوَّلُ أَرْكانِه الركُنُ الذي فيهِ الْحَجَرُ الأَسْودُ، ومنْه ابْتداءُ الطَّوافِ، وَيتَقَهْقَرُ الطَّائِفُ عنْهُ لِيَمَسَّ الحَجَرَ جَمِيعَه ببَدنِهِ، والبَيْتُ المُكَرَّمُ عَنْ يَسارِه. وأَوَّلُ ما يَلْقى بَعْدَهُ: الرُّكْنُ العراقِيُّ وهو ناظِرٌ إِلى جهةِ الشَّمالِ، ثم الرُّكنُ الشامِيُّ، وهوَ نَاظرٌ إِلى جهةِ الغَرْبِ، ثُمَّ الرُّكْنُ اليمانيُّ وهُوَ ناظِرٌ إِلى جهةِ الْجَنوبِ، ثم يعودُ إِلى الرُّكْنِ الأَسْوَدِ، وهُو ناظِرٌ إِلى جهةِ الشَّرْقِ، وعنْدَ ذلك يُتِمُّ شَوْطًا واحدًا. وبابُ الْبَيْتِ الكَريمِ في الصَّفْحِ الَّذِي بين الرُّكْن العِراقِيِّ ورُكْنِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ. وهو قريبٌ من الحجر بعَشَرةِ أَشْبارٍ.

(٥) المُلْتَزَم

وذلك المَوْضِعُ — الذي بيْنَهُما مِن صَفْح البيْتِ — يُسَمَّى: «المُلْتَزَمَ»، وهو موضِعُ اسْتجابةِ الدُّعاءِ، والبابُ الكَريمُ مُرْتَفِعٌ عن الأَرْضِ بأَحَدَ عَشَرَ شِبْرًا ونِصِفِ شبرٍ، وهو فضَّةٌ مُذَهَّبَةٌ، بَديعُ الصنْعَةِ، رائقُ الصِّفة، يَسْتَوقِفُ الأَبصارَ حُسْنًا وخُشوعًا، لِلمَهابَةِ الَّتِي كَساها اللهُ بَيْتَهُ. وللباب نَقَّارَتانِ مِنَ الفِضَّةِ كَبِيرتانِ، يَتَعلَّقُ علَيْهِما قُفْلُ الْبابِ. وهُوَ ناظِرٌ لِلشَّرْقِ، وَسَعتُهُ ثَمانِيةُ أَشْبارٍ، وطُولُه ثلاثَةَ عَشَرَ شِبْرًا، وغِلَظُ الحائِطِ الَّذِي يَنْطَوِي عليهِ الْبابُ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ.

(٦) داخل الحرم

وداخلُ البيتِ الكَريمِ مَفْروشٌ بالرُّخامِ المُجَزَّعِ (المُلَوَّنِ)، وحِيطانُهُ كلُّها رُخامٌ مُجَزَّعٌ، قد قامَ عَلَى ثلاثةِ أَعمدَةٍ من السَّاجِ مُفْرِطَةِ الطولِ (والسَّاجُ خَشَب أَسْوَدٌ مَتِينٌ لا تَكادُ الأَرْضُ تُبْلِيهِ، وشَجَرُه الْعَظِيم يَنْبُتُ في الْهِنْدِ)، وبين كلِّ عمودٍ وعمودٍ أَربعُ خطًا. وهي عَلَى طول البيتِ، مُتَوسِّطَةٌ فيهِ. فأَحَدُ الأَعْمَدَةِ — وهو أَوَّلُها — يُقابِلُ نِصْفَ الصَّفْحِ الذي يَحُفُّ به الرُّكْنان الْيَمانِيّان، وبينهُ وبينَ الصَّفْحِ مقدارُ ثلاثِ خُطًا.

والْعَمُودُ الثَّالِثُ — وهو آخِرُها — يُقابِلُ الصَّفْحَ الذي يَحُفُّ بِهِ الرُّكْنانِ الْعِراقيُّ والشَّامِيُّ.

ودائِرُ الْبَيْتِ كلُّه — من نِصْفِهِ الأَعْلَى — مَطْلِيٌّ بالفِضَّةِ المُذَهَّبَةِ الثَّخِينَة، يُخَيَّلُ للنَّاظِرِ إليها أَنها صفيحةُ ذهب لِغلَظِها.

وهي تَحُفُّ بالْجَوانِبِ الأَرْبَعةِ، وتُمْسِكُ نِصْفَ الْجِدار الأَعْلَى.

وَسَقْفُ الْبَيْتِ مُجَلَّلٌ بِكِساءٍ من الحرير المُلَوَّنِ.

(٧) أَسْتار الكعبة

وظاهِرُ الكَعْبَةِ كلِّها — من الأَربعةِ الْجَوانِبِ — مَكْسوٌّ بِسُتُورٍ من الحريرِ الأَخضرِ، وسَداها (خُيوطُها الْمُمْتَدَّةُ طولًا) قُطْنٌ. وفي أَعلاها رسم بالحرير الأَحمرِ مكتوبٌ فيه الآيَةُ الْكَريمَةُ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

وقد كُتِبَ اسم الإمامِ «الناصرِ لدينِ اللهِ» في سَعَةٍ مِقْدارُها ثَلاثَةُ أَذْرُعٍ، يطِيفُ بها كلِّها.

قد شُكِّل في هذهِ السُّتُورِ من الصَّنْعَةِ الغرِيبَةِ التي تَرَى فيها أَشْكالَ مَحارِيبَ رائِقَةً، وكتابَةً مقروءَةً مَرْسُومَةً بِذِكْر اللهِ — تعالى — وبالدُّعاءِ لِلنَّاصِرِ العَبَّاسِيِّ، الآمِرِ بإقامَتِها.

وكلُّ ذلك لا يُخالِفُ لَوْنَها.

(٨) بَدائِعُ النَّقْشِ

وعَدَدُ السُّتُورِ — منَ الجوانِبِ الأَرْبَعِةِ — أَرْبَعَةٌ وَثَلاثُونَ سِتْرًا. وفي الصَّفْحَيْنِ الكَبِيرَيْنِ مِنْها ثَمانِيَةَ عشَرَ، وفي الصَّفَحَيْنِ الصَّغيرَيْنِ ستَّةَ عشَرَ. وله خمسةُ مَضاوٍ، ليَدْخُل منها الضَّوْءُ. وعليها زُجاجٌ عِراقِيٌّ بديعُ النَّقْشِ، أَحَدُها في وَسَطِ السقفِ. ومَعَ كلِّ رُكْنٍ مَضْوًى. وبين الأَعْمِدَةِ أَقْواسٌ من الفِضَّةِ عددُها ثَلاثَ عَشْرَة، وَإِحْداها مِنْ ذَهَبٍ.

(٩) باب الرحمة

وَأَوَّلُ ما يَلْقَى الدَّاخِلُ عَلَى الباب — عن يَساره — الرُّكْنُ الذي خارجَهُ الحَجَرُ الأَسْوَدُ. وفيه صُنْدُوقانِ، فيهما مصاحِفُ. وقد عَلاهُما في الرُّكْنِ بُوَيْبانِ (بابانِ صغيرانِ) من فِضَّةٍ، كأَنَّهُما طاقانِ مُلْصَقانِ بزاوِيةِ الركْن. وبينهما وبين الأَرْضِ أَزْيَدُ من قامَةٍ. وعن يمينِهِ الركنُ العراقيُّ. وفيهِ بابٌ يُسَمَّى بـ«بابِ الرَّحْمَةِ»، يُصْعَدُ منهْ إِلى سَطْح البيتِ المُكَرَّمِ.

(١٠) مَقامُ «إبراهيم»

وقد قام قَبْوٌ مُتَّصِلٌ بِأَعْلَى سَطْحِ البَيْتِ، داخِلَه الأَدراجُ، وفي أَوَّلِهِ البيتُ المُحتَوِي عَلَى المَقامِ الكريمِ. وفي سَعةِ صفْحَيْهِ قامتانِ. وهو مُحتوٍ عَلَى الرُّكنِ العراقيِّ بِنِصْفَيْنِ مِن كلِّ صَفْحٍ. وأَكْثَرُ هذا القبوِ مَكْسُوٌّ بثَوْب منَ الحرير المُلَوَّنِ، كأَنه قد لُفَّ فيهِ ثمَّ وُضِعَ. وهذا المَقامُ الكريمُ الذي داخِلَ هذا القَبْو هو مَقامُ «إبراهيمَ» (ﷺ). وهو حَجَرٌ مُغَشًّى بالفِضَّةِ، وارتفاعُه مقدارُ ثلاثةِ أَشْبارٍ، وَسَعتُه مِقْدارُ شِبْرَيْن، وأَعْلاهُ أَوْسعُ من أَسْفلِه. فكأَنهُ — وله التنزيهُ والْمَثلُ الأَعْلَى — كانونُ فَخَّارٍ كبيرٌ، أَوْسَطُه يَضِيقُ عَن أَسْفَلِهِ وعَنْ أَعْلاهُ. ولِمُعاينَةِ البيْتِ الكريمِ هَوْلٌ يُذْهِلُ النُّفوسَ، ويُطِيشُ الأَفْئِدَةَ والعُقولَ، فلا تُبصِرُ إلا لَحظاتٍ خاشِعةً، وَمَدامعَ باكِيةً، وأَلْسِنَةً — إلى اللهِ — ضارِعَةً داعِيَةً.

وَمَوْضِعُ المَقامِ الكريمِ هُوَ الذي يُصَلَّى خلْفَه، يُقابِلُ ما بيْنَ البابِ الكَريمِ والرُّكْنِ العِراقيِّ. وهُوَ إِلى الباب أَمْيَلُ بِكَثيرٍ. وعلَيْه قُبَّةُ خَشَبٍ — في مقدارِ القامةِ أَو أَزْيدُ — مركَّنَةٌ، بديعةُ النَّقْشِ. سَعتُها — من رُكْنِها الواحدِ إِلى الثانِي — أَرْبَعَةُ أَشْبارٍ. وقد نُصِبَتْ عَلَى المَوْضِع الذي كان فيهِ المَقامُ. وحولَه تَكْفيفٌ (إِطارٌ) من حجارةٍ عَلَى حَرْفٍ كالحوْضِ المُسْتَطِيل، في ارْتفاعِهِ نحوُ شِبْر، وطولِه خَمْسُ خُطًا، وَعَرْضِه ثلاثُ خُطًا.

(١١) مكان الحجر الأَسوَد

ومنَ الرُّكْنِ الذي فيهِ الحجرُ الأَسْوَدُ إلى الرُّكْن العِراقيِّ أَرْبعَةٌ وخَمْسُونَ شِبرًا. ومنَ الحجر الأَسوَدِ إلى الأَرْضِ سِتَّةُ أَشْبارِ. فالطويل يَتَطاطَى لَهُ، والقصيرُ يتَطاوَلُ إليهِ.

(١٢) مَوْضِعُ الطوافِ

أَمَّا مِنَ الْخارجِ، فمِنَ الرُّكْنِ الأَسْوَد إلى الرُّكْن العِراقيِّ أَرْبعونَ خُطْوَةً، وهيَ مئة وَعشْرُونَ شِبرًا. ومن ثَمَّ يكونُ الطَّوافُ.

وَموْضِعُ الطَّوافِ مَفْرُوشٌ بحجارَةٍ مَبْسُوطَةٍ، كأَنها الرُّخامُ حُسْنًا. منها سودٌ وسُمْرٌ وبيضٌ، قد أُلْصِقَ بعضُها إلى بعضٍ. وَسائرُ الحرَمِ — معَ البلاطاتِ كلِّها — مَفْرُوشٌ برَمْل أَبيَض.

وَطوافُ النِّساءِ في آخرِ الْحِجارَةِ المَفْرُوشَةِ.

(١٣) نفائس الصنعةِ

ودَوْرُ الْجدار رُخامٌ كلُّه مُجَزَّعٌ بديعُ الإلصاقِ، وفيه قُضبانٌ صُفرٌ مُذَهَّبةٌ، وُضِعَ منها في صَفحِهِ أَشكالٌ شِطْرَنجِيَّةٌ مُتداخلةٌ بعضُها عَلَى بعض، وهَيْئاتُ محاريبَ، فإِذا ضَربَتِ الشمسُ فيها لاحَ لها بصيصٌ ولأْلأ يُخيَّل للناظر إليها أَنها ذَهبٌ يَرتمِي بالأَبصارِ شُعاعُه.

وداخل الْحِجْرِ بلاطٌ واسعٌ ينعطِفُ عليه الْحِجرُ كأَنه ثُلُثا دائرةٍ. وهو مَفروشٌ بالرُّخامِ المُجزَّعِ الْمُقَطَّعِ في دَوْرِ الكَفِّ إلى دَورِ الدِّينارِ إلى ما فَوقَ ذلك، ثم أُلصِقَ بانتِظامٍ بديعٍ، وتأْليفٍ مُعجِزِ الصَّنعةِ، غَريبِ الإِتقانِ، رائقِ الترصِيعِ والتَّجْزيعِ، رائعِ التركيبِ والرصْفِ، يُبْصِرُ الناظِرُ فيه من التَّعاريجِ والتَّقاطيع والخواتِمِ والأَشكالِ الشِّطْرَنجِيَّةِ وسِواها — على اختلافِ أَنواعِها وصِفاتِها — ما يُقيِّدُ بصرَه حُسنًا. فكأَنه يُجيلُه في أَزهارٍ مفروشةٍ مُختلِفاتِ الأَلوان. إلى مَحاريبَ قد انعطف عليها الرُّخامُ انعطافَ القِسيّ (الأَقْواسِ)، وداخلَها هذه الأَشكالُ الموْصوفةُ والصنائعُ المذكُورةُ.

(١٤) أثر الخليفة «الناصر»

وبإزائِها رُخامتانِ مُتَّصِلتانِ بِجدارِ الْحِجرِ، أَحدثَ الصانعُ فيهما من: التَّوْريقِ الرَّفيقِ، والتَّشجيرِ والتَّقضيبِ، ما لا يُحدثُه الحاذقُ الصَّنَعُ اليدَين في الْوَرق قَطْعًا بالْجَلَمَيْنِ (والْجَلَمانِ: آلةٌ كالِمقَصِّ). فمرآهما عجيبٌ. أَمَرَ بصَنْعَتِهما عَلَى الصِّفةِ إمامُ المشرِقِ «أَبو العبَّاسِ أَحمدُ الناصرُ»، وفي وسَطِ «الْحِجر» (وهُو: ما حوْل الكعْبَة) رُخامةٌ قد نِقشَت أَبدع نَقشٍ وحَفَّت بها طُرَّةٌ مزخْرَفَةٌ عجيبةٌ مكتوبٌ فيها:

> مِمّا أَمرَ بعملِه عبدُ اللهِ وخليفَتُه أَبو العباسِ أحمدُ الناصرُ لدين اللهِ أَميرُ الْمُؤْمنينَ، وذلك في سنةِ ستٍّ وسبعينَ وخمسِ مئة.

(١٥) قبرُ «إسماعيل»

وفي صَحنِ الْحِجرِ بِمَقْرَبة من جِدارِ البيتِ الكريمِ قبرُ «إسماعيلَ»، وعلامتُه رُخامةٌ خضراءُ مُستطيلةٌ قليلًا شكلَ مِحراب، تتَّصِلُ بها رُخامةٌ خضراءُ مُستديرةٌ. وكلتاهما غريبةُ الْمَنْظَرِ، فيهما نُكَتٌ تَنفتحُ عن لَونِها إلى الصُّفرَةِ قليلًا كأَنها تجزيعٌ، وهي أَشبهُ الأَشياءِ بالنُّكَتِ التي تَبقَى في الْبُوتَقَةِ من حَلِّ الذهبِ فيها.

وإلى جانبِه — مِمّا يلي الركن العراقي — قبرُ أُمِّه: «هاجَرَ» رضي الله عنها، وعلامتُه رُخامة خضراءُ، سَعتها مقدار شبر ونصفِ شبر. وقد احْتَوَى القَبْرانِ جسدَين مُكَرَّمَيْنِ نوَّرَهُما اللهُ. وبَيْنَ القَبريْن سَبْعَةُ أَشْبار.

(١٦) بئر «زمزم»

وقُبَّةُ بِئْرِ «زَمْزَمَ» تُقابلُ الركْنَ الأَسْوَدَ. وَتَنُّورُ البِئْرِ الْمُبارَكةِ (فَمُها) في وسط القبة. وعُمقُها إِحْدى عشْرَةَ قامةً حسْبَما ذَرَعْناهُ. وعُمْقُ الماءِ سَبْعُ قاماتٍ على ما يُذكَر. وبابُ القُبَّةِ ناظرٌ إلى الشَّرْقِ. وتَلِي قبَّةَ بئرِ «زَمْزَمَ» من ورائِها قُبَّةُ الشَّرابِ، وهي المَنسوبةُ للعباس رضي الله عنه. والقبةُ العباسيةُ كانت سِقايةَ الحاجِّ، وهي حتى الآنَ يُبرَّد فيها ماءُ «زَمْزَمَ» ويُخرَجُ — مع الليل — لِسَقْيِ الحاجِّ في قِلال يُسمونَها الدَّوارِقَ، كلُّ دَوْرق منها ذُو مِقْبَضٍ واحدِ.

وتنُّورُ بئرِ «زَمْزَمَ» من رُخامٍ قد أُلصِقَ بعضُهُ ببعْض إلصاقًا لا تُحِيلُه الأَيَّامُ، وأُفْرِغَ في أَثْنائِهِ الرَّصاصُ. وكذلك داخِلَ التَّنُّورِ. وحَفَّت به من أَعمِدَةِ الرَّصاصِ المُلصَقةِ بهِ — إبلاغًا في قُوَّةِ لَزِّه ورَصِّهِ — اثْنانِ وثلاثُونَ عمودًا قَدْ خَرَجتْ لها رُءُوسٌ قابضَةً عَلَى حافَةِ البِئْرِ، دائِرَةٌ بالتَّنُّورِ كلِّه.

وقَدِ استدارَتْ بداخل القُبَّةِ سِقايَةٌ سَعَتُها شِبْرٌ، وعُمْقُها نَحوُ شِبْرَيْنِ، وارْتفاعها عَن الأَرْضِ خَمْسةُ أَشْبار، تُمْلأُ ماءً للوُضوءِ. وحولَها مِصْطَبَةٌ دائرةٌ، يرتفعُ الناس إِلَيْها، ويتوضَّئُون عليها.

(١٧) استلام الحَجَر الأَسْود

والحجرُ الأَسْودُ المُباركُ مُلصَق في الرُّكْنِ النَّاظِرِ إلى جهَةِ المَشْرِقِ، ولا يُدْرَى قَدرُ ما دخَل في الركن. وقيل: إنه داخلٌ في الجِدارِ بمقدار ذِراعَين. وَسَعَتُه ثُلُثا شِبْر، وطولُه شبرٌ وعُقَدٌ. وفيهِ أَربعُ قِطَعٍ مُلصَقةٌ. وقد شُدَّت جوانِبُهُ بِصَفيحةِ فِضَّةٍ، يَلُوحُ بَصِيصُ بَياضِها على بَصِيصِ سَوادِ الحَجَر وَرَوْنَقِهِ الصَّقِيل. فيُبْصِرُ الرَّائي — من ذلك — منْظَرًا عَجيبًا، هو قَيْدُ الأَبصارِ.

وَللحَجرِ عندَ تَقْبِيلِهِ لُدُونَةٌ يتنعَّمُ بها الفَمُ، حتى يَودَّ الَّلاثِمُ أَلاَّ يُقلِعَ فَمُهُ عنه، وذلك من خَواصِّ العِنايَةِ الإِلهِيَّةِ.

نَفعنا اللهُ باستلامِه ومُصافَحَتِه، وأَوْفَدَ عليهِ كلَّ شَيِّق إِليْهِ.

(١٨) سَعَةُ الحَرَم

والمَسجدُ الحرامُ يُطيفُ بِهِ ثَلاثُ بلاطَاتٍ على ثلاث سَوار من الرُّخامِ مُنْتَظِمَةٍ كأَنَّها بلاطٌ واحِدٌ. ذَرْعُها في الطُّولِ أَرْبَعُ مئة ذِراعٍ، وفي العَرْضِ ثَلاث مئة ذراعٍ. وما بين البلاطاتِ فَضاءٌ كبيرٌ. وكانَ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ صغيرًا. وقُبَّةُ «زَمْزَمَ» خارِجةٌ عنهُ.

(١٩) كعبة البيت

وفِي مُقابلَةِ الرُّكْنِ الشَّامِيِّ رَأْسُ سارَيَةٍ ثابِتَةٍ فِي الأَرْضِ، منها كان حَدُّ الحرمِ أَوَّلًا. وبينَ رأْسِ الساريةِ وبين الرُّكْنِ الشاميِّ اثنتانِ وعشْرُونَ خُطوةً، والكَعبَةُ في وَسَط الحرم عَلَى استواءٍ من الجوانبِ الأَرْبعةِ، ما بينَ الشَّرْق والجنوب والشَّمال والغَرْبِ.

(٢٠) أعمِدة الحرم

وعددُ سوارِيهِ الرُّخامِيَّةِ التي عَددْتُها بنَفْسِي أَرْبَعُ مئة سارِيَةٍ وَإِحْدى وَسَبعونَ ساريةً، حاشَى المَصنوعةَ من الْجِصِّ التي منها في دارِ النَّدْوَةِ — وَكانَتْ قَدْ زِيدتْ في الحَرَم — وهي داخلةٌ في البلاطِ الآخذِ من الغربِ إِلى الشمال.

(٢١) معاهد التعليم

ويقابِلُها المَقامُ مع الرُّكْنِ العراقيِّ. وفَضاؤُها مُتَّسِعٌ يُدْخَل من البلاطِ إِليهِ. ويتصلُ بجدارِ هذا البلاطِ كلِّهِ مَصاطِبُ تَحْتَ قِسِيٍّ حَنايا (وَهيَ: أَبْنِيَةٌ مُنْحَنِيَةٌ كالأَقواسِ).

وفيها يجلِسُ النَّسَّاخونَ والْمُقْرِئونَ وبعضُ أَهلِ صَنعةِ الْخِياطَةِ.

والحرَمُ مُحْدَقٌ بِحَلَقاتِ الْمُدَرِّسِينَ وأَهلِ العِلْمِ.

(٢٢) أَثر الخليفة «أَبي جعفر»

ولِلْمَهْدِيِّ «محمدِ بن أَبي جعفرِ المَنصورِ» العبَّاسِيِّ في توسعَةِ المَسجدِ الحرامِ، والتأَنُّقِ في بنائِه، آثارٌ كريمةٌ.

ووجدْتُ في الجهةِ — التي من الغربِ إِلى الشَّمالِ — مكْتوبًا في أَعْلَى جدار البلاطِ: «أَمَرَ عبدُ اللهِ محمدٌ المَهدِيُّ أَميرُ المؤمنينَ — أَصْلَحَهُ اللهُ — بتَوْسِعَةِ المَسجدِ الحرامِ، لحاجِّ بيتِ اللهِ وعُمَّارِه، في سنةِ سَبعٍ وسِتِّينَ ومئة».

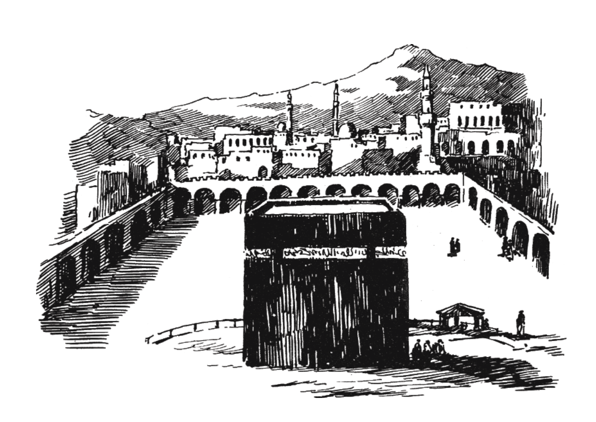
(٢٣) طائفة من النقوش

وفي بابِ الكَعبةِ المُقَدَّسَةِ نَقْشٌ بالذَّهبِ، رائقُ الخطِّ، طويلُ الْحُرُوفِ، غلِيظُها. ويَكْتَنِفُ البابيْنِ الكَرِيمَيْنِ عِضادَةٌ غَليظَةٌ من الفِضَّةِ المُذَهَّبَةِ البَدِيعةِ النَّقْشِ، تَصْعَد إلى العَتَبةِ المُبارَكةِ، وَتُشْرِفُ عليها، وتَسْتديرُ بجانِبَي البابيْنِ.

ويَعترِضُ أَيضًا بين البابيْنِ — عند إغلاقهما — شِبْهُ العِضادَةِ الكَبيرةِ من الفِضةِ المُذَهَّبَةِ، هي بطُولِ البابيْنِ، متصلةٌ بالواحدِ منهما الذي عن يسارِ الداخلِ إلى البيْتِ.

(٢٤) كُسوة الكعبة

وكُسْوَةُ الكعبةِ المُقَدَّسَةِ من الحريرِ الأَخضرِ — حَسْبَما ذكَرْناهُ — وهي أَربعٌ وثلاثون شُقَّةً، في الصفح بين الرُّكن اليماني والشاميِّ منها تسعٌ. وفي الصَّفح الذي يقابله بين الركن الأَسود والعراقي تسعٌ أَيضًا. وفي الصفح بين العراقِيِّ والشامِيِّ ثمانٍ، وفي الصفح بين اليماني والأَسود ثمانٍ أَيضًا، قد وُصِلَت كلُّها، فجاءَتْ كأَنَّها سِتْرٌ واحدٌ يَعُمُّ الْجَوانبَ الأَرْبعةَ.



وقد أَحاطَ بها — من أَسْفَلِها — تكفيف (إطارٌ) مَبنِيٌّ بالجِصِّ. في ارتفاعه أَزيدُ من شِبْرٍ. وفي سَعتهِ شِبرانِ، أَو أَزيدُ قليلًا. في داخِلهِ خَشبٌ غيرُ ظاهرٍ. وقد سُمِّرتْ فيهِ أَوتادُ حديد، في رُءُوسِها حَلَقاتُ حديد ظاهرةٌ، قَدْ أُدْخِلَ فيها مَرَسٌ (حَبْلٌ) من القِنَّبِ، غليظٌ

مَفْتُولٌ. واسْتَدارَ بالْجَوانِبِ الأَرْبَعةِ، بعد أَنْ وُضع في أَذْيالِ السُّتورِ مَعاقِدُ، وأُدْخِلَ فيها ذلك الحبْلُ، وخُيِّطَ عليه بِخُيُوطٍ من القُطْنِ المَفْتُولةِ الوَثيقَةِ. ومُجْتَمَعُ السُّتُور في الأَرْكانِ الأَرْبعةِ مخِيطٌ إلى أَزْيَدَ من قامة، ثُمَّ منها إلى أَعْلاها تتَّصِلُ بِعُرًا من حديدٍ، تُدْخَل بَعضُها في بعْضٍ. واستَدار أَيْضًا بأَعْلاها — عَلَى جَوانِبِ السطح — تكفيفٌ ثانٍ، وُضِعَتْ فيهِ أَعالِي السُّتُور في حَلَقاتِ حديدٍ على تلك الصفةِ المذكورة. فجاءَتِ الكُسْوَةُ المُبارَكَةُ مَخِيطَةَ الأَعْلَى والأَسْفَلِ، وثيقةَ الأَزْرارِ، لا تُخْلَعُ إلاَّ مِنْ عامٍ إِلَى عامٍ عندَ تَجديدها.

فسُبحانَ مَنْ خَلَّد لَها الشَّرَفَ إلى يَوْم الْقِيامةِ.

(٢٥) سَدَنة البَيْتِ

وبابُ الكَعبةِ الكَريمُ يُفتَحُ كلَّ يوم اثنَينِ ويومِ جُمُعة، إلا في رجبٍ، فإنه يُفتَحُ في كلِّ يومٍ، وفَتحُهُ أَوَّلَ بُزُوغِ الشمْسِ.

يُقْبِلُ سَدَنَةُ البيْت (خُدَّامِهِ) الشَّيبِيُّونَ، فيُبادِرَ منهم من يَنقُلُ كُرسِيًّا كبيرًا شِبْهَ المِنْبَرِ الواسعِ، له تسعةُ أَدراج مُستطيلةٌ قد وُضعَت له قوائمُ من الْخَشَبِ مُتطأْمِنةٌ (مُنْخَفِضَةٌ) مع الأَرضِ، لها أَربَعُ بَكَراتٍ كِبارٌ، مُصفَّحةٌ بالحديدِ لِمُباشَرَتِها الأَرضَ. يَجرِي الكُرسِيُّ عليها حتى يَصلَ إلى البيتِ الكَريمِ، فيقَعَ دَرَجُه الأَعلى مُتَّصِلًا بالعتَبةِ المُبارَكةِ من الباب. فيَصعَدُ زَعيمُ الشَّيْبِيِّينَ إليه، وهو كَهلٌ جميلُ الهيْئةِ والشارَةِ، وبيَدِه مِفتاحُ القُفْلِ المُبارَكِ. ومعه من السَّدَنَة من يُمْسِكُ في يدِه سِترًا أَسوَدَ يَمُدُّ يدَيهِ به أَمامَ الباب، خِلالَ ما يَفتَحُهُ الزَّعيمُ الشَّيْبِيُّ. فإذا فَتَحَ القُفلَ دَخَل البيْتَ وَحدَه وسَدَّ البابَ خَلفَه وأَقامَ قَدْرَ ما يَركَعُ رَكْعتَينِ. ثم يَدخُلُ الشَّيبِيُّونَ، ويَسُدُّونَ البابَ أَيضًا، ثم يُفتَحُ البابُ ويُبادِرُ النَّاسُ بالدُّخولِ.

وفي أَثناءِ مُحاوَلةِ فَتحِ البابِ الكَريم يَقُف النَّاسُ مُستَقبِلين إياهُ بأَبصارٍ خاشِعةٍ، وأَيدٍ مَبسوطَةٍ إلى اللهِ ضَارعة. فإذا انفَتحَ البابُ كَبَّرَ النَّاسُ وعَلا ضَجِيجُهُم، ونادَوْا بأَلسِنةٍ مُستَهِلَّة صائِحة: «اللهُمَّ افتَحْ لنَا أَبوابَ رَحمتِكَ ومَغفرتِكَ، يا أَرْحمَ الرَّاحِمينَ».

ثم دخلوا بِسَلامٍ آمِنينَ.

(٢٦) مُصَلَّى النَّبيِّ

وفي الصَّفْح (الجانِب) المُقابِلِ للدَّاخِلِ في الْحَرَمِ — الذي هو من الرُّكْن اليمانيِّ إلى الركْنِ الشامِيِّ — خَمْسُ رُخاماتٍ مُنتَصِباتٍ طُولًا كأَنها أبوابٌ، تَنتَهي إلى مِقدارِ خمسةِ أَشبارٍ من الأَرْضِ، وكلُّ واحدةٍ منها نحوُ القامةِ. الثلاثُ منها حُمْرٌ والاِثنتانِ خَضراوانِ. في كلِّ واحِدةٍ منها تجزيعُ بياضٍ لَمْ يُرَ أَحسنُ مَنظَرًا منهُ، كأَنهُ فيها تَنقيطٌ. فَتتَّصِلُ الحمراءُ بالركْنِ اليمانِيِّ، ثم تَلِيها الْخَضراءُ بخمسةِ أَشبارٍ، والمَوْضعُ الذي يُقابِلُها مُتَقَهْقِرًا عنها بِثلاثةِ أَذرُعٍ هو مصَلَّى النبيِّ ﷺ، فيَزْدَحِمُ النَّاسُ عَلَى الصَّلاةِ فيهِ تَبَرُّكًا به.

(٢٧) بدائع الرُّخام

وَيَتَّصِلُ بين الرُّخاماتِ المُلَوَّنَةِ رُخامٌ أَبْيَضُ صافِي اللَّوْنِ ناصِعُ البَياضِ، قد أَحدثَ الله عزَّ وجلَّ في أَصْلِ خِلْقَتِهِ أَشْكالًا غَريبةً مائِلةً إلى الزُّرْقَةِ مُشَجَّرَةً مُغَصَّنَةً. وفي التي تَلِيها مِثلُ ذلك بِعَيْنِهِ من الأَشْكالِ كأَنَّها مَقْسُومَةٌ. فلو انْطَبَقَتا لعادَ كلُّ شَكلٍ يُصافِحُ شَكلَهُ. فكلُّ واحدةٍ شِقَّةُ الأُخْرَى — لا مَحالةَ — عِنْدَ ما نُشِرَتِ انْشَقَّتْ عَلَى تلك الأَشكالِ، فَوُضِعَتْ كلُّ واحِدَة بإِزاءِ أُخْتِها.

والفاصِلُ منها — بين كلِّ خَضْراءِ وحَمْراءَ — رُخامَتانِ، سَعَتُهُما خَمْسَةُ أَشْبارٍ. والأَشْكالُ فيها تَخْتَلِفُ هَيْئاتُها. وكلُّ أُخْتٍ منها بإِزاءِ أُخْتِها. وقد شَدَّتْ جوانِبَ هذه الرُّخاماتِ تَكافِيفُ (إِطاراتٌ)، غِلَظُها قَدْرُ إِصْبَعَيْنِ من الرُّخامِ المُجَزَّعِ، من الأَخْضَرِ والأَحْمَرِ المُنَقَّطَيْنِ، والأَبْيَضِ ذِي الخِيلانِ (جَمْعُ خالٍ، وهي: النُّقْطَةُ السَّوْداءُ)، كأَنَّها أَنابِيبُ مَخْروطَةٌ يَحارُ الوَهْمُ فيها.

(٢٨) خطيب الحرم

وبإِزاءِ المَقامِ الكريم تَرَى مِنْبَرَ الخطِيبِ، وهو على بكَرات أَربعٍ، ليَسْهُلَ تَحْرِيكُهُ علَيْها من مكانٍ إلى آخرَ. فإِذا كان يوم الجُمُعَةِ، وقَرُبَ وَقتُ الصلاةِ، ضُمَّ المِنْبَرُ إِلى صَفْحِ الكَعْبَةِ الَّذي يُقابِلُ المَقامَ — وهو بين الرُّكْنِ الأَسودِ والْعِراقيِّ — فيُسْنَدُ المِنْبَرُ إِليهِ. ثُمَّ يُقْبِلُ

الخطيبُ داخلًا على باب النَّبيِّ ﷺ، وهو يُقابِلُ المَقامَ، لابسًا ثَوْبَ سَوادٍ مرسُومًا بذَهب، ومُتعمِّمًا بِعِمامةٍ سوْداءَ مَرْسُومة أَيْضًا، وعليه طَيْلَسانٌ رَقِيقٌ.

كلُّ ذلك مِن أَكْسِيَةِ الخليفَةِ التي يُرْسِلُها إلى خُطَباءِ بلادِه. يَرْفُلُ فيها وعليهِ السَّكينَةُ والوَقارُ، يَتَهادى رُوَيْدًا بين رايَتَيْنِ سَوْداوَيْنِ يُمْسِكُهُما رَجُلانِ من قَوَمَةِ المُؤَذِّنينَ (الواقِفينَ للأذانِ)، وبين يديْه — ساعِيًا — أَحدُ القَوَمَةِ، وفي يدِهِ عُودٌ مَخْروطٌ أَحْمَرُ، قد رُبِطَ فِي رأْسِه حَبْلٌ — منَ الجلْدِ المَدْبوغِ المَفتولِ — رَقيقٌ طَويلٌ، في طَرفِهِ عَذَبَةٌ صغيرةٌ ينفُضها بِيدِهِ في الهواءِ نَفْضًا، فَتَأْتي بِصَوْتٍ عالٍ، يُسْمَعُ مِنْ داخلِ الحرَمِ وخارجِه، كأَنَّهُ إيذانٌ بِوُصُولِ الخَطِيبِ. ولا يَزالُ في نفْضِها إِلى أَنْ يَقْرُبَ من المِنْبَرِ، ويُسَمُّونَها الفَرْقَعَةَ.

(٢٩) مقدِّمات الخُطْبَة

فإذا قَرُبَ الخَطِيبُ من المِنْبَرِ، عَرَّجَ إلى الحجَر الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، وَدَعا عندهُ، ثمَّ سَعى إلى المِنْبَر، والمُؤَذِّنُ الزَّمْزَمِيُّ رئيسُ المُؤَذِّنينَ بالحرمِ الشَّريفِ ساعِيًا أَمامَهُ، لابِسًا ثِيابَ السَّوادِ أَيضًا، وعلَى عاتِقِه السَّيْفُ يُمْسِكُهُ بيدِهِ دُونَ تَقَلُّدٍ له. فعندَ صُعُودِهِ — في أَوَّلِ دَرَجَةٍ — قَلَّدَهُ المُؤَذِّنُ السَّيْفَ، ثمَّ ضَرَبَ بِنَعْلَةِ سَيْفِهِ (حَدِيدَة في أَسْفَلِ الْجراب)، ضَرْبَةً أَسْمَعَ بها الحاضرِين، ثمَّ في الثَّانِيةِ، ثمَّ في الثَّالِثَةِ. فإذا انتهى إلى الدَّرَجَةِ العُلْيا ضَرَبَ ضَرْبَةً رابعةً، وَوَقَفَ داعِيًا — مُسْتَقْبِلَ الكَعْبَةِ — بِدُعاءٍ خَفِيٍّ، ثمَّ التفَتَ — يَمْنَةً ويَسْرَةً — وقال: «السَّلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ»، فيَرُدُّ الناسُ عليهِ السلامَ.

(٣٠) دَعَواتُ الخطيب

ثمَّ يَقْعُدُ، ويُبَادِرُ المُؤَذِّنُونَ — بين يديهِ في المِنبرِ — بالأَذانِ عَلَى لِسانٍ واحدٍ. فإذا فَرَغُوا قامَ لِلْخُطْبَةِ، فَذَكَّرَ ووعَظَ وخَشَّعَ فأَبْلَغَ، ثم جَلَس الْجِلْسَةَ الْخَطِيبِيَّةَ، وضَرَبَ بالسيفِ ضربةً خامسةً، ثم قامَ للخُطبةِ الثانيةِ، فأَكثَرَ بالصلاةِ عَلَى محمد ﷺ وعَلَى آلِه، ورضي عن أَصحابِه، واختَصَّ الأَرْبَعَةَ الْخُلَفاءَ بالتَّسْمِيةِ، ودعا لِعَمَّي النبيِّ «حمزةَ» و«الْعَبَّاسِ» ولـ«الْحَسَن» و«الْحُسَيْن»، وَوالَى الرِّضا عن جميعِهم، ثُمَّ دَعا لأُمَّهاتِ المُؤْمِنِين: زَوْجات النَّبيِّ، ورضي عن «فاطمةَ الزَّهْراءِ» وعن «خديجةَ الكُبْرى» بهذا اللَّفْظِ. ثمَّ دعا للخليفَةِ

العَبَّاسِيِّ: «أَبي العباسِ أحمدَ الناصرِ»، ثمَّ لأَميرِ مكةَ «مُكْثِرِ بنِ عيسى»، ثمَّ لصلاحِ الدِّينِ «أَبي المُظَفَّرِ يوسُفَ بنِ أَيُّوبَ»، ولِوَلِيِّ عَهْدِهِ أَخِيهِ»: أَبِي بكر بنِ أَيُّوبَ».

(٣١) مكانة «صلاح الدين»

وعِنْدَ ذكرِ «صلاحِ الدينِ» بالدُّعاءِ تَخْفُقُ الأَلْسِنَةُ بالتَّأْمِينِ عليه من كلِّ مكانٍ.

«وإذا أَحَبَّ اللهُ يومًا عبدَهُ   أَلْقَى عليهِ مَحَبَّةً للنَّاسِ»

وحُقَّ ذلك عليهمْ، لِما يَبْذُلُهُ من جميل الاِعتِناءِ بهمْ، وحُسْنِ النَّظَرِ لهمْ، ولِما رَفَعَهُ منْ وظائِفِ المُكُوس عنهم. وفي هذا التاريخِ أُعْلِمْنا بأَنَّ كِتابَهُ وَصلَ إلى الأَميرِ «مُكْثِرٍ»، وأَهَمُّ فُصولِهِ التَّوْصِيَةُ بالحاجِّ والتأْكِيدُ في مَبَرَّتِهِمْ وَتَأْنيسِهِمْ ورفع أَيْدِي الاعتِداءِ عنهم، والإِيعازُ في ذلك إلى الْخُدَّامِ والأَتْباعِ والأَوْزاعِ. وقالَ:

«إِنَّهُ إِنَّما نَحْنُ وأَنْتَ مُتَقَلِّبُونَ في برَكَةِ الحاجِّ!»

فتأَمَّلْ هذا المَنْزِعَ الشَّريفَ، والمَقْصِدَ الكَريمَ. وإِحْسانُ اللهِ يتضاعُف إلى من أَحْسنَ إلى عِبادِه، واعْتِناؤُهُ الكَريمُ مَوصولٌ لَمَنْ جعلَ هَمَّهُ الاِعْتِناءَ بهم.

واللهُ عزَّ وَجلَّ كَفيلٌ بجزاءِ المُحْسنينَ.

(٣٢) الحفاوةُ بالخطيب

وفي أَثْناءِ الخُطْبَةِ، تُرْكَزُ الرّايتانِ السَّوْداوانِ في أَوَّلِ درجةٍ من المِنْبَرِ، ويُمسكهُما رَجُلانِ من المُؤَذِّنينَ. وفي جانِبَيْ بابِ المِنْبَرِ حَلْقتانِ، تُلْقَى الرَّايتانِ فيهما مَرْكُوزَتَيْنِ.

فإذا فَرَغَ من الصَّلاةِ خَرَج والرَّايتانِ عن يمينِهِ وشمالِه، والفَرْقعةُ أَمامهُ عَلَى الصَّفةِ التي دخل عليها. كأَنَّ ذلك أَيضًا إيذانٌ بانصراف الخطيبِ، والفراغِ من الصَّلاةِ.

ثم أُعيدَ المِنبرُ إلى مَوْضِعِهِ بإِزاءِ المَقامِ.

(٣٣) طوافُ الأَميرِ

ولَيْلَةَ أَهَلَّ هِلالُ جُمادَى الأُولَى، بَكَرَ أَميرُ مَكةَ «مُكْثِرٌ» — في صَبِيحتِها — إلى الْحَرَمِ الكَريمِ مع طُلوعِ الشمْسِ، وقُوَّادُه يَحُفُّونَ بهِ، والقُرَّاءُ يَقرءُون أَمامَهُ. فَدَخَلَ عَلَى بابِ النبيِّ ﷺ، ورِجالُه السُّودانُ — الذين يُعَرِّفُونهم بالْحَرَّابةِ — يطُوفُونَ أَمامَه، وبأَيْدِيهِم الْحِرابُ، وعليهِ السَّكينَةُ والْوقارُ. وكان لابِسًا ثَوْبَ بياضٍ، مُتَقَلِّدًا سيْفًا، مُتَعمَّمًا بِكُرْزِيَّةِ صوف بيْضاءَ رَقيقَةٍ. فلمَّا انتَهى بإِزاءِ المَقامِ الكريمِ، وَقفَ وَبُسِط لهُ وِطاءُ كَتَّانٍ، فصلّى رَكْعَتَيْنِ، ثم تَقَدَّمَ إلَى الْحجر الأَسْودِ فقبَّلَهُ، وشرَعَ في الطَّوافِ.

(٣٤) «في قبةِ «زمزَم

وقد علا قُبةَ «زَمْزَمَ» صبيٌّ — هو أَخو المُؤَذِّنِ الزَّمزمِيِّ — وهو أَوَّلُ المُؤَذِّنينَ أَذانًا، بهِ يَقتدُون، وله يَتبَعونَ. وقد لبِس هذا الصَّبيُّ أَفخَرَ ثيابِه وتعمَّم، فعنْدَما يُكْمِلُ الأَميرُ شَوطًا واحدًا ويَقْرُبُ من الْحجر، ينْدفعُ الصبيُّ في أَعلى القُبَّةِ — رافعًا صَوتَه بالدُّعاءِ — ويستَفتِحُهُ قائلًا: «صبَّحَ الله مَولانا الأَمير بسعادةٍ دائمةٍ، ونِعمةٍ شامِلة».

ويصِلُ ذلك بتَهنئةِ الشهرِ بكلامٍ مَسجوعٍ، حَفيلِ الدُّعاءِ والثَّناءِ. ثم يَختِمُ ذلك بثَلاثةِ أَبياتٍ — أَو أَربعةٍ — من الشِّعر، في مَدحِهِ ومَدحِ سَلفِهِ الكريمِ، وذِكْرِ سابقَةِ النُبوَّةِ، ثم يَسكُتُ. فإِذا أَظلَّ الركْنَ اليمانيَّ يُريدُ الحَجَرَ، اندفَع بدُعاءٍ آخرَ — عَلَى ذلك الأُسلوبِ — ووَصَلهُ بأَبياتٍ من الشِّعرِ، غيرِ الأَبياتِ الأُخَرِ — في ذلك المَعنَى بعَينِهِ — كأَنها مُنتزَعةٌ من قصائدَ مُدِح بها. وهكذا في السَّبْعةِ الأَشْواطِ، إِلى أَن يَفرُغَ منها، والقُرَّاءُ في أَثناءِ طَوافهِ أَمامهُ؛ فَيَنتظِمُ — من هذه الحالِ والأُبَّهةِ، وحُسْنِ صَوتِ ذلك الداعي، عَلَى صِغَرِهِ، لأَنه ابنُ إِحدَى عشْرةَ سَنةً أَو نحوِها، وحُسنِ الكلامِ الذي يُورِدُه نَثْرًا ونظمًا، وأَصواتِ القُرَّاءِ، وعُلوِّها بكتابِ اللهِ، عزَّ وجلَّ — مجموعٌ يُحرِّكُ النُّفوسَ ويَشْجُوها، ويَستَوكِفُ العُيونَ ويُبْكيها، تذكُّرًا لأَهلِ البيْتِ الذينَ أَذهَب اللهُ عنهم الرِّجسَ وطَهَّرَهم تَطهيرًا.

(٣٥) بعدَ الطوافِ

فإذا فرَغ من الطَّوافِ رَكَع — عندَ المُلتَزَمِ — ركْعتَيْن، ثم جاءَ وركَع خَلفَ المَقامِ أَيضًا، ثم وَلَّى مُنصرِفًا، وحَلْقتُه تَحُفُّ به. ولا يَظهرُ في الحَرمِ إلا لُمسْتَهَلِّ هِلالٍ آخَرَ، هكذا دائمًا.

(٣٦) حِجارَة الحرم

والبيْتُ العَتيقُ مَبنِيٌّ بالحجارةِ الكِبارِ الصُّمِّ السُّمْرِ، قد رُصَّ بعضُها عَلَى بعضٍ، وأُلصِقتْ بالعَقْدِ الوَثيقِ إلصاقًا لا تُحيلُه الأَيامُ، ولا تَفْصِمُهُ الأزمانُ. ومن العجِيبِ أَنَّ قِطعةً انصدعتْ من الركْنِ اليمانيِّ، فسُمِّرتْ بِمَساميرَ فِضَّةٍ، وأُعيدتْ كأَحسنِ ما كانت علَيه، والمَساميرُ فيها ظاهرةٌ. ومن آياتِ البيْتِ العتيق أَنه قائمٌ — وسَط الحَرَمِ — كالبُرْجِ المُشَيَّدِ، وله التَّنزيهُ الأَعلَى.

(٣٧) حَمائمُ الحرَمِ

وحَمامُ الحَرمِ لا يُحصَى كَثرةً، وهُوَ من الأَمْنِ بحيْثُ يُضرَبُ بِهِ المَثَلُ.

ولا يخلو الحَرَمُ من الطَّائفينَ ساعةً من النَّهارِ، ولا وَقتًا منَ اللَّيْلِ.

وفي الصَّفْحِ — النَّاظرِ إلى البيت العتيقِ من القبَّةِ — سَلاسلُ، فيها قَنادِيلُ من زُجاجٍ مُعَلَّقَةٌ، تُوقَدُ كُلَّ ليلَةٍ. وفي الصَّفح الذي عن يمينِه كذلكَ، وهوَ الناظِرُ إلى الشَّمالِ. والجانِبُ الذي يقابِلُ الحجَرَ الأَسْوَدَ — من القبَّةِ — تَتَّصِلُ بِهِ مِصطبةٌ من الرُّخامِ دائرةٌ بالقبَّةِ، يجلسُ الناسُ فِيها مُعْتبرينَ بشَرفِ ذلك المَوْضِعِ، لأَنهُ أَشْرفُ مواضعِ الدُّنيا المَذكورة بشرفِ مَواضعِ الآخرَةِ. لأَنَّ الحجَرَ الأَسْودَ أَمامَكَ، والبابَ الكَريمَ مع البيتِ قُبالَتَكَ، والْمقامَ عن يَمِينكَ، وبابَ الصَّفا عن يَسارِكَ، وبئرَ «زَمْزَمَ» وَراءَ ظَهرِكَ، وناهِيكَ بهذا.

(٣٨) أئمة الحرم

وللحَرم أَربعةُ أَئِمة سُنِّيَّةٍ، وإِمامٌ خامِسٌ لِفِرْقة تُسمَّى الزَّيْدِيَّة، وأَشرافُ هذِهِ البَلْدَةِ على مَذْهبِهِمْ. وَهُمْ يَزِيدُون في الأذانِ:" حَيَّ عَلَى خَيْرِ العَمِلِ «إِثْرَ قَوْل المُؤَذِّنِ: حَيَّ عَلَى الفَلاحِ». وَهُمْ رَوافِضُ.

ويُطيفُ بهذِهِ المَواضعِ كلِّها — دائرَ البيتِ العتيق، وعلَى بُعْدٍ يسيرٍ منه — مَشاعيلُ تُوقَدُ في صِحافِ حديدٍ، فوقَ خُشُبٍ مَركُوزَةٍ. فيتَّقدُ الحرمُ الشَّريفُ كلُّهُ نُورًا، ويُوضَعُ الشَّمَعُ بَيْنَ أَيْدِي الأَئِمَّةِ في مَحارِيبِهِمْ.

(٣٩) بَعْد صلاة المَغرب

وفي أَثَرِ كلِّ صَلاةِ مغْرِب، يَقِفُ المُؤَذِّن الزَّمْزَمِيُّ في سطْحِ قُبَّة «زَمْزَم» ولَها مَطْلعٌ عَلَى أَدْراجٍ من عودٍ، في الجِهةِ التي تُقابِلُ باب الصَّفا — رافعًا صَوْتَهُ بالدُّعاءِ للإمام العبَّاسِيِّ «أَحمدَ النَّاصِرِ لدينِ اللهِ»، ثُمَّ للأَميرِ «مُكْثِرٍ»، ثمَّ «لِصَلاحِ الدينِ»: أَميرِ الشَّامِ وجهاتِ مصرَ كلِّها واليَمَنِ، ذِي المَآثر الشَّهيرَةِ، والمَناقبِ الشَّريفةِ. فإذا انْتَهى إِلى ذِكْرِهِ بالدُّعاءِ، ارتفَعَتْ أَصواتُ الطَّائِفِينَ بالتأمينِ، بأَلْسِنةٍ تُمِدُّها القلُوبُ الخالِصَةُ، والنِّيَّاتُ الصَّادقةُ، وتخْفُقُ الأَلْسِنةُ بِذلكَ خَفْقًا يُذِيبُ القلُوبَ خُشُوعًا، لِما وَهَبَ اللهُ لِهذا السُّلْطانِ العادِلِ من الثناءِ الجميل، وأَلْقَى عليهِ من مَحبَّةِ النَّاسِ. وعبادُ اللهِ شُهَداؤُه في أَرْضِه.

ثُمَّ يَصِلُ ذلكَ بِدُعاءِ لأُمراءِ اليَمَن — منْ جهةِ «صَلاحِ الدينِ» — ثُمَّ لِسائرِ المُسْلِمينَ والْحُجَّاجِ والمُسافرِينَ.

(٤٠) مُخلَّفات ثمينة

وفي القُبَّةِ العبَّاسِيَّةِ خِزانَةٌ تَحْتَوي على تابوت مَبْسُوط مُتَّسِعٍ، وفيه مُصْحَفُ أَحدِ الخلفاءِ الأَرْبعةِ أَصْحابِ الرَّسُولِ، وبِخَطِّ «زَيْدِ بنِ ثابتٍ» — رَضِيَ اللهُ عَنهُ — مُنْتَسَخٌ سَنةَ ثَمانِيَ عَشْرَةَ مِنْ وَفاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَيَنْقُصُ منهُ ورَقاتٌ كَثيرَةٌ، وَهُوَ بين دَفَّتيْ خَشَبٍ، مُجَلَّدٌ بِمغاليقَ من صُفْرٍ (نُحاسٍ)، كَبيرُ الوَرَقات واسعُها.

وبإزاءِ الحرمِ الشَّريفِ دِيارٌ كَثيرةٌ، لهَا أَبوابٌ يُخرَجُ مِنها إليهِ، وناهيكَ بِهذا الجِوارِ الكريمِ. وحوْلَ الحرمِ أيضًا دِيارٌ كَثيرَةٌ تُطِيفُ بهِ، لها مَناظرُ وسطُوحٌ يُخْرَجُ منها إلى سطْحِ الحرمِ فَيبِيتُ أَهلُها فيهِ، ويُبَرِّدُونَ ماءَهم في أَعالِي شُرُفاته.

فَهمْ — من النظرِ إلى البيتِ العتيق دائمًا — في عبادة مُتَّصِلَة، واللهُ يَهْنِئُهُمْ ما خصَّهُمْ بهِ منْ مُجاوَرةِ بَيتِهِ الحرامِ.

(٤١) مساحة المَسجد الحرام

وأَلْفَيْتُ بِخَطِّ الفَقِيهِ الزاهدِ الوَرِعِ «أَبي جَعْفَر القُرْطُبيِّ»: أَنَّ ذرْعَ المَسجدِ الحرامِ في الطُّولِ والعَرْضِ ما أَثبَتُّهُ أَوَّلًا، وطولَ مَسْجِدِ رسولِ اللهِ ﷺ ثَلاثُ مئة ذِراعٍ، وعرضُهُ مِائَتانِ، وعددَ سَوارِيهِ (أَعْمِدَتِهِ) ثَلاثُ مئة، ومَناراتِه ثلاثٌ.

فيكونُ تَكْسيرُهُ (مَقاييسُهُ) أَربعَةً وعشرينَ مَرْجِعًا من المَراجعِ المَغْربيةِ، وهيَ خَمْسُونَ ذراعًا في مِثْلِها.

(٤٢) بيت المَقدس

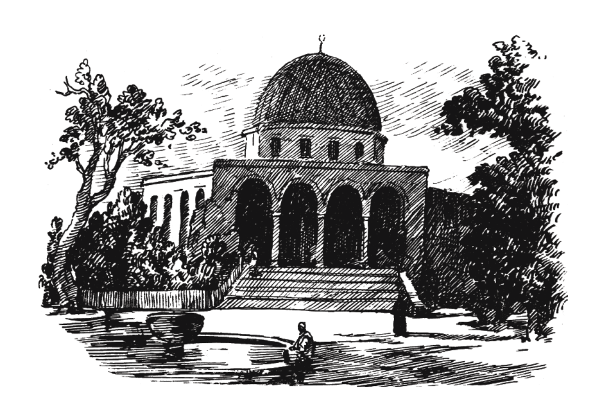
وطولُ مسجِدِ بيْتِ المَقْدِسِ — أَعادهُ اللهُ للإِسْلامِ — سَبْعُ مئة وثَمانُونَ ذراعًا، وعرضُهُ أَرْبَعُ مئة وخمسون ذراعًا، وسَوارِيهِ أَربع مئة وأَربَعَ عشرَةَ ساريةً، وقَنادِيلُهُ خَمْسُ مئة، وأَبوابُهُ خمسونَ بابًا.

فيكونُ تكسيرُهُ — من المَراجعِ المَذكورة — مئة مَرْجعٍ وأَرْبَعِين مَرْجعًا وخُمْسَيْ مَرْجعٍ.

(٤٣) أَبواب الحَرَم

وللحرمِ تسعةَ عشرَ بابًا أَكْثَرُها مُفَتَّحٌ عَلَى أَبواب كَثيرةٍ.

منها: «بابُ الصَّفا» يُفْتَحُ عَلَى خَمْسَةِ أَبواب، وكان يسمَّى قديمًا ببابِ بني مَخْزُوم. و«بابُ الصفا» أَكبرُ الأَبوابِ، وهو الذي يُخْرَجُ عليهِ إلى السَّعْيِ. وكلُّ وافِدٍ إلى مَكَّةَ — شَرَّفَها اللهُ — يَدْخُلُها بِعُمْرةٍ، فَيُسْتَحَبُّ له الدخولُ عَلَى بابِ بني شَيْبَةَ، ثمَّ يطوفُ سَبْعًا،



ويَخْرُجُ علَى بابِ الصَّفا، ويجعلُ طَريقَهُ بينَ الأُسْطُوانتَيْنِ الَّلتَيْنِ أمرَ المَهْدِيُّ — رَحِمَهُ اللهُ — بإقامتهما علَمًا لِطَريقِ رسول اللهِ ﷺ إلى الصَّفا.

وعن يسارِ الساعي إلى المَرْوَةِ سارِيتانِ خضراوانِ، عَلَى كلِّ واحِدَةٍ منهما لَوْحٌ قد وُضِعَ عَلَى رَأْسِ السَّارِيَةِ كالتَّاجِ، أَلْفَيْتُ فيهِ منقوشًا بِرَسْمٍ مُذَهَّبٍ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

وبَعْدَها: «أَمَرَ بعمارَةِ هذا المِيلِ (العمود) عبدُ اللهِ وخليفتهُ، أَبُو مُحَمَّدٍ المُسْتَضِيءُ بِأَمْرِ اللهِ، أَميرُ المُؤْمنينَ، أَعزَّ اللهُ نَصْرَهُ، في سنةِ ثلاثٍ وَسَبْعِين وَخَمْسِ مئة».

(٤٤) بين «الصَّفا» و«المَرْوَة»

وبينَ الصَّفا والمِيلِ الأَول ثلاثٌ وتِسْعُون خُطْوَةً، ومن المِيل إلى المِيلَيْنِ خَمْسٌ وسبعونَ خُطْوةً، وهي مسافَةُ الرَّمَل (الهَرْوَلَةِ) جائيًا وذاهِبًا منَ الميلِ إلى المِيلَيْنِ ثمَّ منَ المِيلَيْن إلى الميلِ. ومنَ المِيلين إلى المَرْوَة ثَلاثُ مئة وخَمْسٌ وعشْرُونَ خُطْوَةً، فَجَمِيعُ خُطا السَّاعي من الصَّفا إلى المَرْوَةِ أَرْبعُ مئة خُطْوَةٍ وثلاثٌ وتسعونَ خُطْوَةً. وأَدْراجُ المَرْوَةِ خَمْسَةٌ، وهي بِقَوْسٍ واحدٍ كبير، وسَعَتُها سَعَةُ الصَّفا سَبْعَ عشرة خُطْوَةً.

(٤٥) سُوق التجار

وما بينَ الصَّفا والمَرْوَةِ سُوقٌ حَفِيلَةٌ بجميعِ الفَواكِهِ وغيرها من الْحُبُوبِ وسائِرِ المَبِيعاتِ الطَّعامِيَّةِ. والسَّاعُونَ لا يَكادونَ يخْلُصُونَ من كَثْرَةِ الزِّحامِ. وحوانيتُ الباعَةِ يميناً وشِمالاً. وما لِلْبَلْدَةِ سُوقٌ مُنْتَظِمَةٌ سِواها إلاَّ العطَّارِين والْبَزَّازينَ (تُجَّارَ الثيابِ والأَسْلِحة)؛ فَهُمْ عند بابِ بني شَيْبَةَ تحتَ السُّوقِ المَذكورةِ، وبِمَقْرَبةٍ تكادُ تَتَّصِلُ بها.

(٤٦) جبل أَبي قبيس

وعَلَى الْحرمِ الشَّريفِ جَبلُ «أَبي قُبَيْسٍ»، وهو في الجهةِ الشَّرْقِيَّةِ يُقابِلُ رُكْنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ. وفي أَعْلاهُ رِباطٌ مُبارَكٌ، فيهِ مَسْجِدٌ، وعليهِ سَطْحٌ مُشْرِفٌ عَلَى البَلْدَةِ الطَّيِّبَةِ. وَمنهُ يَظْهرُ حُسنُها وَحُسنُ الحرَمِ واتِّساعُهُ، وَجمالُ الكَعبةِ المقَدَّسَةِ القائمَةِ وَسَطَهُ. وَفيهِ قبْرُ آدمَ صلَواتُ اللهِ عليهِ، وهو أَحدُ أَخْشَبَيْ مكَّةَ (جَبلَيْها)، والأَخْشَبُ الثَّاني: الجبَلُ المُتَّصِلُ بقُعَيْقِعانَ في الْجِهةِ الغرْبيَّةِ.

صَعِدْنا إلى جَبلِ «أَبي قُبَيْسٍ». وَصَلِّينا في المَسْجِدِ المُبارَكِ وفيهِ موْضعُ مَوْقِفِ النبيِّ ﷺ عنْدَ انْشِقاق القَمر لهُ بقُدْرَةِ اللهِ. والفَضْلُ بيدِ اللهِ، يُؤْتِيهِ مَن يَشاءُ، حتى الجماداتِ من مَخْلوقاتهِ.

(٤٧) أَثر «الخليفة المهدي»

وأَلْفَيْتُ مَنقوشًا عَلَى سارِيَةٍ خارِجَ بابِ الصَّفا، تُقابِلُ السَّارِيةَ الواحِدَة من اللتَيْنِ أُقيمتَا عَلَمًا لطريقِ النبيِّ إلى الصفا داخل الحرمِ: «أَمرَ عبدُ الله محمدٌ المَهْدِيُّ أَميرُ المؤْمنينَ — أَصْلَحه الله تعالى — بتَوْسِعَةِ المَسْجِدِ الحرامِ مِمّا يلي بابَ الصَّفا؛ لتكُونَ الكَعبةُ في وَسَطِ المَسْجِدِ، في سنةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ ومئة».

وتحْتَ ذلك النَّقْشِ في أَسْفَلِ السَّارِيةِ مَنقوشٌ أَيضًا:

> «أَمرَ عبدُ اللهِ محمدٌ المَهْدِيُّ أَميرُ المؤْمنينَ — أَصْلحهُ الله — بتَوْسِعةِ البابِ الأَوْسَطِ الذي بيْنَ هاتَيْنِ الأُسْطُوانَتَينِ، وهوَ طريقُ رسولِ اللهِ ﷺ إلى الصَّفا».

وفي أَعْلَى السَّارِيةِ التي تَليها مَنقُوشٌ أَيضًا:

«أَمرَ عبدُ اللهِ محمدٌ المَهْدِيُّ أَميرُ المُؤْمنينَ — أَصْلَحهُ اللهُ — بصَرْفِ الوادِي إِلى مَجْراهُ وتَوْسِعَتِهِ كما كان عَلَى عهدِ إِبراهيمَ ﷺ».

وبالرِّحابِ التي حوْلَ المَسجِدِ الحرامِ لحاجِّ بيْتِ اللهِ وعُمَّارِه، وتحتَها أَيضًا، مَنقوشٌ ما تحْتَ الأَوَّلِ من ذِكْرِ تَوْسِعةِ الباب الأَوْسَطِ.

(٤٨) وادِي «إِبراهِيمَ»

وهذا الوادِي هوَ المَنسوبُ لإِبراهيمَ ﷺ. ومَجْراهُ عَلَى بابِ الصَّفا. وكانَ السَّيْلُ قد خالفَ مَجْراهُ، فأَصْبَح يأْتِي عَلَى المَسيل بين الصفا والمَروَةِ ويدخلُ الحرمَ، فكان مُدَّةَ امتلائِه بالأَمطار يُطافُ حوْل الكَعبة سَبحًا.

فأَمر «المَهْدِيُّ» — رَحِمَهُ اللهُ — برَفعِ موَضع في أَعْلَى البلدِ يُسمى رَأْسَ الرَّدْمِ. فمتَى جاءَ السَّيْلُ عرَّجَ عن ذلك الرَّدْمِ إلى مَجْراهُ، واستمرَّ عَلَى بابِ «إِبراهيمَ» إِلى المَوْضعِ الذي يُسَمى (المسْفَلَة)، وَيخرُجُ عن البلدِ وَلا يجري الماءُ فيهِ إلا عنْدَ نزُول المَطَرِ الكَثيرِ. وهوَ الوادِي الذي عَنَى «إِبراهيمُ» ﷺ بقَوْلِه، حيثُ حَكَى اللهُ تبارَك وتعالى عنهُ: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾

فَسُبحانَ مَن أَبْقَى له الآيات البيِّنَات.

الفصل السابع

آثار مَكّة

(١) أَبوابُ مكةَ

«مَكَّةُ» هي بَلْدَةٌ قد وضعَها اللهُ — عزَّ وجَلَّ — بين جِبال مُحْدِقة بها، وهي بَطن وَادٍ مقدَّس، كبيرةٌ مستطيلةٌ، تَسعُ من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله.

ولها ثلاثةُ أَبواب:

أَولها باب «الْمَعْلَى»، ومنه يُخْرَجُ إلى الجَبَّانة المُباركةِ، وهي بالموضعِ الذي يُعْرَف بـ«الحَجُونِ»، وعن يَسارِ المارِّ إليها جبلٌ في أَعلاهُ ثَنِيَّةٌ عليها عَلَمٌ يُشْبهُ الْبُرْجَ، يُخْرَجُ منها إلى طريقِ العُمْرةِ، وتِلك الثَّنِيَّةُ (الجبلُ) تسَمَّى «كَداءَ»، وهي التي عَنَى حَسَّانُ بنُ ثابتٍ — شاعرُ الرسول — بقولِهِ في شعرِهِ:

«عدِمنا خَيْلَنا، إن لم تَرَوْها تُثِيرُ النَّقْعَ، مَوْعِدُها كَداءُ»

فقال النبيُّ ﷺ يومَ الفتحِ: «ادْخُلُوا من حيثُ قال حَسَّانٌ»، فدخلوا من تِلك الثَّنِيَّةِ.

وهذا الموضعُ — الذي يُعرفُ بالحَجُونِ — هو الذي عَناهُ «الحارثُ بنُ مُضَاض الجُرْهميُّ» بقوله:

كأَن لم يكُنْ بين الحَجُونِ إلى الصَّفا أَنيسٌ، ولم يَسْمُرْ بـ«مَكَّةَ» سامرُ
بَلَى. نحن كُنا أَهْلَها، فَأَبادَنا صُروفُ الَّليالِي والجُدودُ العَواثِرُ

(٢) مدافن «مَكَّةَ»

وبالجبانةِ المَذكورة مَدْفِنُ جماعةٍ من الصَّحابةِ والتابعينَ والأَولياءِ والصالحينَ، قد دُثِرَتْ مَشاهِدُهم المُباركةُ، وذهبتْ عن أَهل البلدِ أَسماؤُهم. وفيه المَوضعُ الذي صَلَب فيه «الحَجَّاجُ بنُ يوسَف» — جازاه اللهُ — جُثَّةَ «عبدِ اللهِ بن الزَّبَيْرِ».

(٣) مبايعةُ الجنِّ

وعن يمينِك — إذا استقبلْتَ الجبانةَ المَذكورةَ — مسجدٌ في مَسِيلٍ بين جبلين، يُقالُ إنَّه المَسجدُ الذي بايَعَتْ فيه الجِنُّ النبيَّ ﷺ. وعلى هذا البابِ طريقُ «الطائِفِ»، وطريقُ «العراقِ»، والصعودُ إلى «عرفات»، جَعلنا الله مِمَّن يَفوزُ بالمَوْقِفِ فيها. وهذا البابُ بين الشرقِ والشَّمالِ، وهو إلى المَشْرُق أَمْيَلُ.

ثم بابُ (المَسفَلِ)، وهو إلى جهةِ الجنوبِ. وعليه طريقُ اليمن، ومنه كان دخولُ «خالدِ بنِ الوليدِ» رضيَ اللهُ عنهُ يومَ الفَتْحِ.

ثم بابُ (الزاهر)، ويُعْرَفُ أَيضًا ببابِ «العُمْرة»، وَهو غربيٌّ، وعليهِ طريقُ مدينةِ الرَّسولِ ﷺ، وطريقُ الشامِ، وطريقُ «جُدَّةَ»، ومنه يُتَوَجَّهُ إلى التنْعيمِ، وهو أَقربُ ميقاتِ المُعْتَمِرينَ. يُخْرَجُ من الحرمِ إليهِ عَلَى بابِ العُمْرَةِ، ولذلك أَيضًا يُسَمى هوَ بهذا الاسْم. والتَّنْعيمُ من البلْدَةِ عَلَى فَرْسَخٍ، وهو طريقٌ حَسَنٌ فَسِيحٌ، فيهِ الآبارُ العذْبَةُ التي تُسَمَّى بـ«الشُّبَيْكَةِ».

وعنْدَما تخرُجُ من البلْدَةِ — بنحو مِيل — تَلْقى مَسجدًا بإِزائِه حجرٌ موْضوعٌ عَلَى الطريقِ كالمِصْطَبةِ، يَعْلوهُ حَجرٌ آخرُ مُسْنَدٌ، فيهِ نقْشٌ داثِرُ الرَّسْمِ، يقالُ إِنهُ المَوْضعُ الذي قَعدَ فيهِ النبيُّ مُسْتَرِيحًا عند مَجِيئِهِ من العُمْرَةِ.

(٤) قبر «أَبي لهبٍ»

ثمَّ بعْدَ هذا المَوْضعِ بِمِقدارٍ يَسِيرٍ، تَلْقى عَلَى قارِعَةِ الطريق — من جهةِ اليسارِ للمُتَوَجِّهِ إِلى العُمْرَةِ — قبْريْنِ، قد عَلَتْهما أَكْوامٌ من الصَّخْرِ عِظامٌ، يُقالُ: إِنهما قبْرَا «أَبي لهَبٍ»

وامرأَتِه، لَعنَهُما اللهُ، فما زَالَ الناسُ في القديمِ — إلى هلُمَّ جرًّا — يَتَّخِذونَ رَجْمَهُما بالحجارةِ سُنَّةً، حتى علاهُما من ذلك جَبلانِ عظيمانِ.

(٥) مرافق الطريق

ثم تسيرُ منها بمِقدار مِيل وتَلْقَى «الزاهِر»، وهو مُبْتَنًى على جانِبَي الطريقِ يحتوِي عَلَى دارٍ وبساتينَ. والجميعُ مِلْكُ أَحدِ المَكِّيِّينَ. وقد أَحدثَ في المَكانِ مَطاهِرَ وسِقايَةً لِلمُعْتَمِرينَ. وَعلى جانبِ الطريقِ مِصْطَبَةٌ مُستطيلةٌ تُصَفُّ عليها كِيزانُ الماءِ وَمراكِنُ مَمْلوءَةٌ للوُضوءِ، وهي القَصارِي الصِّغارُ. وفي المَوْضِعِ بئرٌ عَذْبَةٌ تُمْلأُ منها المَطاهِرُ المَذكورةُ، فيَجِدُ المُعتَمِرونَ فيها مِرْفَقًا كبيرًا للطَّهورِ والوُضوءِ والشُّرْبِ. فصاحِبُها على سبيل معمورةٍ بالأَجرِ والثَّوابِ. وكَثيرٌ من الناس المُتَأَجِّرينَ (طُلاَّبِ الأَجْرِ منَ اللهِ) مَنْ يُعينُه على ما هوَ بِسَبيلِهِ. وقيل إنَّ له في ذلك فائدةً كبيرةً.

(٦) قصة «إبراهيمَ»

وعن جانِبَي الطَّريقِ في هذا المَوْضعِ جبالٌ أَرْبَعَةٌ، جبلانِ من هُنا وجبلانِ من هُنا، عليها أَعلامٌ من الحجارة، وذُكِرَ لنا أَنها الْجِبالُ المُباركة التي جعلَ «إبراهيمُ» — عليهِ السَّلامُ — عليها أَجزاءَ الطيرِ، ثم دعاهُنَّ حَسْبَما حَكى الله — عزَّ وجلَّ — سؤَالَهُ إِيَّاهُ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي المَوْتَى.

وحوْلَ تلك الجبالِ الأَربعةِ جبالٌ غيرُها.

وعند إجازَتِك «الزاهِرَ» تمرُّ بالوادي المَعروفِ بـ«ذي طُوًى» الذي ذُكِرَ أَنَّ النبيِّ ﷺ نَزَلَ فيهِ عند دخولِهِ «مكةَ»، وكان ابنُ «عُمَرَ بنِ الْخَطَّاب» يَغْتَسِلُ فيهِ، وحينئذ يدْخُلُها.

وحولَهُ آبارٌ تُعْرَفُ بالشُّبَيْكَةِ، وفيهِ مَسجدٌ يقالُ إِنَّهُ مسجدُ «إبراهيمَ»، فتأَمَّلْ بركَةَ هذا الطريقِ، ومجموعَ الآياتِ التي فيهِ، والآثارَ المُقَدَّسَةَ التي اكْتَنَفَتْهُ (أَحاطَت بِهِ).

(٧) بين الحِلِّ والحَرَم

وتُجِيزُ الوادِيَ إلى مَضِيق تَخْرُجُ منهُ إلى الأَعْلام التي وُضِعَتْ حَجْزًا بين الحلِّ والْحَرَمِ، فما داخِلَها إلى «مكة» حرمٌ، وما خارِجها حِلٌّ. وهي كالأَبْراجِ مصفوفةٌ، كِبارٌ وصِغارٌ، واحدٌ بإزاءِ آخرَ، عَلَى مَقْرَبَةٍ منهُ، تأخُذُ من أَعْلَى الجبلِ الذي يَعْتَرِضُ عن يمينِ الطريقِ في التَّوَجُّهِ إلى العُمْرةِ، وتَشُقُّ الطريقَ إلى أَعلَى الجبَلِ عن يساره، ومنهُ مِيقاتُ الْمُعتَمِرينَ، وفيها مساجدُ مَبنِيَّةٌ بالحجارة يُصلِّي الْمُعتَمرونَ فيها ويُحْرِمونَ منها.

ومسجدُ «عائشةَ» — رضيَ الله عنها — خارجَ هذه الأَعلامِ بمقدارٍ يسيرٍ. وإليهِ يصلُ المالِكيُّونَ، ومنه يُحرْمونَ.

وأَمَّا الشافِعيُّونَ فيُحْرِمونَ من المَساجدِ التي حوْلَ الأَعلامِ المَذكُورةِ. وأَمامَ مسجدِ «عائشةَ» — رضيَ اللهُ عنها — مَسجِدٌ يُنسَبُ لـ«عَلِيٍّ بنِ أَبي طالب» رضِيَ اللهُ عنه.

(٨) أَصنامُ الجاهليةِ

ومن عجيبِ ما عَرَض علَينا ببابِ «بني شَيْبَةَ» — هذا — عتَباتٌ من الحجارَةِ العِظامِ، كأَنها مَصاطِبُ صُفَّت أَمام الأَبوابِ الثَّلاثةِ المَنْسوبةِ لبني «شَيْبَة» ذُكر لنَا أَنها الأَصنامُ التي كانت «قُرَيْشٌ» تعبُدُها في جاهِليَّتِها — وكَبيرُها «هُبَلُ» بينَها — قد كُبَّتْ (قُلبَتْ) عَلَى وُجوهِها، تطؤُها الأَقدامُ، وتَمتِنُها بأَنعِلتِها العوامُّ، ولم تُغْنِ عن أَنفُسِها — فضْلًا عن عابِديها — شَيئًا.

فسُبحانَ الْمُنفَرِدِ بالوَحدانيَّةِ، لا إلهَ سِواهُ.

والصَّحيحُ في أَمرِ تلك الحجارة أَن النَّبيَّ أَمرَ يوْمَ فتْح «مكَّةَ» بكَسرِ الأَصنامِ وإِحراقِها.

أَمَّا ذلك الذي نُقلَ إلينا فهو غيرُ صَحيحٍ. وإنَّما تلك التي عَلَى الباب حجارةٌ مَنقولةٌ، وقد شَبَّهَها القَومُ بِالأَصنامِ لِعِظَمِها.

(٩) جبَلُ حِراءَ



ومن جِبَالِ مكَّةَ المَشهورَةِ — بعدَ جبل «أَبي قُبَيس» «جبلُ حِراءَ» وهو في الشرقِ عَلَى مِقدار فرْسخٍ أَو نحوهِ، مُشرِفٌ عَلَى «مِنًى»، مُرتفِعٌ في الهواءِ، عَالِي القُنَّةِ (رَأْسِ الْجَبَل).

وقَدْ كَان النَّبيُّ كَثيرًا ما يزُورُ هذا الجَبلَ ويَتَعَبَّدُ فيهِ.

وأَولُ آية نَزَلَتْ من القُرآنِ عَلَى النبيِّ، نَزَلتْ في ذلك الجبل، وهو آخذٌ منَ الغربِ إِلى الشَّمالِ. ووراءَ طَرَفِهِ الشَّماليِّ جبَّانةُ «الْحَجُونِ» التي تقدَّم ذكْرُها. وسورُ «مكةَ» إِنَّما كان من جهةِ «المَعْلَى»، وهو مَدخَلٌ إلى البلَدِ. ومن جهةِ «المَسْفل»، وهوَ مدخلٌ أَيضًا إِليه، ومن جهة بابِ العُمْرَةِ.

وسائرُ الجوانبِ جِبالٌ لا يُحْتَاجُ معها إِلى سُور.

وسُورُها اليومَ مُنْهدِمٌ، إلا آثارُهُ الباقيةُ، وأَبوابهُ القائمةُ.

(١٠) مَشاهِدُ «مَكَّة»

«مكةُ» — شَرَّفَها اللهُ — كلُّها مشهدٌ كريمٌ، كفاها شرفًا ما خَصَّها الله به من مَثَابةِ (مَكانِ) بيتِه العظيمِ، وما سبق لها منْ دعوة الخليل «إِبراهيمَ»، وأَنَّها حَرمُ اللهِ وأَمْنُهُ، وكفاها أَنَّها مَنْشَأُ النبيِّ الذي آثَرَهُ اللهُ بالتَّشْريفِ والتكْرِيمِ، وابتعثَهُ بالآيات والذِّكرِ الحكيمِ، فهيَ مبدأُ نُزُولِ الوحْيِ والتنزيلِ، وَأَولُ مَهبِطِ الرُّوح الأَمِينِ «جبريلَ»، وكانتْ مَثابةَ أَنبياءِ اللهِ

ورُسُلِهِ الأَكْرَمِينَ، وهي أَيْضًا مَسْقِطُ رُءوسِ جماعة من الصَّحابةِ القرشِيِّينَ المُهاجِرِينَ الذين جعلهم اللهُ مصابيحَ الدِّينِ ونُجومًا للمُهْتدِين. فمِنْ مشاهِدها التي عايَناها «قُبَّةُ الوحي»، وهي في دار «خَديجة» أُمِّ المُؤْمنينَ رضيَ اللهُ عنها، وفيها كان زواجُ النبي بها. وقبةٌ صغيرةٌ أَيْضًا في الدارِ المَذكورةِ، فيها كان مَولدُ «فاطمَة الزَّهراءِ» رضيَ اللهُ عنها، وفيها أَيْضًا وَلَدَتْ سَيِّدَيْ شبابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: «الحَسَنَ» و«الحُسَيْنَ» رضيَ اللهُ عنهما، وهذه المَواضعُ المُقدَّسةُ مُغْلَقةٌ مَصونَةٌ قد بُنِيَتْ بِناءً يَليقُ بِمِثلها.

(١١) مولد النبيِّ

ومنْ مَشاهِدِها الكريمةِ أَيضًا مَوْلِدُ النبيِّ، والتُرْبَةُ الطَّاهِرَةُ التي هي أَوَّلُ تُرْبةٍ مسَّتْ جِسمَهُ الطَّاهِرَ. بُنِيَ عليهِ مسجدٌ لم يُرَ أَحْفَلُ بِناءً منهُ، أَكْثَرُهُ ذَهَبٌ مُنَزَّلٌ بهِ. والمَوْضِعُ المُقدَّسُ الذي سَقَطَ فيهِ ﷺ ساعَةَ الوِلادَةِ السَّعِيدَةِ المُبارَكةِ التي جعلَها اللهُ رحمةً للأُمَّةِ أَجْمَعِينَ، مَحْفُوفٌ بالفِضَّةِ.

فَيا لَها تُرْبَةً شَرَّفَها اللهُ بأَنْ جعلها مَسْقِطَ أَطْهَرِ الأَجْسامِ، ومولدَ خَيْرِ الأَنامِ.

يُفْتَحُ هذا المَوضعُ المُباركُ فيَدْخُلُهُ الناسُ كافَّةً مُتَبَرِّكِينَ بهِ، في شهرِ ربيعٍ الأَوَّل ويومِ الإثنينِ منهُ، لأَنَّهُ كانَ شهرَ مولد النبيِّ، وفي ذلك الْيَوْمِ وُلِدَ.

وتُفْتَحُ المواضعُ المقدسةُ كلُّها. وهو يومٌ مشهودٌ بمكة دائمًا.

(١٢) دار الخيزُران

ومن مَشاهِدِها أَيْضًا «دارُ الخَيْزُرانِ»، وهي الدارُ التي كان النبيُّ ﷺ يَعْبُدُ اللهَ فيها سِرًّا مع الطَّائفةِ الكريمةِ المُبادِرَةِ للإِسلامِ من أَصحابِه، رضي اللهُ عنهم، حتى نَشَرَ الله الإِسلامَ منها على يَدَي الفاروقِ «عُمَرَ بنِ الخطابِ».

(١٣) آثار دارسة

ومنها دارُ «أَبي بكر الصِّدِّيقِ» رضيَ اللهُ عنه، وهي اليومَ دارسةُ الأَثَرِ. وَثَمَّ (هُناكَ) قبةٌ بين «الصَّفا» و«المَرْوَةِ» تُنْسَبُ لـ«عُمَر بن الخطابِ» رضي اللهُ عنهُ، وفي وَسَطِها بئْرٌ. ويقالُ إِنَّهُ كان يَجْلِسُ في هذه القبةِ للحُكْمِ.

والصحيحُ أَنَّها قُبَّةُ سِبْطِه: «عُمَرَ بنِ عبد العزيزِ»، وهِيَ بإزاءِ دارِه المَنسوبةِ إليهِ، وفيها كان يجلسُ للحُكْمَ أَيَّامَ تَولِّيهِ «مَكَّةَ».

ويقالُ: إنَّ البِئْرَ كانت في القديمِ فيها، ولا بئْرَ فيها الآنَ؛ لأَنَّا دَخَلْناها فأَلْفيْناها مُسَطَّحَةً، وهي حَفِيلَةُ الصَّنْعَةِ (الصَّنْعَةُ فِيها كثيرة جَيِّدة).

(١٤) ذِكْرَياتٌ نَبَويَّة

وبِجهةِ «المَسْفَلِ»، وهو آخرُ البَلَدِ، مسجدٌ منسوبٌ لأَبي بكرٍ الصِّدِّيقِ — رضيَ الله عنهُ — يَحُفُّ بهِ بُسْتانٌ حَسَنٌ، فيه النَّخِيلُ والرُّمَّانُ وشَجَرُ العُنَّابِ، وعايَنَّا فيهِ شجر الْحِنَّاءِ.

وأَمامَ المَسجدِ بيتٌ صغيرٌ فيهِ مِحرابٌ، يقالُ إِنهُ كان مُخْتَبَأً له مِنَ المُشْرِكينَ الطَّالِبِينَ له.

وعَلَى مَقْرَبة من دار «خديجةَ» رضي الله عنها، وفي الزُّقاقِ الذي به الدارُ المُكَرَّمةُ، مِصْطَبَةٌ فيها مُتَّكَأٌ يَقْصِدُ الناسُ إِليها ويُصَلُّونَ فيها، لأَنَّ النبيَّ ﷺ كان يُطِيلُ القُعُودَ في مَوْضِعِها.

(١٥) جبل ثوْر

ومِنَ الجبالِ التي فيها أَثَرٌ كريمٌ، ومشهدٌ عظيمٌ، الجبلُ المَعرُوفُ بجبل ثَوْر. وهو في الجهةِ الْيَمَنِيَّةِ، من «مكةَ»، عَلَى مِقدار فَرْسَخٍ، أَوْ أَزْيَدَ. وفيه الغارُ الذي آوَى إِليهِ النبيُّ ﷺ مع صاحِبِهِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهُ، حَسْبَما ذَكَرَ اللهُ تعالى في كتابهِ العزيزِ، وخصَّ اللهُ نَبِيَّهُ فيهِ بآياتٍ بَيِّناتٍ. فمنها أَنَّهُ — ﷺ — دَخَل مع صاحِبِهِ عَلَى شِقٍّ فيه ثُلُثا شِبْرٍ، وطُولُهُ ذِراعٌ، فلمَّا أَطمأَنَّا فيه أَمَرَ الله العَنْكَبُوتَ فاتخذتْ عليه بَيْتًا، والْحَمامَ فَصَنَعَتْ عليه عُشًّا، وفَرَّخَتْ فيهِ.

فانْتَهى المُشْركُونَ إِليهِ بدليلِ قَصَّاصٍ للأَثَر. فَوَقَف لهم على الغارِ. وقال: «ههُنا انقَطَعَ الأَثَرُ، فإِمَّا صُعِدَ بصاحِبِكم من ههُنا إِلى السماءِ، أَوْ غِيضَ بِهِ في الأَرْضِ».

ورأَوُا العَنْكَبُوتَ ناسِجةً عَلَى فَمِ الغار، والْحَمامَ مُفَرِّخَةً فيهِ. فقالوا: «ما دَخَلَ هنا أَحَدٌ».

فأَخذوا في الانصراف.

وعَلَى مَقْرَبةٍ من هذا الغارِ — في الْجَبلِ بعَينِهِ — عمودٌ مُنْقَطِعٌ من الجبل، قد قامَ شِبْهَ الذِّراعِ المُرْتَفِعَةِ بمقدارِ نِصْفِ القامةِ، وانْبَسَطَ له في أَعْلاهُ شِبْهُ الكَفِّ، خارجًا عن الذِّراعِ كأَنَّهُ القُبَّةُ المَبْسُوطَة بقدرةِ اللهِ، يستَظِلُّ تحتَها نحوُ العشرين رجلًا، وتُسَمَّى: قبةَ «جبريلَ».

الفصل الثامن

طيّبات مَكّة

(١) تِجارَةُ «مَكَّة»

هذه البَلدةُ المُبارَكةُ سَبقَتْ لها ولأَهلِها الدَّعوةُ الخَليليَّةُ الإبراهيمِيَّةُ؛ وذلك أَنَّ الله — عزَّ وجلَّ — يقولُ حاكِيًا عن خَليلِه ﷺ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

فبُرهانُ ذلك فيها ظاهرٌ مُتَّصلٌ إلى يوم القِيامةِ. وذلك أَنَّ أَفئدَةَ الناسِ تَهْوي إليها مِن الأَصقاع النَّائِيَةِ، والأَقطارِ الشَّاحطَةِ.

فالطريقُ إليها مُلتَقَى الصَّادِرِ والواردِ؛ مِمَّن بَلغَتهُ الدَّعوةُ المُبارَكةُ. والثمراتُ تُجبَى إلَيْها من كلِّ مكان، فهي أَكثَرُ البلاد نِعَمًا وفواكِهَ ومنافِعَ ومَرافِق ومتاجرَ. ولو لم يكُن لها من المَتاجر إلا أَوانُ المَوْسِم. ففيهِ مُجتمَعُ أَهلِ المَشرِقِ والمَغرِبِ، فيُباعُ فيها في يومٍ واحد — من الذَّخائرِ النَّفيسةِ، كالْجَوهرِ واليَاقوت وسائرِ الأَحجارِ، ومن أَنواعِ الطِّيبِ، كالمِسْكِ والكافُورِ والعَنْبَرِ والعُود والعقَاقير الهِنديَّةِ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا يُجْلَبُ من الهِنْد والْحبشَةِ، إلى الأَمتِعةِ العِراقيَّةِ واليمانيَّةِ، إلى غيرِ ذلك من السِّلَعِ الْخُرسانيَّةِ والبضَائِعِ المَغْرِبيَّة، إلى ما لا يَنحصِرُ ولا يَنْضَبِطُ — ما لو فُرِّقَ عَلَى البلادِ كلِّها لأَقامَ لها الأَسواقَ النَّافِقَةَ (الرائجَةَ)، ولَعَمَّ جَميعَها بالمَنْفَعةِ التِّجارِيَّةِ. كلُّ ذلك في ثمَانيةِ أَيَّامٍ بعدَ المَوْسِمِ، حاشَى ما يَطرَأُ بها — مع طُولِ الأَيَّامِ — من «اليَمَنِ» وسِواها.

فَما عَلَى الأَرْضِ سِلعةٌ من السِّلعِ ولا ذَخيرةٌ من الذَّخائرِ إلا وهي مَوجودةٌ فيها مُدَّةَ المَوْسِمِ. فهذه مِن الآياتِ التي خَصَّها اللهُ بها.

(٢) فاكِهَة «مَكَّة»

أَمَّا الأَرزاقُ والفَواكهُ وسائرُ الطَّيباتِ، فكُنَّا نظُنُّ أَنَّ الأَندلُسَ اخْتَصَّت من ذلك بحظٍّ له المَزِيَّةُ عَلَى سائرِ حُظوظِ البلادِ، حتى حَلَلْنا بهذه البِلادِ المُبارَكةِ، فأَلْفَيْناها تغَصُّ بالنِّعَم والفواكهِ كالتِّين والعِنَبِ والرُّمَّانِ والسَّفَرْجَلِ والْخوْخِ والأُتْرُجِّ (وَهُو مِنْ جِنْسِ النَّارَنْجِ، واسمه أيضًا: التُّرُنْجُ)، والْجَوزِ والمُقْل (ثَمَرِ شجر الدَّوْمِ) وبالبِطِّيخِ والقِثَّاءِ والْخِيار، إلى جميعِ البُقول كلِّها، كالباذِنجان والكُرنبِ والْجَزَرِ واليَقْطِين (القَرْعِ المُستَدِيرِ) والسَّلْجَمِ (اللِّفْتِ)، إلى غيرِ ذلك من الرَّيَاحِين العَبِقَةِ والمَشْموماتِ العَطِرَةِ. وأكثرُ هذه البُقُولِ كالباذِنجانِ والقِثَّاءِ والبِطِّيخِ، لا يكادُ يَنقطِعُ — مع طُولِ العامِ — وذلك من عَجيبِ ما شاهَدناه ممّا يَطُولُ تَعدادهُ وذِكْرُه. ولكلِّ نَوْع — من هذه الأنواعِ — فَضيلةٌ مَوجودَةٌ في حاسَّةِ الذَّوْقِ، يَفْضُلُ بها نوعَها المَوجودَ في سائرِ البِلادِ، فالعَجَبُ من ذلك يَطولُ.

ومن أعجب ما اخْتَبَرْناه من فواكِهِها البِطِّيخُ والسَّفَرْجَلُ.

(٣) بِطِّيخ «مكة»

وكلُّ فواكِهِها عَجَبٌ، لكنْ للبِطِّيخِ فيها خاصَّةٌ من الفَضْلِ عجيبةٌ، وذلك لأَن رائحتَهُ من أَعْطَرِ الرَّوائحِ وأَطيَبِها، يَدْخُلُ بِهِ الداخِلُ عليكَ فتجدُ رائحتَهُ العَبِقَةَ قد سَبَقَتْ إِليكَ، فيكادُ يَشْغلُكَ الاسْتِمْتَاعُ بِطيبِ رَيَّاهُ، عن أَكْلِكَ إِيَّاهُ. حتى إذا ذُقْتَه خُيِّلَ إِليكَ أَنهُ شِيبَ بِسُكَّرٍ مُذابٍ، أو بِجَنَى النَّحْلِ الُّلبابِ (الشَّهْدِ، أي: العَسَلِ الخالِصِ).

وَلعلَّ مُتَصَفِّحَ هذه الأَحرفِ يَظنُّ أَنَّ في الوصفِ بعضَ الغُلُوِّ. كلاَّ لَعَمْرُ اللهِ. إنهُ لأَكْثَرُ مِمّا وَصفْتُ، وفوْقَ ما قُلْتُ.

(٤) لذائذ الأطعمة

وبها عَسَلٌ أَطيَبُ من العَسَل المَاذيِّ، المَضْروبِ بِهِ المَثَلُ، يُعْرَف عندهُم بالمَسْعودِيِّ. وأَنواعُ اللبَنِ بها في نهايةٍ من الطِّيب. وكلُّ ما يُصْنَعُ منها من السَّمْنِ، فإِنهُ لا تكادُ تُمَيِّزُهُ من العَسَل طِيبًا ولَذاذَةً.

ويَجْلُبُ إليها قومٌ من اليمنِ يُسَمَّوْنَ «السَّرْوَ» نوْعًا من الزَّبيبِ الأَسْوَدِ والأَحمرِ في نِهاية الطِّيبِ، وَيجلُبونَ معهُ من اللَّوْزِ كَثيرًا. وبها قَصَبُ السُّكَّرِ أَيضًا كثيرٌ، يُجْلَبُ من حيْثُ تُجْلَبُ البُقولُ التي ذكَرْناها. والسكَّرُ بها كَثيرٌ مجلوبٌ، وَسائرُ النِّعَمِ والطيِّباتِ من الرِّزْق، والحمدُ للهِ. وأَمَّا الحلْوَى فيُصْنَعُ منها أَنواعٌ غَريبةٌ من العَسَلِ والسكَّرِ المَعقودِ عَلَى صِفاتٍ شتَّى، وإنهم يَصْنعون بها حِكاياتِ جميعِ الفواكهِ الرَّطبةِ واليابسةِ (أَيْ أَنَّهُمْ يعْملون حَلْواءَ على هَيْئةِ التِّينِ والعِنَب والرُّمَّان وغيرِها من الفاكِهَةِ). وفي الأَشهرِ الثَّلاثةِ: رَجَبٍ وَشعبانَ ورمضانَ، يتصِلُ منها أَسمِطةٌ بين الصَّفا والمَرْوَةِ. ولم يُشاهِدْ أَحدٌ أَكملَ مَنْظَرًا منها لا في «مصر» ولا في سِواها. قد صُوِّرَتْ منها تصاويرُ إنسانيةٌ وفاكِهيَّةٌ، وجُلِيَت في مِنَصَّاتٍ كأَنها العَرائِسُ، ونُضِّدَت بسائرِ أنواعها المُنَضَّدةِ المُلَوَّنَةِ، فتلوحُ كأَنها الأَزاهِرُ حُسْنًا، فتُقَيِّدُ الأَبصارَ، وَتَسْتَنْزِلُ الدِّرْهَمَ والدِّينارَ.

(٥) لُحومُ الضَّأْنِ

وَأما لُحومُ ضَأْنِها فهناك العجبُ العجيبُ، قد وَقَع القَطْعُ والجَزْمُ — من كلِّ سائحٍ تطَوَّف عَلَى الآفاقِ، وَضرب نواحيَ الأَقْطارِ — أنها أطْيبُ لَحْمٍ يُؤْكَلُ في الدنيا. وما ذاكَ — والله أَعْلَمُ — إلاَّ لِبَركةِ مَراعيها، هذا عَلَى إفراطِ سِمَنِهِ. وَلوْ كان سِواهُ من لُحُومِ البلادِ يَنْتَهي ذلك المُنْتَهى في السِّمَن، لَلَفظتْهُ الأَفْواهُ وَعافَتْهُ وتجنَّبَتْهُ. والأَمرُ في هذا بالضِّدِّ: كلما ازداد سِمَنًا زادتِ النفوسُ فيهِ رغبةً وقَبولًا. فتَجِدُه هَنيئًا رَخْصًا (ليِّنًا طَرِيًّا) يذوبُ في الفَم قبل أن يُلاكَ مَضْغًا، ويُسْرِعُ — لِخِفَّتِهِ — في المَعِدَةِ انضهامًا. وما أَرى ذلك إلا من الخواصِّ الغريبةِ. وبَركةُ البلدِ الأَمينِ قد تكلفتْ بِطيبِه. واللهُ يَجْعَلُ فيهِ رِزْقًا لِمَنْ تَشَوَّقَ بَلْدَتَه الحرامَ، وتمَنَّى هذه المَشاهِدَ العِظامَ، والمَناسِكَ الكِرامَ.

(٦) مَوْطِنُ الفاكهة

وهذه الفواكهُ تُجْلَبُ إليها من الطَّائِفِ، وهي على مَسِيرَةِ ثلاثَةِ أَيامٍ مِنها — على الرِّفْقِ والتُّؤَدَةِ — كَما تُجْلَبُ من قُرًى حَوْلها. وأَقْربُ هذه المَواضعِ هُو من «مَكَّة» على مَسِيرَةِ يَوْمٍ — أَو أزيدَ قَليلًا — وهُو مِنْ بَطْنِ «الطَّائِف»، ويَحْتَوِي قُرًى كثِيرةً، ومِنْ «بَطْن مَرٍّ»

(وَيُقالُ لَهُ: مَرُّ الظَّهْرانِ)، وهو على مسيرة يومٍ أَو أَقلَّ. ومن «نَخْلَةَ»، وهي على مِثْلِ هذه المَسافَةِ، ومن أَوْديةٍ بقربٍ منَ البلدِ، كـ«عَيْنِ سُليمانَ» وسِواها، قد جَلَبَ اللهُ إِليها مِنَ المَغاربَةِ — ذَوِي البَصارَةِ بالفِلاحَةِ والزِّراعةِ — فأَحدثُوا فيها بَساتينَ وَمَزارعَ، فكانوا أَحدَ الأَسْبابِ في خَصْبِ هذه الجِهاتِ، وذلك بِفَضْل الله وكرِيمِ اعْتِنائِه بِحَرمِهِ الكَرِيمِ، وبلَدِه الأَمِينِ.

(٧) الرُّطَبُ

والرُّطَبُ مِنْ أَغربِ ما أَلَفَيْناهُ، فاسْتَمْتَعْنا بأَكْلِه، وأَجْرَيْنا الحَديثَ باستِطَابتِه، ولا سِيَّما لأَنَّنا لَمْ نَعهدْهُ. وهو عندَهم بِمَنزلةِ التِّينِ الأَخْضَرِ في شَجَرِه، يُجْنَى ويُؤْكَلُ. وهو في نِهايَةٍ من الطِّيبِ واللَّذاذَةِ، لا يُسْأَمُ التَّفَكُّهُ به. وإِبَّانُه عِندَهُمْ عظيمٌ. يخرجُ الناسُ إِليهِ كخُروجهم إِلى الضَّيْعَةِ (الأَرْضِ المَزْرُوعة) أَو كخروجِ أَهلِ المَغربِ لقُراهم أَيَّامَ نُضْج التِّينِ والعِنَبِ. وعِنْدَ تَناهِي نُضْجِهِ يُبْسَطُ على الأَرضِ — قَدْرَ ما يَجِفُّ قَلِيلًا — ثُمَّ يُرْكَمُ بَعْضُه على بَعْض في السِّلالِ والظروفِ ويُرْفَعُ.

(٨) ظِلُّ الأَمن

ومنْ صُنْعِ اللهِ الجَميلِ لَنا، وفَضْلِهِ العَمِيمِ علَينا، أَنَّا وَصَلْنا إِلى هذه البَلْدَةِ المُكَرَّمةِ، فأَلْفَيْنا كلَّ مَنْ بها من الحُجَّاجِ المُجاوِرِينَ، ممَّن قَدُمَ عهدُه فيها، وطال مُقامُه بها، يَتحدَّثُ مُعْجَبًا بأَمْنِها من الحَرَّابةِ المُتَلَصِّصين فيها على الحاجِّ، المُختَلِسِينَ ما بأَيْدِيهِمْ، والذِينَ كانُوا آفَةَ الحَرَمِ الشَّرِيفِ، لا يَغْفُلُ أَحدٌ عن مَتاعهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ إِلا اخْتُلِسَ من يَدَيْه، أَوْ مِنْ وَسَطِه، بِحِيل عجيبَةٍ، ولطَافةٍ غريبة. فما منْهُم إِلاَّ أَحَذُّ يَدِ القَمِيصِ (خَفِيفُ اليَدِ، بارِعٌ في السَّرِقَةِ). فكفَى الله هذا العامَ شَرَّهم — إِلاَّ القَلِيلَ — وأَظهرَ أَميرُ البلدِ التَّشْديد عليهم، فتوَقَّفَ شَرُّهُم.

(٩) اعْتِدالُ الجوِّ

ونَعِمْنا بطيب هوائِها في هذا العامِ وفُتورِ حَمَارَّةِ قَيْظِها (شِدَّةِ حَرِّها) المَعهودِ فيها وانكسارِ حِدَّةِ سَمومها (رِيحها الحارَّة).

وكُنَّا نَبِيتُ في سطحِ المَوضعِ الذي كنا نسكُنه، فربَّما يُصيبنا من بردِ هواءِ الليلِ ما نَحْتاجُ معه إِلى دِثارٍ يَقِينا منه، وذلك أَمرٌ مُسْتَغْرَبٌ بـ«مَكَّةَ».

(١٠) وفرة الرخاءِ

وكانُوا أَيْضًا يتحدَّثُونَ بِكَثْرةِ نِعَمِها في هذا العامِ، وَلِينِ سِعْرِها، وأَنها خارقةٌ للعوائد السالفةِ عِندهم. وهذا في بلَد لا ضَيْعَة فيه (لَيْس فيه أَرْضٌ مزْرُوعة)، ولا قِوامَ معيشةٍ لأَهلِهِ إلاَّ بالأَطْعِمةِ التي تُجْلَبُ إِليه من البِلاَدِ الأُخْرى. وهو أَمرٌ لا خَفاءَ بِيُمْنِه وبَرَكَتِهِ، على كثرةِ المُجاورينَ فيها في هذا العامِ، وانجلابِ الناسِ إِليْها، وتَوافُدِهِمْ عليْها.

فحدَّثَنا غَيْرُ واحد منَ المُجاوِرِينَ — الَّذِينَ لهُمْ بها سِنُونَ طائلةً — أَنَّهُمْ لم يَرَوْا هذا الجمعَ بها قَطُّ، ولا سُمِعَ بِمِثْلِهِ فيها.

(١١) ماءُ «زَمْزَمَ»

وما زالَ الناسُ فيها يُسَلْسِلُونَ أوصافَ أَحوالِها في هذه السنةِ وتَمْيِيزها عَمَّا سَلَف من السِّنِينَ، حتى تَغَالَوْا فَزَعَمُوا أَنَّ ماءَ «زَمْزَمَ» قد زاد عُذُوبةً. وهذا الماءُ عَجِيبٌ في أَمرِهِ، وذلك أَنَّكَ تَشْرَبه — حين يَخْرُجُ من قَرارَتِهِ — فتَجِدُهُ في حاسَّةِ الذَّوْق كالَّلبَنِ عند خروجه دَفيئًا من الضَّرْعِ. وتلك فيهِ من اللهِ آيَة وعِنايَةٌ. أَرْوَى اللهُ منهُ كلَّ ظَامِيٍ إِليهِ.

ومن الأُمورِ المُجَرَّبةِ أَنَّ الإِنسانَ رُبَّما وَجَدَ مَسَّ الإِعْياءِ وفُتُورَ الأَعضاءِ، إِمَّا مِن كَثْرَةِ الطَّوافِ، أَوْ من عُمْرَةٍ يَعْتَمِرُها عَلَى قَدَمَيْهِ، أَوْ من غيرِ ذلك من الأَسبابِ المُؤَدِّيَةِ إلى تَعَبِ البَدَنِ، فيَصُبُّ من ذلك الماءِ علَى بَدَنِهِ، فيَجِدُ الرَّاحةَ والنَّشاطَ لِحِينهِ، ويذْهَبُ عنه ما كان أَصابَهُ.

الفصل التاسع

عاداتٌ وتقاليد

(١) في أَوائل الشهور

استهلَّ هلالُ شهر جُمادَى الآخِرَةِ ليلَةَ الأَرْبعاءِ، ونحن بالحَرَم المُقدَّس. وفي صَبِيحتِها وافَى الأميرُ «مُكْثِرٌ» بأَتْباعِهِ وأَشياعِهِ عَلَى عادَتِهِ في أَوَّلِ الشَّهْرِ، وعَلَى ذلك الرَّسْمِ بِعَيْنِهِ، والزَّمْزَمِيُّ المغَرَّدُ بِثَنائِهِ والدُّعاءِ له — فوقَ قُبَّةِ «زمزم» — يَرْفَعُ صَوْتَهُ بالدُّعاءِ والثَّناءِ، عندَ كلِّ شَوْطٍ يَطُوفُهُ الأَميرُ — والقُرَّاءُ أَمامَهُ — إلى أن فَرَغَ من طَوافِه، وأَخَذَ في طريقِ انْصِرافِهِ.

ولأَهْلِ هذه الْجهاتِ المَشْرِقيَّةِ كلِّها سِيرَةٌ حَسَنَةٌ — عِنْدَ مُسْتَهَلِّ كلِّ شَهْرٍ من شُهُور الْعامِ — يَتَصافَحُونَ، ويهنئُ بعضُهمْ بعضًا، ويَتَغافَرُونَ، ويدعو بعضُهم لبعض — كفِعلهمْ في الأَعْيادِ — هكذا دائِمًا. وتلك طريقةٌ منَ الخَيْرِ، تُجَدِّدُ في النفوس الإِخْلاصَ، وتَسْتَمِدُّ الرحمةَ من اللهِ بِمُصافَحَةِ المُؤْمنين: بَعْضِهمْ بَعْضًا، وبرَكةِ ما ينَهادَوْنَهُ مِنَ الدُّعاءِ؛ والجَماعَةُ رَحْمَةٌ، ودعاؤُهُمْ — من اللهِ — بِمَكان.

(٢) الوزيرُ «جمالُ الدين»

ولهذِهِ البَلْدَةِ حَمَّامانِ: أَحَدُهما يُنْسَبُ لأَحَدِ الأَشْياخِ بالحَرَمِ والثاني وهو الأَكْبَرُ يُنْسَبُ لـ«جمالِ الدِّينِ»، وكان هذا الرجلُ عَلَى مِثل صِفَتِهِ، أَعني: «جمالَ الدينِ».

وله بـ«مَكَّةَ» و«المَدِينَةِ» من الآثار الكَريمَةِ، والصَّنائِعِ الحَمِيدةِ والمَصانِعِ المَبنيَّةِ، ما لم يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِليهِ فيما سَلَفَ من الزمانِ.

وكان وزيرَ صاحبِ المَوْصِلِ، تَمادَى عَلَى هذه المَقاصدِ السَّنِيَّةِ، المُشْتَمِلَةِ عَلَى المَنافعِ العامَّةِ للْمُسْلمينَ، في حَرَمِ اللهِ وحَرَمِ رَسولِه، أكثَرَ من خَمْسَ عشْرَةَ سنةً، لم يَزَلْ فيها باذِلًا أموالًا لا تُحصَى في بناءِ رباعٍ (مَنازِلَ) بمَكةَ، مُسبَّلَةٍ (مَجْعُولةٍ في سبيل الله) في طُرُقِ الخَيرِ والبِرِّ، مُؤَبَّدَةٍ مُحَبَّسَة (مَوقُوفةٍ دائمًا أَبَدًا) واخْتِطاطِ صَهاريجَ للمَاءِ، ووَضْعِ جِباب (حُفَرٍ) في الطُّرُقِ؛ يَسْتقِرُّ في كلِّ جُبٍّ (حُفْرَةٍ) منها ماءُ المَطَر، إلى تَجديدِ آثارٍ من البِناءِ في الحَرَمْيْنِ الكَريمَيْنِ.

وكان من أَشرَفِ أَفعاله أنْ جَلَبَ الماءَ إلى «عَرَفاتٍ»، وعاهَد جماعَةَ العَربِ من سُكانِ تلك النَّواحي المَجْلُوبِ منها الماءُ، عَلَى أن يَمْنَحَهُم وظيفَةً كَبيرةً (مالًا مُرَتَّبًا) عَلَى ألاَّ يَقطَعُوا الماءَ عن الحاجِّ.

فلمَّا تُوُفِّيَ الرَّجلُ، عادُوا إلى عادَتِهم الذَّميمَةِ من قَطْعِهِ.

ومن مَفاخِرِهِ ومناقِبِهِ أَنهُ جَعلَ مَدينَةَ الرَّسولِ ﷺ تحتَ سُورَينِ عتِيقَينِ، أنفَقَ فيهِما أَموالًا لا تُحصى كَثرةً.

(٣) تابوتُ الوزير

ومن أَعجبِ ما وَفَّقَه الله إليهِ أَنهُ جَدَّد أَبوابَ الحرَمِ كلَّها وجدَّد بابَ «الكَعبةِ» المُقَدَّسةِ، وغَشَّاه فِضَّةً مُذَهَّبةً، وهو الذي فيها الآنَ، وجلَّلَ العَتَبَةَ المُبارَكةَ بلَوْحِ ذَهَبٍ إِبْريزٍ. وأَخَذَا البابَ القديمَ، وأَمَر بأنْ يُصنَعَ له منه تابوتٌ يُدْفَنُ فيهِ.

فلَما حانَتِ الوَفاةُ، أَوْصى بأَنْ يُوضَعَ في ذلك التَّابوتِ، ويُحَجُّ بهِ ميِّتًا. فسِيقَ إلى عرَفاتٍ وقُضِيَتْ له المَناسِكُ كلُّها، وكان الرَّجلُ — رحِمَهُ اللهُ — لم يَحُجَّ في حَياتِهِ. ثمَّ حُمِلَ إلى مدينةِ الرَّسولِ ﷺ، وبُنِيَتْ له رَوْضَةٌ بإزاءِ روْضَةِ المُصطفَى ﷺ، وفُتح فيها مَوضِعٌ يلاحِظُ الرَّوْضَة المُقَدَّسَةَ، وأُبيحَ له ذلك — عَلَى شِدَّةِ الضَّنانَةِ بِمِثْله — لسابقِ أفعالِه الكريمَةِ، ودُفِن في تلك الرَّوْضَةِ، وأَسعَدَه اللهُ بالجوارِ الكَريمِ، وخصَّهُ بالمُواراةِ (الدَّفْنِ) في تُرْبةِ التَّقْديسِ والتَّعظيمِ، واللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ.

(٤) كرَمُ الوزير

وكان من الآثارِ السَّنِيَّةِ لهذا الرَّجُلِ، أَنهُ عُنِيَ بإِصْلاحِ كثيرٍ من طُرُقِ المُسلمين بجهةِ المَشرق، من العِراقِ، إِلى الشَّامِ إلى الحِجازِ. واسْتَنْبَطَ المِياهَ، وبَنَى الجِبابَ، واخْتَطَّ المَنازِلَ في المَفازاتِ(البِقَاعِ المُقْفِرةِ لا ماءَ فيها)، وأَمرَ بعِمارَتِها مأْوًى لأَبْناءِ السبيلِ، وكَافَّةِ المُسافِرينَ. وابْتَنَى — بالْمُدُنِ المُتَّصِلة من العراقِ إلى الشَّامِ — فنادِقَ عيَّنَها لنزول الفُقَراءِ أَبناءِ السَّبيل الذين يضْعُفُ أَحدُهم عن تَأْدِيةِ الأَكْرِيَةِ (الأُجُورِ). وأَجْرَى عَلَى القائمينَ عَلَى تلك الفنادِقِ والمَنازِل ما يقُومُ بِمَعِيشَتِهم، وَعَيَّنَ لهم ذلك في وُجوهٍ وُقِفَتْ عليهم وتأَبَّدَت لهم (أَصْبَحَتْ لهم إلى الأبد).

فبقيَتْ تلك الرُّسومُ الكريمَةُ ثابتةً علَى حالها إِلى الآن. فسارتْ بجميلِ ذكْرِ هذا الرَّجلِ الرِّفاقُ. وكان مُدَّةَ حياتِه بـ«المَوْصِلِ» قدِ اتَّخذَ دارَ كَرامةٍ، واسعةَ الفِناءِ، فَسِيحةَ الأَرْجاءِ، يدعو إِليْها — كلَّ يومٍ — الجَفَلَى من الغُرَباءِ (يَدْعوهُم إِليْها دَعْوَةً عامَّةً) فيعُمُّهمْ شِبَعًا وريًّا، وَيَرِدُ الصَّادِرُ والوارِدُ من أَبناءِ السبيل — في ظِلِّهِ — عَيْشًا هنيًّا.

وَماتَ حميدًا سَعيدًا، والذِّكْرُ الجميلُ للسُّعَداءِ حياةٌ باقيةٌ، وَمدَّة من العُمْرِ ثانيةٌ، واللهُ الكفيلُ بجزاءِ المُحْسنين إلى عِبادِهِ.

(٥) الإِصلاح في الحرمِ

ومنَ الأُمورِ الغَريبة المُتَّبَعةِ بهذه الحرَمِ الشريفِ أَنَّ النفقةَ فيهِ مَمْنوعَةٌ، لا يجدُ المُتَأَجِّرُ (طالِبُ الأَجْرِ والثَّواب) — من ذَوِي اليسار — إِليْها سَبيلًا، وَلا يُؤْذَنُ لهُ بتَجْديدِ بناءٍ، أَو إِقامَةِ جِدارٍ، أَو غيرِ ذلكَ مِمَّا يَخْتَصُّ بالحرَمِ المُبَارَك.

وَلوْ كان الأَمرُ مُباحًا في ذلكَ، لَجَعَلَ الرَّاغِبونَ في نَفَقاتِ الْبرِّ من أَهل الْجِدَةِ واليَسارِ — حِيطانَه عَسْجدًا، وتُرابَه عَنْبرًا.

لكنَّهم لا يجدون السبيلَ إلى ذلك. فمَتى ذهبَ أَحدُ أَرْباب الدُّنْيا إلى تَجْديدِ أَثرٍ من آثاره، أَو إِقامَةِ رسمٍ كريمٍ منْ رُسومِه، أَخذَ إِذْنَ الخَليفَةِ في ذلك. فإِن كان الأَثَرُ مِمَّا يُنقَشُ علَيْهِ، أَو يُرسَمُ فِيهِ، طُرِّزَ باسْمِ الخَليفَةِ، ونُفُوذِ أَمْرِهِ بِعَمَلِه، ولم يُذْكَرِ اسْمُ المُتَوَلِّي

لِذلك. ولابُدَّ — مع هذا — من بَذْلِ حَظٍّ وافرٍ من النَّفَقَةِ لأَميرِ البلَدِ، رُبَّما يُوازِى قَدْرَ المَنْفُوقِ فيهِ، فَتَتَضاعفُ المُؤْنَةُ على صاحِبِه، وحينئذ يصِلُ إلى غَرضِهِ من ذلك.

(٦) حِيلةُ العجَميِّ

وَمنْ أَغْرَبِ ما اتَّفَقَ لأَحدِ دُهاةِ الأَعاجِمِ — ذَوِي المُلْكِ والثَّراءِ — أَنَّهُ وَصَلَ إلى الحَرمِ الكريمِ، في العَهْدِ الَّذي وَلِيَ فيه الأَمْرَ جَدُّ الأَمير «مُكْثرٍ»، فرأَى العَجَمِيُّ تَنُّورَ بئرِ «زَمْزَمَ» (فَمَها) وقُبَّتَها على صِفَةٍ لم يَرْضَها. فاجْتَمع بالأَميرِ، وقال: «أُريدُ أَنْ أَتَأَنَّقَ في بناءِ تَنُّورِ «زمزم» وطَيِّهِ (بنائه بالحِجارة) وتجديدِ قُبَّتِهِ، وأَبْلُغَ في ذلك الغايَةَ المُمْكِنةَ، وأُنْفِقَ فيهِ منْ صَمِيمِ مالي. ولك عَلَيَّ في ذلك شَرْطٌ أَبْلُغُ — بالْتِزامِه لك — غَرَضَ المَقْصُودِ، وهو أَنْ تَجْعلَ ثِقَةً من قِبَلِكَ يُقَيِّدُ مَبْلَغَ النَّفَقَةِ في ذلك، حتى يَسْتَوْفِيَ البناءُ التَّمامَ، وتَبلُغَ النفقةُ مُنْتهاها. ومَتَى أَحْصَيتَها بذَلْتُ لك مِثْلَها، جزاءً على ما يَسَّرْتَهُ لي من سُبُلِ الإِصلاحِ».

فاهْتَزَّ الأَميرُ طَمَعًا، وعلِم أَنَّ النَّفَقَةَ — في ذلك — تنْتَهِي إلى آلاف من الدَّنانِيرِ، فأَباحَ له ذلك، وأَلْزَمَهُ مُقَيِّدًا يُحْصِي قلِيلَ الإِنْفاقِ وكَثيرَه. وَشرع العَجَمِيُّ في بِنائِه، واحتَفلَ وبذَلَ كُلَّ ما في وُسْعِهِ في التَّأَنُّقِ، فِعلَ مَنْ يَقصِدُ بفِعْلِهِ ذاتَ اللهِ — عزَّ وجَلَّ — ويُقرِضُهُ قرْضًا حَسنًا. وكان المُقَيَّدُ يُسَوِّدُ طَوامِيرَهُ (صَحائِفَهُ)، والأَميرُ يَتَطلَّعُ إلى ما لَدَيْهِ، ويُؤَمِّلُ لِقَبْضِ تلك النفقاتِ الواسعةِ، إلى أَنْ فَرَغَ البِناءُ.

فلمَّا لم يَبْقَ إلا أَنْ يُصَبِّحَ الأَمِيرُ صاحِبَ النَّفَقَةِ بالْحِسابِ، ويَسْتَقْضِيَ منهُ العَدَدَ المُجْتَمِعَ فيها، هرَب العَجَمِيُّ، وخلا منهُ المَكانُ، وركِبَ اللَّيلَ جَملًا، وأَصبحَ الأَميرُ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ نَدَمًا، ويضربُ صَدْرَهُ حَسْرَةً وأَلَمًا.

ولم يُمْكِنْهُ أَنْ يُحْدِثَ في بِناءٍ — وُضِعَ في حَرمِ اللهِ تعالى — حادِثًا يُحِيلُهُ، أو نقصًا يُزيلُهُ.

وفازَ الرجلُ بثوابِهِ، وتكفَّلَ الله بِه في انْقِلابِه، وتحسينِ مآبِه، ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وبقِيَ خَبَرُ هذا الرَّجُلِ مَعَ الأَميرِ يُتَهادَى غرابَةً وعَجَبًا (يُهْدِيه بَعْضُ النَّاس إلى بَعْضٍ لغَرابتِهِ الَّتي تدعو إلى العَجِبِ)، ويَدْعو له كلُّ شاربٍ من ذلكَ الماءِ المُبارَكِ.

(٧) المَوْسِمُ الرَّجبيُّ

اسْتَهَلَّ هلالُ رَجَبٍ، ليلةَ الخميسِ المُوَفِّي عِشْرِينَ لشهرِ أُكْتُوبَرَ بشَهادةِ خَلْق كَثِيرٍ من الحُجَّاجِ المُجاوِرِينَ.

والأَشْرافُ أَهلُ مكة ذكروا أَنهم رأَوْهُ بِطَرِيقِ العُمْرَةِ، ومن جَبَل «قُعَيْقِعانَ» وجبلِ «أَبي قُبَيْسٍ»؛ فَثَبَتَتْ شهادتُهم بذلك عند الأَميرِ والقاضِي. وأَمّا مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ فلَمْ يُبْصِرْهُ أَحَدٌ. وهذا الشَّهْرُ المُبارَكُ — عندَ أَهْلِ «مكةَ» — مَوْسِمٌ من المَواسم المُعَظَّمَةِ، وهو أَكْبرُ أَعْيادِهِم. ولم يزالوا على ذلك — قديمًا وحديثًا — يَتَوارَثُه خَلَفٌ عن سَلَفٍ، مُتَّصِلًا ميراثُ ذلك إِلى الجاهِليَّةِ.

وهو أَحدُ الأَشْهُرِ الحُرُمِ، وكانوا يُحَرِّمون القِتالَ فيه.

(٨) العُمْرة الرجبِيَّة

والعمرةُ الرَّجبِيَّةُ عندهم أُختُ الوَقفَةِ العَرَفيَّةِ، لأَنهم يَحتَفلون لها الاحتِفالَ الذي لم يُسمَعْ بمِثلِه. ويُبادِرُ إِليها أَهلُ الْجِهاتِ المُتَّصِلَة بها، فيجتَمعُ لها خَلقٌ عظيمٌ لا يُحْصِيهم إلا اللهُ.

فَمن لا يُشاهِدْها بـ«مَكَّةَ» لم يُشاهِدْ مَرأًى يُستَهدَى ذكْرُه غَرابةً وعَجَبًا. شَاهَدْنا من ذلك أَمْرًا يَعجِزُ الوصْفُ عنهُ. والمقصُودُ منهُ اللَّيلَةُ التي يَستهِلُّ فيها الهِلالُ مع صبيحَتِها، ويَقَعُ الاستِعدادُ لها من قبْل ذلك بأَيَّامٍ. فأَبْصَرْنا من ذلك ما نَصِفُ بعْضَهُ — عَلَى جِهةِ الاختِصارِ — وذلك لأَنَّا عايَنَّا شَوارعَ «مكةَ» وأَزِقَّتَها، من عَصْرِ يوْمِ الأَرْبعاءِ — وهي العَشِيَّةُ التي ارْتُقِبَ فيها الهِلالُ — قد امتَلأَتْ هَوادجَ، مَشْدودةً عَلَى الإِبلِ، مكْسُوَّةً بأَنواعِ كِساءِ الحريرِ وغيرِها — من ثِيابِ الكَتَّانِ الرَّفِيعةِ — بِحسَبِ سَعَةِ أحوالِ أصحابها ووَفْرِهِم (غِناهُم)، كلٌّ يتأَنَّقُ ويَحتَفِلُ بقَدرِ اسْتطاعَتِهِ. فأَخَذُوا في الخُروجِ إِلى التَّنعِيمِ — مِيقاتِ المُعتَمرِينَ — فسالَتْ تلك الهَوادجُ في أَباطِح «مكةَ» (أَوْدِيتِها) وشعابِها، والإِبلُ قد زُيِّنَتْ تَحتَها بأَنواعِ التَّزْيينِ، وأُشعِرَتْ (وُضِعَ لها شِعارٌ) بغيرِ هَدْيٍ (دُون أن تكُونَ مُهْداةً إِلى الْحَرَمِ)، بقلائدَ رائقَة المَنظَرِ من الحريرِ وغيرِه. ورُبَّما فاضَتِ الأَستارُ التي عَلَى الهَوادجِ، حتى تَسْحَبَ أَذيالَها عَلَى الأَرْضِ.

(٩) بنتُ عمَّة الأَميرِ

ومن أَغرَبِ ما شاهَدْناهُ من ذلك هَوْدَجُ الشَّرِيفَةِ «جُمانَةَ»: بنتِ عمَّةِ الأَمِيرِ «مُكْثِرٍ»؛ فإنَّ أذيالَ سِتْرِهِ كانت تنْسَحِبُ عَلَى الأَرْضِ انْسِحابًا. وغيرُه من هوادجَ حرمِ الأميرِ، وحرمِ قُوَّادِهِ، إلى غيرِ ذلك من هوادجَ لم نَسْتَطِعْ تَقْيِيد عِدَّتِها، عَجزًا عن الإِحْصاءِ.

فكانت تَلوحُ على ظهورِ الإِبِلِ كالقِبابِ المَضْروبَةِ، فيخَيَّل للناظرِ إليْها أنها مَحَلَّةٌ قد ضُربت أَبنيتُها من كل لوْن رائقٍ. ولم يَبْقَ — ليلةَ الخميسِ هذه — بـ«مَكَّةَ»، إلا منَ خَرَجَ للعُمْرَةِ من أهْلِها، ومنَ المجاورينَ. وكُنّا في جُمْلَةِ مَنْ خَرَجَ، فكدْنا لا نتَخَلَّصُ إلى مَسْجِدِ «عائِشَةَ» من الزِّحامِ، وانْسِدادِ ثَنِيَّاتِ الطَّرِيقِ بالهَوادجِ. والنِّيرانُ قد أُشْعِلَت بِحافَتَي الطَّريقِ كُلِّه، والشَّمَعُ يَتَّقِدُ بينَ أَيْدِي الإِبِلِ التي عليْها هوادِجُ من يُشارُ إليهِ من عَقائلِ نِساءِ «مكَّةَ» فلمَّا قَضَيْنا العُمْرَةَ وَطُفْنا، وَجِئْنا للسَّعْيِ بين الصَّفا والمَرْوَةِ — وَقد مَضَى هَدْءٌ (جانب) من اللَّيْلِ — أَبْصَرْناهُ كُلَّهُ سُرُجًا (مَصابِيحَ) ونِيرانًا. وقَدْ غَصَّ بالسَّاعينَ والسَّاعِياتِ عَلَى هَوادهنَّ. فكُنَّا لا نَتَخَلَّصُ إلا بينَ هَوادِجِهنَّ وبينَ قوائمِ الإِبلِ، لِكثْرَةِ الزِّحام واصْطكاك الهَوادج — بَعْضِها عَلَى بَعْضٍ — فعايَنَّا ليلةً هي مِنْ أغْرَبِ ليالِي الدُّنْيا.

فمنْ لم يُعاينْ ذلك لم يُعاينْ عَجبًا يُحَدِّثُ به، ولا عَجَبًا يُذَكِّرُهُ مَرْأَى الحشْرِ يوْمَ القيامةِ، لكَثْرَةِ الخلائقِ فيهِ، مُحرمِين، مُلَبِّين، داعِين إلى اللهِ ضارِعينَ. والجبالُ المُكَرَّمةُ التي بِحافتَي الطَّرِيقِ تُجيبُهُم بِصداها، حتى اسْتَكَّتِ المسامعُ (أُصِيبَتْ بالصَّمَمِ)، وسُكِبَتْ — مِن هَوْلِ تلكَ المُعايِنَةِ — المَدامعُ، وَذابَتِ القلوبُ الخواشعُ. وفي تلكَ اللَيْلَةِ مُلِئَ المَسجِدُ الحرامُ كُلُّه سُرُجًا، فَتَلأْلأَ نُورًا.

(١٠) مِهْرَجانُ الرُّؤْيَةِ

وَعنْدَ ثُبوتِ رُؤْيةِ الهِلالِ — عنْدَ الأَميرِ — أَمرَ بضَرْب البُوقاتِ والدَّبادِب (الطُّبولِ)، إِشْعارً بأَنَّها ليلَةُ المَوْسِم.

فلَمَّا كانَتْ صَبيحةُ ليلَةِ الخميسِ، خَرَجَ إلى العُمْرة في احْتِفالٍ لم يُسْمَعْ بِمِثْلِه، انْحَشَدَ له أهلُ «مكةَ» علَى بَكْرَةِ أَبيهِمْ، فخَرَجوا — عَلَى أَقْدارِهم وَمراتبِهِمْ — قبيلةً قبيلَةً،

وَحارَةً حارَةً، شاكِينَ الأَسْلِحَةَ (حامِلينَ لَها) فُرْسانًا ورجَّالَةً (راكِبينَ للأَفراسِ ومُشاةً). فاجْتَمَعَ منهم عددٌ لا يُحْصَى كثرةً، يَتَعَجَّبُ المُعاينُ لهُمْ لِوُفورِ عَددهم، فلَو أَنهم من بلاد جَمَّة لكانوا عَجبًا، فكيْفَ وَهُمْ من بلَدٍ واحدٍ. وكانوا يَخْرُجون عَلَى تَرْتيب عَجيب، والرَّجَّالَةُ يَتَواثَبون، ويَتثاقَفُون (يتضارَبُون) بالأَسْلِحَةِ في أَيْدِيهم: حِرابًا وسُيوفًا وحَجَفًا (والْحَجَف: قِطَعٌ مِن جُلودٍ بلا خَشَب وَلا حَبْل، يُتَّقَى بها مِنَ السُّيُوف). وَهُمْ يُظْهرُونَ التَّطاعُنَ بَعْضُهم لبَعْض، والتَّضارُب بالسُّيوفِ، والمُدافعةَ بالحَجَفِ التي هي لهم مِجَنٌّ (وِقايَةٌ) يَسْتَجِنُّونَ به (يَتَّقون). وأَظْهَرُوا من الحِذْقِ بالثِّقافِ والجِلادِ (المُلاعَبَةِ بالأسلحة والسيوف) كُلَّ أَمرٍ مُسْتَغْربٍ.

(١١) موكِبُ الأَمير

وكانوا يَرْمونَ بالحِرابِ إلى الهواءِ، ويُبادِرونَ إليْها لَقْفًا بأَيْدِيهِمْ — وهيَ قد تَصَوَّبَتْ أَسِنَّتُها على رُءوسِهِمْ — وَهُمْ في زِحام لا يُمْكِنُ فيهِ المَجالُ (السَّيْر)، ورُبَّما رَمَى بعضُهم بالسُّيوفِ في الهواءِ، فيتلَقَّوْنها — قَبْضًا علَى قوائِمها — كأَنَّها لم تُفارِقْ أَيْدِيَهُمْ، إلى أَن خَرَجَ الأَميرُ، يَزْحَفُ بَيْنَ قوَّادِهِ، وأَبناؤُهُ أَمامَهُ — وقدْ قارَبوا سِنَّ الشَّبابِ — والرَّاياتُ تخفُقُ أَمامهُ، والدَّبادِبُ (الطُّبولُ) بيْنَ يديْهِ، والسَّكينةُ والوَقارُ تَفيضان عليهِ، وقدِ امْتَلأَتِ الجبالُ والطُّرُقُ والثَّنِيَّاتُ (مَطالعُ الجبالِ، وأَعالِي الطُّرُقِ) بالنَّظَّارَةِ من جميعِ المُجاورينَ. فلَمَّا انْتهى إِلى المِيقاتِ (مَوْضِعِ الإِحْرامِ)، وَقَضى غَرضَهُ، أَخذ في الرُّجُوعِ، وَقد تَرتَّبَ العَسْكرانِ بين يَدَيْهِ علَى لَعِبهِمْ ومرَحِهم، والرَّجَّالةُ عَلَى ما وَصفنا من التَّجاوُل والمُصاوَلَةِ، وَقدْ ركِبَ جُمْلَةٌ من أَعْرابِ البَوادِي نُجُبًا (جِمالًا كريمةً) لَم يُرَ في الجِيادِ أَجمَلُ مَنظرًا منها. وَرُكَّابُها يُسابِقونَ الخيْلَ بِها بين يَدَيِ الأَمير، رافِعينَ أَصْواتَهُمْ بالدُّعاءِ له والثَّناءِ عليهِ، إلى أَنْ وَصلَ المَسْجِدَ الحرامَ. فطافَ بـ«الكَعْبةِ» والقُرَّاءُ أَمامَهُ، والمُؤَذِّنُ الزَّمْزَمِيُّ يُغَرِّدُ في سَطْحِ قُبَّةِ «زَمْزَمَ»، رافعًا عَقيرتَه (صَوْتَه) بتهنِئَتِه بالمَوْسمِ، والثَّناءِ عليهِ، والدُّعاءِ له عَلَى العادَةِ.

(١٢) بَعد الطَّواف

فلمَّا فَرَغ من الطَّوافِ، صلَّى عند «المُلْتزَمِ»، ثم جاءَ إلى المَقامِ وصلَّى خلفَهُ، وقد أُخْرِجَ له من الكعبةِ وَوُضِعَ في قُبَّتِهِ الخشبيةِ التي يُصلَّى خلْفَها. فلما فرَغَ من صَلاتِهِ رُفِعت له القُبَّة عن المَقامِ، فاستلمهُ (قَبَّلَهُ) وتَمَسَّحَ به، ثم أُعيدت القبةُ عليه. وأَخذَ في الخُروجِ عَلَى باب «الصفا» إلى «المَسْعَى»، فسعى راكِبًا والقوادُ مُطِيفُونَ به والرَّجَّالَةُ أَمامَه. فلمّا فرَغَ من السعي اسْتُلَّتِ السيوفُ أَمامَه، وأَحدَقت به الأَشياعُ (التَّابِعُون)، وتَوَجَّه إلى مَنْزِله — عَلَى هذه الحالة الهائلَةِ — مُتْعبًا، وبقِيَ المَسْعى — يومَه ذلك — يَمُوجُ بالسَّاعِينَ والسَّاعِياتِ.

(١٣) في طريق العُمْرَة

فلمَّا كان اليَوْمُ الثَّاني — وهو يومُ الجُمُعَةِ — كانَ طَريقُ العُمْرَة في العِمارةِ والزِّحامِ قريبًا من أَمْسِهِ: راكبين وماشين رِجالًا وَنِساءً. والنساءُ الماشياتُ المُتَأَجِّراتُ كثيراتٌ يُسابِقْنَ الرجالَ في تلك السَّبِيلِ المُبارَكَةِ. وفي أَثناءِ ذلك يُلاقِى الرِّجالُ بعضُهُم بَعْضًا، فَيَتَصافَحُونَ ويتَهادَوْنَ الدُّعاءَ والتَّغافُرَ بينهم، والنِّساءُ كَذلك. والكلُّ منهم قد لَبِس أَفْخَر ثيابهِ، واحْتَفَلَ احْتِفالَ أَهْلِ البِلادِ للأَعيادِ.

(١٤) البَلَدُ الأَمين

وأَمَّا أَهلُ البَلَدِ الأَمينِ، فهذا المَوْسِمُ عِيدُهم، له يُعَبُّون (يُجَهِّزُون)، وبه يَحْتَفِلُون، وفي المُباهاةِ فيهِ يَتَنافَسُون، ولهُ يُعظِّمون. وفيه تَنْفُقُ أِسواقُهم، وتَرُوجُ صَنائِعُهم. يُقَدِّمون النَّظَر في ذلك والاسْتِعدَادَ له بأَشْهُرٍ.

ومنْ لَطِيفِ صُنْعِ الله بحَرمِهِ الأَمينِ أَنَّ قَبائلَ مِنَ اليَمَنِ — أَهْلَ جِبالٍ حَصِينَة — تُعْرَفُ بالسَّرَاةِ، يَستعِدُّونَ للوصولِ من «اليمنِ» إلى هذه البَلْدَةِ المُبارَكَةِ قَبْلَ حُلُولها بعَشَرَةِ أَيَّام، فيَجْمَعُونَ بَيْنَ النِّيَّةِ في العُمْرةِ ومِيرَةِ البَلَدِ (تَوْفيرِ الزَّادِ لَهُ) بِضُرُوبٍ من الأَطْعمةِ، كالْحِنْطَةِ وسائرِ الحبوبِ، إلى اللُّوبِياء إلى ما دُونَها، ويَجْلُبُون السَّمْنَ والعَسَلَ والزَّبيبَ واللَّوْزَ.

فتجمعُ مِيرتُهم (طَعامهم) بين الطَّعامِ (القمح والإدام) وهو ما يُجْعل مع الْخبز من أَلْوان المَأْكُولِ والفاكِهَةِ، ويَصِلُون في آلافٍ من العَدَدِ رجالًا وجِمالًا مُوقَرةً مُثْقَلَةً (بجميعِ ما ذُكِرَ)، فَيُرْغِدُونَ مَعايِشَ أَهْلِ البَلَدِ والمجاوِرينَ فيه: يَتَقَوَّتُون ويَدَّخرون، وتَرْخُص الأَسْعارُ وتَعُمُّ المَرافِقُ، فيُعِدُّ منها النَّاسُ ما يَكفِيهم لعامِهم إلى مِيرَة أُخْرَى. ولولا هذه المِيرةُ لكانَ أَهلُ «مكةَ» في شَظَفِ (ضَيق وخُشُونَةٍ) من العَيْشِ.

(١٥) البَيع بالمُقايَضَة

ومن العَجَب — في أَمْرِ هؤلاءِ المائِرينَ — أَنَّهُمْ لا يَبِيعُون من جميع ما ذَكَرْناهُ بِدِينارٍ ولا بدِرْهَمٍ، إنما يَبِيعُونَهُ بالخِرَقَ والعَباءَاتِ والشِّمَلِ (جَمْعِ شَمْلَةٍ، وهِيَ كِساءٌ واسعٌ يُشْتَمَلُ بهِ).

فأَهلُ «مكةَ» يُعِدُّون لهم — مَعَ هذا — الأَقْنِعةَ (جمعَ قِناع) والمَلاحِفَ المِتان (المُحْكَمَة الصُّنْعِ) وما أَشْبَهَ ذلك مما يلْبَسُهُ الأَعْرابُ، ويُبايِعُونَهُم به ويُشارونَهُم. وبِلادُهم — عَلَى ما ذُكِرَ لنا — خَصِيبَةً مُتَّسِعَةً، كثيرةُ التِّينِ والعِنَبِ، واسِعَةُ المُحَرَّثِ (المَزْروع) وافرةُ الغَلاَّتِ. وقد اعْتَقَدُوا اعْتِقَادًا صَحِيحًا أَنَّ البَرَكَةَ كلَّها في هذِهِ المِيرَةِ التي يجْلُبونَها. فهُمْ من ذلك في تِجارَة رابِحَة مع اللهِ عزَّ وجَلَّ.

(١٦) طَواف السَّراةِ

وهؤُلاءِ السَّراة عَرَبٌ صُرَحاءُ فُصَحاءُ، جُفاةٌ (غِلاظُ العِشْرةِ) أَصِحَّاءُ، لم تُغَذِّهم الرِّقة الحَضَرِيَّةُ، ولا هذَّبَتْهُم السِّيَرُ المَدَنِيَّةُ، ولا سَدَّدَت مقاصدَهم السُّنَنُ الشَّرْعيَّةُ فلا تَجدُ لَدَيْهم — مِنْ أَعْمالِ العِباداتِ — سِوَا صِدْق النِّيَّةِ. فَهُمْ — إذا طافُوا بالكَعْبَةِ المُقَدَّسَةِ — يتطارَحُون عليْها تَطارُحَ البنِينَ على الأُمِّ المُشْفِقَةِ، لائِذِينَ بجِوارِها، مُتعلِّقِينَ بأَسْتارِها. فحَيْثُما عَلِقت أَيْديهم منْها تَمَزَّقَ، لِشِدَّةِ اجْتذابِهم لها، وانكِبابهم عليْها.

وفي أَثْناءِ ذلك تَصْدَعُ أَلْسِنَتُهم (تَجْهَرُ) بأَدْعية تتصَدَّعُ لها القُلُوبُ (تَتَشَقَّقُ)، وتَتَفَجَّرُ الأَعْيُنُ الجَوامِدُ، فتَصُوبُ دُموعُها (تَسِيل).

فترَى الناسَ حَوْلَهم باسِطِي أَيْدِيهم، مُؤَمِّنِينَ على أَدْعيتِهِمْ، مُتلقِّنِينَ لها من أَلسنتِهم.

على أَنَّهم — طُولَ مُقامِهم — لا يَتَمكَّنُ معهم طَوافٌ، ولا يُوجَدُ سبِيلٌ إلى اسْتِلام الحجرِ (تَقْبِيلِهِ). وإذا فُتِحَ البابُ الكريمُ فهُمُ الدَّاخلُونَ بِسَلامٍ. فتراهُمْ — في مُحاوَلَةِ دُخُولهم — يتسلسَلُونَ كأَنَّهُم مُرْتَبِطونَ، يتَّصِلُ منهُمْ — على هذه الصِّفَةِ — الثَّلاثُونَ والأَرْبَعُونَ، إلى أَزْيَدَ من ذلك. والسَّلاسِلُ منهم يتْبَعُ بعضُهم بعضًا. ورُبَّما انْفَصَمَتْ بواحِدٍ منهم يَميلُ عن المَطلَعِ المُبارَكِ إلى البَيتِ الكَريمِ، فيَقَعُ الكلُّ لوُقوعِه.

فيُشاهِدُ النَّاظِرُ لذلك مَرْأًى يُؤَدِّي إلى الضَّحِكِ.

(١٧) صَلاة السَّراةِ

أَمَّا صلاتُهم، فلم يُذكَرْ في مُضْحِكاتِ الأَعْراب أَظْرَفُ منها. وذلك أَنَّهُمْ يَسْتَقبِلُون البيتَ الكريمَ، فيسْجدُونَ — دُونَ رُكوع — ويَنْقُرُون بالسُّجودِ نَقْرًا. ومنهم من يَسْجُدُ السَّجْدَةَ الواحِدَةَ، ومنهم مَنْ يَسْجدُ الثِّنْتَيْنِ والثَّلاثَ والأَرْبَعَ؛ ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءوسَهم من الأَرْضِ قَلِيلًا — وأَيْدِيهم مَبْسُوطةٌ عليْها — ويلتَفِتُون يَمِينًا وَشِمالًا، الْتِفاتَ المُرَوَّعِ الخائِفِ، ثُمَّ يُسَلِّمُونَ، أو يَقُومونَ دونَ تسليمٍ ولا جُلوس للتَشَهُّدِ.

وربَّما تكلَّموا، في أَثناءِ ذلك. وربَّما رَفعَ أَحدُهُمْ رَأْسَهُ من سُجودِهِ إلى صاحِبه، وصاحَ بهِ، ووَصَّاهُ — بِما شاءَ — ثُمَّ عادَ إلى سُجودِهِ، إلى غَيْرِ ذلك من أَحوالِهم الغريبَةِ.

(١٨) بَداوة السَّراةِ

ولا مَلبَسَ لهم سِوى أُزُرٍ وَسِخَة (والأُزُرُ: جَمْعُ إزار، وهو ثوبٌ يُتَغطَّى به)، أو جُلودٍ يَستتِرونَ بها. وهُم — مع ذلك — أَهلُ بأْسٍ ونَجْدةٍ، لهُم القِسِيُّ العَربيَّةُ الكبارُ، لا تُفارِقُهم في أِسفارِهم. فمتى رَحَلوا إلى الزِّيارَةِ هابَ أَعرابُ الطَّريق، المُمْسِكُونَ للحاجِّ مَقدمَهم، وتَجنَّبوا اعِتراضَهُمْ، وخلَّوْا لهُم عن الطَّرِيقِ. ويَصحَبُهم الحُجَّاجُ الزَّائِرُونَ، فَيَحْمَدُونَ صُحْبتَهم.

وعَلَى ما وَصَفْنا من أَحوالِهم، فهُمْ أَهلُ اعتقاد للإيمانِ صَحيحٍ.

وذُكِرَ أَنَّ النبيَّ ﷺ ذكرَهم وأَثنَى عليهِم خَيرًا، وقال: «عَلِّموهُم الصَّلاةَ، يُعلِّموكُم الدُّعاءَ».

(١٩) سَليقةُ العَرَب

وشاهَدْنا منهم صَبِيًّا في الحِجْرِ، قد جلَس إلى أَحدِ الحُجَّاجِ يُعلِّمُه فاتحةَ الكِتابِ وسُورةَ الإِخلاصِ، فكان الحاجُّ يقولُ له: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فيقول الصَّبيُّ: «اللهُ أَحَدٌ».

فيُعيدُ عليه المُعَلِّمُ. فيقولُ له: «أَلَمْ تأْمُرْنِي بأن أَقولَ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ؟ قد قُلْتُ».

فكابَدَ في تَلقِينِهِ مَشَقَّةً. وبعدَ لأَيْ مَّا (تَعَب) عَلِقَت بِلسانِه. وكان الحاجُّ يقولُ له: «بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ»، فيقولُ الصَّبيُّ: «بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ والحَمدُ للهِ»، فيُعيدُ عليهِ المُعَلِّمُ، ويقولُ له: «لا تقُلْ: والْحمدُ للهِ. إنّما قُلِ: الحمدُ للهِ»، فيقولُ الصَّبيُّ: «إذا قلتُ: بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم؛ أَقولُ: والحمدُ للهِ، للاتِّصالِ. وإذا لم أَقُلْ: بِسمِ اللهِ، وبَدَأْتُ، قلتُ: الحمدُ للهِ».

فعَجبنا من أَمرِه ومن مَعرفتِهِ — طَبْعًا — بِصِلةِ الكلامِ وفَصْلِهِ، دُونَ تَعلُّمٍ.

وأَمَّا فَصاحَتُهم فبَديعةٌ جدًّا، ودُعاؤُهم كَثيرُ التَّخْشِيعِ للنُّفوسِ، واللهُ يُصلِحُ أَحْوالَهم وأحوالَ جَميعِ عِبادِه.

(٢٠) الإحتفال بالعُمرة

والعُمرةُ في هذا الشَّهرِ كلِّه مُتَّصلَةٌ لَيلًا ونَهارًا — رِجالًا ونساءً — لكنَّ المُجْتَمَعَ كلَّه إنما كان في الليلَةِ الأُولَى، وهي لَيْلةُ المَوْسِمِ عِندَهُمْ. والبيْتُ الكَريمُ يُفتَحُ كلَّ يومٍ من هذا الشهر المُبارَكِ. فإذا كان اليوْمُ التاسِعُ والعِشرُونَ منهُ، أُفرِدَ للنِّساءِ خاصَّةً، فيَظْهَرُ لَهُنَّ بـ«مَكَّةَ» في ذلك اليوْمِ احتِفالٌ عَظيمٌ. فهوعِندَهم يوْمُ زينتِهم المَشْهُورُ، المُستعَدُّ له. وفي يوْمِ الخَميسِ الخامسَ عَشَرَ من هذا الشَّهر، شاهَدنا — من الاحتفَالِ للعُمْرةِ — قريبًا من المَشْهَدِ الأَوَّلِ المَذكُورِ في أَوَّلِ الشَّهر، فكان لا يَبْقَى أَحدٌ — من الرِّجالِ والنِّساءِ — إلا خَرَجَ لها. وبالْجُمْلةِ فالشَّهرُ المُبارَكُ كلُّه معمُورٌ بأَنواعِ العِباداتِ، من العُمْرةِ وسِواها.

ويَختصُّ أَوَّلُه ونِصفُهُ من ذلك بحَظٍّ مُتَمَيِّز. وكذلك السَّابعُ والعِشرونَ منهُ. وفي عَشِيِّ يوْمِ الخميسِ المذكُورِ كُنَّا جُلوسًا بالْحِجْرِ المكَرَّمِ؛ فما راعَنا إلا الأَميرُ «مُكْثِرٌ» طالعًا مُحْرِمًا، قد وَصَل من مِيقاتِ العُمْرة — تَبرُّكًا بذلك اليوْمِ، وجَرْيًا فيهِ علَى الرَّسْمِ — وأَبنَاؤُه وراءَه مُحْرمينَ، وقد حَفَّ به بَعضُ خاصَّتِهِ. وبادَرَ المُؤَذِّنُ الزَّمْزَمِيُّ — للْحِينِ —

إلى سَطْحِ قُبَّةِ «زمزم» داعِيًا عَلَى عادته، مُتَناوِبًا في ذلك مع أَخِيهِ. وحانَتْ صَلاةُ العِشَاءِ مع فَراغِ الأَميرِ من طَوافِهِ، فَصَلَّى خَلْفَ الإمامِ الشَّافِعِيِّ، وخَرَجَ إلى المَسْعَى المُبارَك.

(٢١) الزيارة النَّبَوِية

وفي يَوْمِ الجُمُعَةِ السَّادسَ عَشَرَ منهُ، خَرَجَتْ قافِلةٌ كبيرةٌ من الحاجِّ نَحْوُ أَرْبع مئة جَمَل، إلى زِيارَةِ الرَّسُولِ ﷺ. وفي جُمَادَى الآخِرَةِ — قَبْلَه — كانَت أَيْضًا زِيارةُ أُخْرَى لبعْضِ الحُجَّاجِ في قافِلَةٍ أصْغَرَ من هذه القافلة. وَبَقِيَتِ الزِّيارَةُ الشَّوَّالِيَّةُ — والتي مع الحَاجِّ العِراقِيِّ — إِثْرَ الوَقْفَةِ إن شاءَ اللهُ.

وفي التاسِعَ عَشَرَ من شَعْبانَ كان انصراف هذه القافِلَةِ الكبيرةِ في كَنَفِ السَّلاَمَةِ.

(٢٢) عُمْرَة الأَكَمةِ

وفي لَيلةِ الثُّلاثَاءِ السابعِ والعِشْرِينَ منه (أعني من رجَب) ظهرَ لأَهلِ «مَكَّة» —أَيضًا — احتفالٌ عظيمٌ في الخُروج إلى العُمْرة لم يَقْصُرْ عن الاحْتفالِ الأَوَّلِ، فانْجَفلَ الجميعُ (انْصَرفُوا) إليها تلك الليلةَ رجالًا ونساءً — على الصِّفاتِ والهيئاتِ المُتقدِّمةِ الذِّكر — فكانت مع صَبِيحَتِها عَجَبًا في الاحتفالِ وحُسْنِ المَنظرِ. وهذه العُمْرة يُسَمُّونها عُمْرَةَ الأَكَمَةِ، لأَنهم يُحْرِمون فيها من أَكَمَةٍ (تَلٍّ) أَمامَ مسجدِ «عائشةَ» رضِيَ اللهُ عنها — على مسافة قريبة. والأَصْلُ في هذه العُمرَةِ الأَكمِيَّةِ — عِنْدَهم — أَنَّ «عَبدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيرِ» لَمَّا فَرَغَ من بناءِ الكَعْبَة المُقدَّسةِ، خَرجَ ماشيًا حافِيًا مُعتَمِرًا — وأَهلُ «مَكَّة» معهُ — فانْتهى إلى تلك الأَكَمةِ.

فأَحرمَ منها، وكان ذلك في اليومِ السابع والعشرين من رجب، وجعل طريقَه على «ثَنِيَّةِ الحَجُونِ» المُفضِيَةِ إلى «المعْلَى» حيْثُ دَخَلَ المُسلِمُونَ يومَ فَتحِ «مَكَّة»، فبقيت تلك العُمْرَةُ سُنَّةً عند أَهلِها في ذلك اليَوْمِ بعَيْنِه، وعلى تلك الأَكمةِ بَعَيْنِها.

(٢٣) طواف النساءِ

وفي اليومِ التَّاسعِ والعِشْرِينَ منه، وهو يَوْمُ الخميسِ، أُفْرِدَ البيتُ للنِّساءِ خاصَّةً، فاجْتَمَعْنَ مِنْ كلِ أَوْبٍ — وقد تَقَدَّمَ احتِفالُهُنَّ لذلك بأَيامٍ — ولم تَبْقَ امْرَأَةٌ بـ«مَكَّةَ» إلا حَضَرت المَسجِدَ الحَرامَ ذلك اليومَ.

فَلَمَّا وَصَلَ الشَّيْبِيُّونَ لِفَتْحِ البَيْتِ الكريمِ — عَلَى العادةِ — أَسْرَعُوا في الخُرُوجِ منه، وأَفْرَجُوا للنِّساءِ عنهُ، وأَفْرَجَ الناسُ لَهُنَّ عنِ الطَّوافِ وعن الحِجْرِ، ولم يبقَ حولَ البيْتِ المُبارك أَحدٌ من الرجالِ. وتَبادَرَ النِّساءُ إِلى الصُّعُودِ حتى كادَ الشَّيْبِيُّونَ لا يخْلُصُونَ بيْنَهُنَّ، عند هُبُوطهم منَ البَيْتِ الكرِيم. وتَسَلْسلَ النِّساءُ — بَعْضُهُنَّ ببعضٍ — وتشابَكْنَ حتى تَواقَعْنَ. فمن صائحَةٍ ومُعْولَةٍ، ومُكَبِّرَة ومُهَلِّلَة. وظَهَر من تَزَاحُمِهنَّ ما ظَهَر من السَّرْو اليَمنيِّينَ، مدةَ مقامِهم بـ«مكةَ» وصُعُودِهم يومَ فَتْح البَيْتِ المُقَدَّسِ.

وتَمادَيْن عَلَى ذلك صَدْرًا من النَّهارِ، وانْفَسَحْنَ في الطَّوافِ والحِجْرِ، وتَشَفَّيْنَ من تقبيلِ الحَجَرِ واسْتِلاَمِ الأَركان. وكان ذلك اليومُ عندهنَّ الأَكبرَ. فهنَّ مَعَ الرِّجال مِسكِيناتٌ مَغْبُوناتٌ يَرَيْنَ البيت الكريمَ ولا يَلِجْنَهُ (لا يَدْخُلْنهُ)، ويلْحَظنَ الْحَجَرَ المُبارَكَ ولا يَسْتَلِمنَهُ (لا يُقَبِّلْنَهُ). فحظُّهُنَّ من ذلك كلِّه النَّظَرُ والأسفُ. وليسَ لهن — في غَيْرِ هذا اليَوْمِ — سِوَى الطَّوافِ على البُعْدِ. وهذا اليومُ هو من عامٍ إلى عامٍ، فَهُنَّ يَرْتَقِبْنَهُ ارْتِقَابَ أَشْرَفِ الأَعْياد، ويُكْثِرْنَ له مِنَ التَّأَهُّبِ والاسْتِعْدادِ.

(٢٤) غَسْل البيت

وفي اليوْمِ الثَّانِي بَكَرَ الشَّيْبِيُّونَ إلى غَسْلِهِ بماءِ «زَمْزَمَ» المُبارَك؛ لأَنَّ كَثيرًا من النِّساءِ أدخَلْنَ أَبناءَهُنَّ الصِّغارَ والرُّضَّعَ مَعَهُنَّ؛ فيُتَحَرَّى غِسلُه، تكْرِيمًا وتنْزيهًا لذلك الموْطِنِ الكَريم، المَخْصُوصِ بالتَّقْديسِ والتَّعْظِيمِ.

(٢٥) خُسوف البَدْرِ

اسْتَهلَّ هِلالُ شَعْبَانَ لَيْلَةَ السبْتِ، وفي صَبيحَتِهِ بكَر الأَمِيرُ «مُكْثرٌ» إِلى الطَّوافِ — عَلَى العادةِ في ذلك، رَأْسُ كلِّ شهر — مع أَخِيه وبنيهِ ومَن جَرى الرَّسْمُ باسْتِصْحابِه من القُوَّادِ والأَشياعِ والأَتباعِ.

وفي سَحَرِ يوْم الخميسِ الثالِثَ عَشَرَ منهُ، وهو أَوَّلُ يوْم من «دِجنيرَ» (يناير)، بعدَ طُلوعِ الفَجْرِ، خُسِفَ القَمرُ.

وبَدَأَ الْخسوف والنَّاسُ في صَلاةِ الصُّبْحِ — في الحَرمِ الشَّريفِ — وغابَ مَخْسوفًا، وانْتَهى الخُسوفُ إِلى ثُلثَيهِ، واللهُ يعرِّفُنا حَقيقَةَ الاعْتبارِ بآياتِهِ.

وَهذهِ الليلَةُ المُبارَكةُ (أَعْني ليلةَ النِّصْفِ من شَعبانَ) عنْدَ أهل «مكةَ» مُعَظَّمةٌ. فَهُمْ يُبادِرونَ فيها إِلى أَعمالِ البِرِّ — منَ العُمْرَةِ والطَّوافِ والصَّلاةِ — أَفْرادًا وَجماعةً، فَينقَسِمونَ في ذلك أُقسامًا، وقدْ قَدَّمتْ كلُّ جماعةٍ إمامًا، وبَسَطِتِ الحُصُرَ، وَأَوْقَدَتِ الشَّمَعَ، وأَشعلَتِ المشاعل، وأَسْرَجَتِ المصابيحَ. ومصباحُ السَّماءِ الأَزْهَرُ الأَقْمَرُ قد أَفاضَ نورَهُ عَلَى الأَرْضِ، وبسطَ شُعاعَهُ، فتلاقَتِ الأَنوارُ في ذلكَ الحرمِ الشريف الذي هو نورٌ بذاتِه.

في ذلكَ مرْأًى لا يَتَخَيَّلُه المُتَخَيِّلُ، وَلا يتَتَوَهَّمُهُ المُتَوَهِّمُ!

الفصل العاشر

أعيَاد رَمضَان

(١) الحفاوَةُ برَمضانَ

استهلَّ هلالُ رَمضانَ ليلةَ الاِثنَيْنِ، وكان صِيامُ أَهلِ «مكةَ» له يومَ الأَحَدِ، بِدَعْوَى في رُؤْيةِ الهلالِ لم تَصِحَّ، لكنْ أَمْضى الأَميرُ ذلك، ووَقَعَ الإيذانُ بالصَّوْمِ بِضرْب دَبادِبهِ وطُبولِه ليلةَ الأَحَد، لمُوافَقتِه مذهَبَهُ ومَذْهبَ شِيعتِه العَلَوِيِّين ومن إِليهم، لأَنهم يَرَوْنَ صيامَ يوْمِ الشَّكِّ فَرْضًا.

ووَقَعَ الاحْتِفالُ في المَسجِد الحرامِ لهذا الشَّهرِ المُبارَك — وحُقَّ ذلك — من تجديدِ الحُصُرِ، وتكثيرِ الشَّمَعِ والمَشاعيلِ، وغيرِ ذلك من الآلاتِ، حتى تلأْلأَ الحرَمُ نورًا، وَسَطَع ضِياءً.

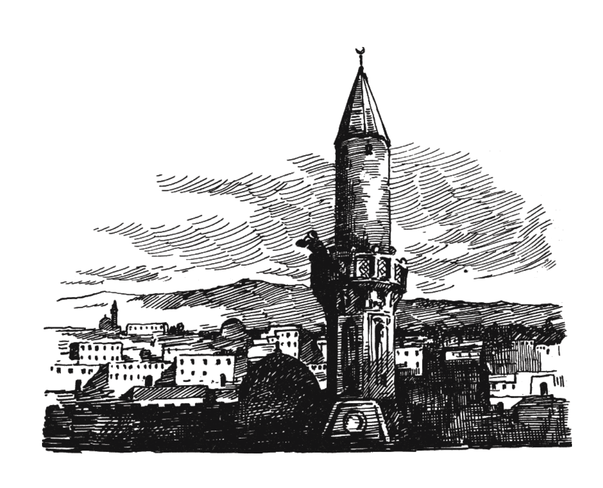
ورأَيْنا شَمَعًا كثيرًا، مِنْ أَكْبَرِه شَمْعتانِ نُصِبتا أمامَ المِحْرابِ، فيهما قِنطارٌ، وقد حَفَّتْ بهما شمَعٌ — دُونَهُما — صِغارٌ وكِبارٌ.

وكادَ لا يَبقَى في المَسجدِ زاوِيةٌ ولا ناحيةٌ إلاّ وفيها قارئ يُصَلِّي بجماعةٍ خلْفَه، فيَرْتَجُّ المَسجِدُ لأَصْواتِ القُرّاءِ من كلِّ ناحيةٍ. فتُعاينُ الأَبصارُ، وتُشاهدُ الأَسماعُ — من ذلك — مرأًى ومستَمَعًا، تَنْخَلِعُ لهُ النُّفُوسُ خَشْيةً ورِقَّةً.

(٢) سُحور رَمضانَ

والمُؤَذِّن الزَّمْزَمِيُّ يَتَوَلَّى التَّسْحيرَ في الصَّوْمَعةِ التي في الرُّكْنِ الشَّرقيِّ من المَسجدِ، بسَبَبِ قُرْبِها من دارِ الأَميرِ. فيقومُ في وقتِ السُّحورِ فيها داعيًا ومذكِّرًا ومحرِّضًا علَى السُّحورِ، ومعهُ أَخوانِ صغيرانِ يُجاوِبانه ويُقاوِلانِه.

وقد نُصِبت في أَعْلَى الصوْمعةِ خشبةٌ طويلةٌ، في رأْسها عودٌ كالذِّراع، وفي طرَفْيهِ بكَرَتانِ صغيرتانِ يُرْفَع عليهما قِنْدِيلان من الزُّجاج كَبيران لا يزالان يَقِدان (يَشْتَعِلان ويُضيئان) مُدَّةَ التَّسْحير، فإِذا قَرُب ظُهُورُ خَيْطَي الفَجْرِ وتَبَيَّنَ النَّاسُ الخَيْطَ الأَبْيَضَ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ، ووَقَعَ الإِيذانُ بالقَطْعِ — مرَّةً بعد مرَّة — حَطَّ المُؤَذِّنُ القنْدِيلَيْن من أَعْلَى الخشبةِ، وبدأَ بالأذان، وثوَّب المُؤَذِّنون (دَعَوْا إِلى الصَّلاة) من كلِّ ناحيةٍ بالأذان.



وفي دِيار «مَكَّة» كلِّها سُطوحٌ مرْتَفِعةٌ.

فَمَنْ لم يَسْمَعُ نِداءَ التَّسْحيرِ — مِمَّنْ يبْعُدُ مَسكنُهُ من المَسجِدِ — يُبْصِرِ القِنْدِيلَيْنِ يَقِدانِ في أَعْلَى الصَّوْمعةِ.

فإِذا لم يُبصرْهُما عَلِمَ أَنَّ الوقتَ قد انقطع.

(٣) مَقدَمُ سَيفِ الإِسلامِ

وفي لَيلَةِ الثُّلاثاءِ الثانِي من الشَّهْرِ — مع العَشِيِّ — طافَ الأَمِيرُ «مُكْثِرٌ»بالبَيْتِ مودِّعًا، وخَرَجَ لِلقاءِ الأَمير «سيفِ الإسلام طغتكينَ بنِ أَيوبَ» أَخي «صَلاح الدينِ»، وقد تقدَّم

الخبرُ بورُودِه من «مصر» — منذُ مدة — ثمَّ تَوَاتر إلى أن صَحَّ وصولُه إلى «يَنْبُعَ»، وأَنه عَرَّج إلى المَدينَةِ لزيارةِ الرَّسولِ.

وسَمِعْنا أَنه يَقْصِدُ إلى اليَمَنِ لاخْتلافٍ وَقَع فيها، وفتْنة حدثَت من أُمرائِها.

وقد وَقَع في نُفوسِ المَكيِّين منه إيجاسُ خِيفَةٍ، واسْتشْعارُ خَشْيَةٍ. فَخَرج الأَميرِ «مُكْثِرٌ» مُتَلَقِّيًا ومُسَلِّمًا، وفي الْحَقيقةِ مُستَسْلِمًا. واللهُ — تعالى — يُعرِّفُ المُسْلمين خَيرًا.

وفي ضَحوَةِ يومِ الأَربعاءِ كُنَّا جُلوسًا بالحِجْر المُكَرَّمِ، فسمِعنا دَبادِبَ الأَمِير «مُكْثِرٍ»، وأَصواتَ نساءِ «مكةَ» يُوَلْوِلْنَ عليهِ.

فبَينَا نَحْن كذلك، دخَلَ مُنْصَرفًا من لِقاءِ الأَمير «سيفِ الإِسلامِ»، وطائفًا بالبَيْتِ المُكَرَّمِ طَوافَ التَّسْليم، والناسُ قد أَظهرُوا الاسْتِبشارَ لقُدومِهِ، والسُّرورَ بِسَلامَتِهِ.

وقد شاعَ الخبرُ بأَنَّ «سَيْفَ الإِسلامِ» قد نزَلَ «الزَّاهرَ»، وضَرَب أَخْبِيَتَهُ فيهِ (والأَخبية: المَساكن من الوَبر، أَو الصوف)، وأَنَّ مُقدِّمتَهُ من العَسْكرِ قد وَصَلت إلى الحَرمِ، وزاحَمتِ الأميرَ «مُكْثِرًا» في الطَّوافِ.

(٤) سيفُ الإِسلامِ في الحَرَمِ

فبَيْنا الناسُ يَنظرونَ إليهم إِذْ سمِعوا ضَوضاءَ عَظيمَةً وزَعَقاتٍ هائِلَةً. فما راعَهم إلا الأميرُ «سيْفُ الإسلامِ» داخلًا من باب «بني شَيْبَةَ» ولَمَعانُ السُّيوفِ أَمامَهُ يكادُ يَحُولُ بين الأبصار وبينَه، والْقاضي عن يَمِينِهِ، وزعيمُ الشَّيْبيِّين عن يَسارِهِ، والمَسْجدُ قدِ ارْتَجَّ وغَصَّ بالنَّظَّارة والوافدينَ، والأَصواتُ بالدُّعاءِ له ولأَخيهِ «صَلاحِ الدينِ» قد عَلَت من النَّاسِ حتى سَكَّت (سَدَّت) الأَسماعَ، وأَذهَلَت الأَذهانَ. والمُؤَذِّنُ الزَّمْزمِيُّ — في مَرْقَبتِه (مَكانِهِ العالِي) — قد رَفَع عَقيرَتَه (صَوتَه) بالدعاءِ له، والثَّناءِ علَيهِ، وأَصواتُ الناسِ تَعلُو عَلى صَوتِهِ، والهَوْلُ قد عظُم مَرْأًى ومُسْتَمَعًا. ولَم يَحِنْ دُنُوُّ الأَميرِ من البيْتِ المُعظَّمِ حتى أُغمدتِ السُّيوفُ، وتَضاءَلت النفوسُ، وخُلعَت ملابِسُ العِزَّةِ، وذَلَّتِ الأَعناقُ، وخَضَعتِ الرِّقابُ، وطاشَتِ الأَلْبابُ، مَهابةً وتَعظيمًا للْبَيتِ الحرام: بَيتِ مِلك المُلوكِ العَزيزِ الجَبَّارِ، الواحِدِ القَهَّارِ، مُؤْتى المُلْكِ مَن يَشاءُ، ونازِعِ المُلْكِ مِمَّن يَشاءُ، سُبْحانَه جَلَّت قُدرتُه، وعَزَّ سُلطانُهُ.

(٥) عَوْدَة الأَمير «مُكثر»

ثُمَّ تهافتتْ هذه العِصابةُ الغُزِّيَّةُ (المَنْسوبة إلى الغُزِّ، وهم جنسٌ من التُّرْك، كما أَسْلَفْنا) عَلَى بيْتِ اللهِ العَتيقِ، تهافُتَ الفَراشِ عَلَى المِصْباحِ، وقدْ نكَّسَ الخُضوعُ أَذْقانَهم، وبلَّتِ الدُّموعُ سِبالَهم (لِحَاهم). وطافَ القاضي وزعيمُ الشَّيْبِيِّين بسيفِ الإسلامِ. والأَميرُ «مُكثِرٌ» قد غمرَهُ ذلك الزِّحامُ، فأَسْرَعَ في الفراغِ من الطوافِ، وبادرَ إلى منزلِهِ.

(٦) سَعْيُ سيْفِ الإسلامِ

وعنْدَما أكملُ «سيْفُ الإسلامِ» طوافَه صَلَّى خلفَ المقامِ، ثُمَّ دخلَ قُبَّةَ «زَمْزَمَ» فشَرِب من مائِها. ثُمَّ خَرَجَ عَلَى «بابِ الصَّفا» إلى السَّعْي، فابْتَدأَهُ ماشِيًا عَلَى قدمَيْهِ — تواضُعًا وتَذَلُّلًا لِمَن يَجبُ التَّواضُعُ له — والسُّيوفُ مُصْلَتَة (مُجَرَّدة من أَغْمادِها) أمامَهُ. وقد اصْطَفَّ الناسُ من أَوَّلِ المَسعَى إلى آخره صَفَّيْنِ — مثلَ ما صنَعُوا أيضًا في الطَّوافِ — فسعَى علَى قدمَيْهِ طريقَيْنِ: من «الصَّفا» إلى «المَرْوَةِ»، ومنها إلى «الصَّفا».

وَهَرْوَلَ بين المِيلَيْنِ الأَخْضَرَيْن، ثُمَّ قَيَّدهُ الإعياءُ (الضَّعْفُ والتَّعَبُ) فركِبَ وَأَكْمَل السَّعْيَ راكِبًا، وقد حُشِرَ الناسُ وَقتًا.

(٧) مِفتاح الحرم

ثُمّ عادَ هذا الأَميرُ إلى المَسجِدِ الحرامِ — عَلَى حالَتِهِ من الإرْهابِ والهَيْبَةِ — وهوَ يتهادى بين بُرُوقِ خَواطِفِ السُّيوف المُصْلَتِةِ. وقد بادرَ الشَّيْبِيُّونَ إلى بابِ البيْتِ المُكَرَّمِ ليَفْتَحُوهُ — ولم يكُنْ يوْمَ فَتحِهِ — وضُمَّ الكُرْسيُّ الذي يُصْعَدُ عليهِ، فرَقِيَ الأَميرُ فيه. وتناوَلَ زعيمُ الشَّيبيِّين فَتْحَ البابِ، فإذا المِفتاحُ قدْ سقَطَ من كُمِّهِ في ذلك الزِّحام. فوَقَف الزّعيمُ وِقفةَ دَهِشٍ مَذْعورٍ، ووَقَف الأَميرُ على الأَدراجِ. فيَسَّرَ الله — للحِينِ — في وجودِ المفتاحِ. فَفُتِحَ البابُ الكَريمُ، ودخلَ الأَميرُ وحْدَهُ مع الشَّيْبِيِّ، وأُغْلِق البابُ، وَبَقِيَ وُجوهُ الأَغْزاز وأَعيانهم مُزْدحِمين عَلَى ذلك الكرسيِّ. فبعْدَ لأَيْ مَّا (عَناءٍ وشِدَّة ووَقْت) فُتحَ لأُمرائِهم المُقَرَّبين، فَدخَلُوا. وتَمادَى مُقامُ «سيْفِ الإسلامِ» في البيتِ الكريمِ مُدَّةً طويلةً، ثُمَّ خَرَجَ، وانْفَتَحَ البابُ للكافَّةِ منهم. فَيا له من ازْدِحامٍ، وتَراكُمٍ وانتظام، حتى صاروا كالعِقدِ

المُسْتَطيل. وقد اتَّصَلوا وتَسَلْسَلوا، فكانَ يوْمُهم أَشْبهَ شَيْءٍ بأَيَّامِ السَّرْو اليَمنيِّينَ، الَّذِين أَسْلَفْنا وَصْفَ دخولهم البيْتَ.

(٨) في صُحبة الأَمير

ورَكِبَ الأَميرُ «سيفُ الإِسْلامِ» وَخَرَجَ إِلى مَضْرِبِ أَبْنيتِه. وكان هذا اليوْمُ بـ«مَكَّةَ» من الأَيَّام الهائلَةِ المَنْظَرِ، العَجيبَةِ المَشْهِدِ، الغَريبَةِ الشَّأْنِ.

فَسُبحانَ مَن لا يَنقَضي مُلْكُه، ولا يَبيدُ سُلْطانُه.

وَصَحِبَ هذا الأَميرَ جُمْلَةً من حُجَّاجِ مِصرَ — وسواها — اغْتِنامًا لِطَريقِ البِرِّ والأَمن، فوصلوا في عافِيَةَ وسلامة.

(٩) حُلة الأَمير «مكثر»

وفي ضَحوَةِ يوم الْخميسِ — بعدَه — كُنَّا أَيضًا بالحِجْرِ المُكَرَّمِ. فإِذا بأَصواتِ طُبول ودَبادِبَ وبوقاتٍ تقرَعُ الآذانَ، وقد ارْتَجَّتْ لها نواحِي الحَرمِ الشريفِ. فبَيْنا نحن نتطلَّعُ لاستعلامِ خَبرها، طلَع علَينا الأَميرُ «مُكثِرٌ» وغاشِيتُه (حاشِيتُه) الأَقرَبون حولَه، وهو رافِلٌ في حُلَّةِ ذهبٍ — كأَنها الجَمْرُ المُتَّقِد — يَسْحَبُ أَذيالَها، وعَلَى رأْسِه عمامةٌ قد علا كَوْرُها (طَيُّها) عَلَى رأْسِه، كأَنها سَحابةٌ مَرْكُومة (بَعْضُها فَوْقَ بَعْض)، وهي مُصفَّحةٌ بالذَّهب. وتَحتَ الحُلَّةِ خِلْعَتانِ من الدَّبِيقِّي (المَنْسُوبِ إِلى «دَيب»، وهي بلدةٌ بِمِصرَ عُرِفَتْ بنوعٍ منَ الثِّيابِ) المَرْسوم البديعِ الصَّنعةِ، خلَعها عليه الأَمير «سيْفُ الإِسلامِ» إِشادةً بِتكْرِمَتِه، وإِعلامًا بمَأْثَرَةِ منزلَتِه.

فطافَ بالبَيتِ المُكَرَّمِ شُكرًا للهِ على ما وَهَبَه من كَرامةِ هذا الأَميرِ، بعدَ أَن كان أَوجَس في نَفسِه خيفَةً منه. والله يُصْلِحُه ويُوَفِّقُه.

(١٠) صلاة الأميرين

وفي يومِ الْجُمُعةِ وصَل الأَميرُ «سيْف الإسلام» للصَّلاةِ — أَوَّلَ الوَقتِ — وفُتحَ البَيتُ الْمُكَرَّمُ، فدخلَه مع الأَميرِ «مُكْثِرٍ» وأَقاما بِهِ مُدَّةً طويلةً ثم خَرجا، وتزاحَم الغُزُّ (وهم جِنْسٌ منَ التُّرْكِ) للدُّخولِ تزاحُمًا أَبْهَتَ الناظِرينَ (حَيَّرَهُمْ وأَدْهَشَهُمْ)، حتى أُزيلَ الكُرسيُّ الذي يُصْعَدُ عليهِ، فلمْ يُغنِ عن ذلك شَيئًا. وأَقاموا عَلَى الازدحامِ في الصُّعودِ — بإِشالةِ (رَفْع) بعضِهم عَلَى بعض — وداموُا عَلَى هذه الحالَةِ إلى أن وَصَلَ الخَطيبُ، فخَرجُوا لاستماعِ الخطْبةِ، وأُغلِقَ البابُ، وصلَّى الأَميرُ «سيْف الإسلام» مع الأَميرِ «مُكثِرٍ» في القُبَّةِ العبَّاسيَّةِ. فلمَّا انقضت الصَّلاةُ، خَرَجَ عَلَى «باب الصَّفا»، وركِب إلى مَضرِب أَخْبيَتِه.

وفي يومِ الأَربعاءِ — العاشر منهُ — خرجَ الأَميرُ «سيْف الإسلام» بجنُودِه إلى اليمنِ، واللهُ يُعرِّفُ أَهلَها من الْمُسْلمين في مَقدَمِه خيرًا بِمَنِّهِ (بإِنْعامِهِ).

(١١) حَفَظَةُ القُرآنِ

وهذا الشَّهْرُ المُبارَكُ قد ذكَّرنا اجتِهادَ المُجاوِرِينَ للحَرَم الشَّريفِ في قِيامِه، وصَلاةِ تراويحِهِ، وَكَثرةِ الأَئِمَّةِ فيهِ.

وكلُّ وَتْرٍ من اللَّيالي العَشْرِ الأَواخِرِ يُخْتَمُ فيها القُرآنُ. فأَوَّلُها — لَيلةُ إِحدَى وعِشرِينَ — ختَمَ فيها أَحدُ أَبناءِ أَهل «مكَّةَ».

وحضَر الخَتْمَةَ القاضِي وجَماعةٌ من الأَشْياخِ. فلمَّا فَرَغُوا منها، قام الصَّبيُّ فيهم خَطيبًا، ثم اسْتدعاهُم أَبو الصَّبيِّ إِلى مَنْزِلِهِ إِلى طَعامٍ وحَلْوَى قد أَعدَّهُما واحْتَفَل فيهما.

(١٢) الغلامُ المَكِّيُّ

ثُمَّ بعد ذلك لَيلَةَ ثلاثٍ وعشرينَ، وكان المُخْتَتِمُ فيها أَحدَ أَبناءِ المَكِّيِّينَ ذوِي اليَسارِ، غُلامًا لم تَبْلُغْ سِنُّه الخَمْسَ عشْرَةَ سَنةً. فاحتَفَل أَبوهُ لهذه اللَّيلةِ احتِفالًا بديعًا. وذلك أَنه أَعَدَّ له ثُرَيًّا مصنوعةً من الشَّمَعِ مُغصَّنَةً، قد انتَظَمَت أَنواعَ الفَواكِهِ الرَّطْبَةِ واليابِسَةِ، وأَعدَّ إِليها شَمَعًا كثيرًا. ووَضَعَ في وَسَطِ الحَرمِ — مِمَّا يلي بابَ «بني شَيبَةَ» شَبيهَ المِحرابِ المُربعِ من أعوادٍ طَويلَةٍ، قد أُقيمَ عَلَى قوائمَ أَربعٍ، ورُبِطت في أَعلاهُ عِيدانٌ نزلَتْ منها

قَناديلُ، وأُسرِجَتْ في أَعلاها مَصابيحُ ومَشاعِيلُ. وسُمِّر دائِرُ المِحرابِ كلِّه. وأُوقدت الثُّرَيَّا المُغَصَّنَةُ ذاتُ الفواكِه. وأَمعَنَ الاحتِفالَ (العِنايةَ والمُبالَغَةَ) في هذا كلِّه. ووُضِع — بمَقرَبَةٍ من المِحرابِ — مِنْبَرٌ مُجلَّلٌ بكُسوَة مُجزَّعةٍ مُختلِفةِ الألوانِ. وحضَر الإمامُ الطِّفلُ فصلَّى التَّراويحَ وخَتَم. وقد انحشدَ أَهلُ المَسجِدِ الحرامِ إليه رجالًا ونِساءً، وهو في مِحْرابِه لا يكادُ يُبصِرُ من كَثرةِ شُعاعِ الشَّمَعِ المُحْدِقِ به.

ثم بَرَزَ من مِحرابِه، رافِلًا في أَفخَرِ ثِيابِه بِهَيْبَةٍ إمامِيّةٍ، وسَكينَةٍ غُلامِيَّةٍ، فلم يستطع الخلوصَ إلى مِنْبرِه من كَثرةِ الزِّحامِ، فأَخذَه أَحدُ سَدَنةِ (خَدَم) تلك النَّاحيَةِ — في ذِراعِهِ — حتى أَلقاهُ على ذِروَةِ مِنْبَرِه. فاستَوَى مُبْتَسِمًا، وأَشارَ عَلَى الحاضِرينَ مُسَلِّمًا. وَقَعَدَ بين يَديْهُ قُرَّاءٌ، فابْتَدَرُوا القِراءَةَ عَلَى لِسانٍ واحدٍ، فلمَّا أَكملُوا عَشْرًا من القُرآنِ، قامَ الخطيبُ فصَدَعَ بخُطْبةٍ يُحَرِّكُ لها أَكثرُ النُّفوسِ من جِهة الإلقاءِ والتَّرْجيعِ، لا من جِهةِ التَّكيرِ والتَّخشيعِ. وبين يَديْه — في درَجاتِ المِنْبَرِ — نَفَرٌ يُمسِكُونَ أَتْوارَ الشَّمَعِ في أيديهم (والأَتْوارُ جمع تَوْر، وهو الإناءُ الصغيرُ)، ويرفَعونَ أَصواتَهم قائلين:

«يا ربّ! يا ربَّ!» عند كلِّ فَصل من فُصولِ الخُطبَةِ يُكَرِّرونَها، والقُرَّاءُ يَبتَدرُونَ القِراءَةَ في أَثناءِ ذلك، فيَسكُتُ الخطيبُ إِلى أَن يَفرُغُوا، ثم يَعودُ لِخُطبَتِهِ.

ثمَّ ختمها بتَوْديعِ الشَّهْرِ المُبارَكِ وترْديدِ السَّلامِ عليْه. ثُمَّ دعا للخليفةِ ولكلِّ من جَرَتِ العادَةُ بالدُّعاءِ له — من الأُمراءِ — ثمَّ نزَلَ، وانفضَّ ذلك الجَمْعُ العظيمُ.

وكانت لأَبي الخطيب في تلك الليلةِ نَفقةٌ واسعةٌ.

(١٣) الليلةُ السابعة والعشرون

ثُمَّ كانتْ ليلَةُ سَبْعٍ وعشرينَ — وهي ليلةُ الْجُمُعةِ — فكانت اللَّيْلَةَ الغَرَّاءَ، والخَتْمَةَ الزَّهراءَ. ووَقع النظرُ والاحتفالُ لهذهِ الليلةِ المُباركةِ قبلَ ذلك بيومين أو ثلاثةٍ. وأُقيمت إزاءَ حَطِيمِ إمامِ الشافعيَّةِ (جِدارِه)، خُشُبٌ عِظامٌ، بائِنَةُ الارتفاعِ — موْصولٌ بين كلِّ ثلاثٍ منها بأَذْرعٍ من الأَعوادِ الوثيقة — فاتصلَ منها صفٌّ كاد يُمسكُ نصفَ الحرمِ عرضًا. ووُصِلَتْ بذلك الحطيمِ (الجدارِ). ثمَّ عَرضَت بينها أَلواحٌ طِوالٌ مُدَّت عَلَى تِلْكَ الأَذْرُعِ. وعلَتْ طبقةً منها طبقةٌ أُخرى، حتى اسْتَكْمَلَتْ ثلاثَ طَبقاتٍ. فكانتِ الطبقةُ العلْيا منها

خُشُبًا مستَطيلَةً مَغروزَةً كلَّها مساميرَ مُحَدَّدة الأَطرافِ، لاصِقًا بعضُها ببعْض، كظهر الشَّيْهَمِ (القُنْفُذِ)، وقدْ نُصبَ عليها الشَّمَعُ. والطَّبقتان تَحتَها أَلواحٌ مَثْقوبةٌ ثَقْبًا مُتَّصِلًا، وُضِعَتْ فيها زُجاجاتُ المَصابيحِ ذَواتُ الأَنابِيب المُنبعثَةِ من أَسافلها. وتدَلَّتْ من جَوانِبِ هذه الأَلواحِ والخُشُبِ — ومن جميعِ تلك الأَذْرُعِ — قناديلُ كِبارٌ وصِغارٌ. وتخلَّلها أَشْباهُ الأَطْباق المَبْسوطِة من الذَّهَب، قد انتظم كلَّ طَبَقٍ منها ثلاثُ سَلاسِلُ تُقَلُّها في الهواءِ. وخُرِقت كلُّها ثُقُبًا، وَوُضِعَتْ فيها الزُّجاجاتُ ذواتُ الأَنابيبِ — من أَسفل تلكَ الأَطباقِ الصُّفْرِيَّة (الذَّهبيَّة)، لا يَزيدُ منها أُنبوبٌ على أنبوب في القَدِّ. وَأُوقِدَتْ فيها المَصابيحُ فجاءَتْ كأَنها موائِدُ ذواتُ أَرْجُل كثيرةٍ تشتعلُ نورًا. ووُصِلَتْ بالحطِيمِ (الْجِدار) الثاني الذي يُقابلُ الرُّكْنَ الجَنوبيَّ من قبةِ زمزمَ، خُشُبٌ — علَى الصِّفَةِ المَذكورَةِ — اتَّصلتْ إِلى ذلك الركْنِ، وأُوقدَ المِشْعَلُ الذي في رأْس القبةِ، وَصُفِّفَتْ طُرَّةُ شُبَّاكِها (الجانبُ الأَعلى) شمعًا مِمّا يقابِلُ البيْتَ المكرَّم، وحُفَّ المَقامُ الكريمُ بِمِحراب من الأَعْوادِ المُشَرْجَبةِ (المُغَصَّنة)، وهِيَ محفوفةُ الأَعْلَى بِمَساميرَ حديدةِ الأَطْرافِ — على الصِّفَةِ المذكورةِ — جُلِّلت كلُّها شمعًا، ونُصِب عن يَمِينِ المَقامِ ويسارِه، شَمَعٌ كَبيرُ الْجِرْمِ (الحَجْمِ) في أَتْوارٍ تُناسِبُها كبَرًا، وصُفَّتْ تلك الأَتْوارُ عَلَى الكَراسِيِّ التي يَصرفُها السَّدنَةُ مطالعَ (مَصاعدَ) عندَ الإيقادِ، وجُلِّلَ جِدارُ الحِجْرِ المُكرَّم كلُّ شَمَعًا في أَتْوارٍ من الصُّفْرِ (أَوانٍ صَغيرة من الذهب)، فجاءَتْ كأَنها دائرَةُ نورٍ ساطعٍ. وأَحْدقَتْ بالحَرمِ المَشاعِيلُ، وَأُوقدَ جميعُ ما ذُكِرَ. وأَحْدَقَ بِشُرُفاتِ الحرَمِ كلِّها صِبيانُ «مكَّةَ»، وقد وضِعتْ بيدِ كلٍّ منهم كُرَةٌ من الخِرَقِ المُشْبَعَةِ سَليطًا (زَيْتًا)، فوضَعوها متَّقِدَةً في رُءُوسِ الشُّرُفاتِ، وأَخَذت كل طائفةٍ منهم ناحِيةً من نواحِيها الأَرْبعِ، فجعلَتْ تُبارِي صاحبَتَها في سُرْعَةِ إِيقادِها. فَيُخَيَّلُ للنَّاظِر أَنَّ النَّارَ تَثِبُ من شُرْفَة إلى شُرْفَةٍ، لِخَفاءِ أَشْخاصِهِمْ وراءَ الضَّوْءِ المُرْتَمى بالأَبصارِ.

وفي أَثناءِ مُحاوَلتهم لذلكَ، يَرْفَعون أَصْواتَهم صائحِينَ: «يا رَبِّ! يا رَبِّ!» عَلَى لسانٍ واحِدٍ، فَيَرْتَجُّ الحرَمُ لأَصْواتهمْ

فلَمَّا كَمُلَ إِيقادُ الجميعِ كادَ يُعَشِّي الأَبصارَ شُعَاعُ تلكَ الأَنوارِ، فلا تَقَعُ لمْحةُ طَرْفٍ إِلاَّ عَلَى نُور، يَشْغَل حاسَّةَ البَصَر عنِ اسْتِمالَةِ النَّظَرِ، فيتَوَهَّمُ المُتَوَهِّمُ — لهَوْلِ ما يُعاينُهُ

من ذلكَ — أَنَّ تلك الليلَةَ المُبارَكَةَ نُزِّهَتْ لشَرَفِها عن لباسِ الظَّلْماءِ، فزُيِّنَتْ بِمصابيحِ السَّماءِ.

وتَقَدَّمَ القاضي، فصلَّى فَريضَةَ العِشاءِ، ثُمَّ قامَ وابْتَدأَ بسُورَةِ «القَدْرِ» وكان أَئِمَّةُ الْحَرَمِ — في الليلَةِ قَبْلَها — قد انتهَوْا في القراءَةِ إِليها. وتعَطَّلَ في تلكَ السَّاعةِ سائرُ الأَئِمَّةِ من قِراءَةِ التَّراويحِ تَعظيمًا لِخَتْمةِ المَقامِ، وحَضَرُوا مُتَبَرِّكينَ بِمُشاهَدِته، فَخَتَمَ القاضي بِتَسْليمتَيْنِ، وقامَ خَطيبًا مُسْتَقْبِلَ المَقامِ والبيْتِ العَتيقِ، فلَمْ يَتَمَكَّنْ سَماعُ الخُطْبَةِ للازْدِحامِ، وَضَوْضاءِ العَوامِّ.

فلَمَّا فرَغَ من خُطْبَتِهِ عادَ الأَئِمَّةُ لإقامَةِ تَرَاوِيحِهم، وانفَضَّ الجَمْعُ ونُفُوسُهم قد اسْتطارَتْ خُشوعًا، وأَعْيُنُهم قدْ سالتْ دُموعًا.

وقدْ أُشْعِرَ النَّاسُ من فَضْل تلك الليلَةِ المُبارَكة رَجاءً مُبَشِّرًا بمَنِّ اللهِ تَعالى بالْقَبولِ، ومُشْعِرًا أَنها — وَلَعلَّها — لَيْلَةُ القَدْرِ المُشَرَّفُ ذكْرُها في التَّنْزِيلِ.

(١٤) عِيدُ الفِطْر

اسْتَهلَّ هِلالُ شَهْرِ شَوَّالٍ لَيلَةَ الثُّلاثاءِ، وهذا الشَّهْرُ هو فاتِحةُ أَشْهُر الحَجِّ المَعلُوماتِ، وبَعْدَه تَتَّصِلُ ثَلاثَةُ الأَشْهَر الحُرُمِ. وكانَتْ لَيلَةُ اسْتِهلالِ هِلالِه مِن اللَّيالِي الحفيلَةِ في المَسجِدِ الحرام. جرَى الرسمُ في إيقادِ مَشاعلِه وثُرَيَّاتِهِ وشَمَعِه، على الرسم المذكور، ليلةَ سَبْعٍ وعشرِينَ من رمضانَ المُعظم. وأُوقِدَتِ الصَّوامِعُ من الْجهاتِ الأَربعِ من الْحَرمِ، وأُوقِدَ سَطْحُ المَسجِدِ الذي في أَعْلَى جَبَلِ «أَبي قُبَيْسٍ». وأَقامَ المُؤَذِّنُ ليلتَه تلك في أَعلى سطحِ قبةِ «زمزم»، مُهَلِّلًا ومكبِّرًا ومُسَبِّحًا وحامدًا. وأَكْثَرَ الأَئمَّةُ تلك الليلةَ إِحياءً، وأَكثَرَ الناسُ على مِثْل تِلكَ الحالِ، بيْنَ طَوافٍ وصَلاةٍ، وتهليلٍ وتكبيرٍ.

(١٥) صلاة العيد

فلمَّا كان صبِيحَتُها وقضَى الناسُ صلاةَ الفجرِ، لَبِسُوا أَثوابَ عيدِهم، وبادَرُوا لأَخْذِ مَصافِّهم لصلاةِ العيدِ بالمَسجِدِ الحرامِ، لأَنَّ السُّنَّةَ جَرَتْ بالصَّلاةِ فيه — دُونَ مُصَلًّى يَخْرُجُ النَّاسُ إِلَيْهِ — رَغبةً في شَرَفِ البُقْعةِ وفَضْل بَركتِها، وفَضلِ صَلاةِ الإمامِ خَلْفَ المَقامِ ومَنْ يَأْتَمُّ به. فأَوَّلُ من بَكَر الشَّيْبِيُّونَ، وفَتَحُوا باب الكعْبَةِ المُقَدَّسةِ، وأَقامَ زعيمُهم

جالسًا في العَتَبَةِ المُقدسةِ وسائرُ الشَّيبِيِّينَ داخلَ الكعبةِ، إلى أن أَحسُّوا بوصولِ الأَميرِ «مُكثرٍ»، فنزلُوا إليهِ وتَلَقَّوْهُ بِمَقْرَبةٍ من بابِ النبيِّ ﷺ فانْتَهى إلى البَيْتِ المُكرَّمِ، وطافَ حَوْلَه أُسبوعًا (سبعة أَطْوافٍ) والنَّاسُ قد احْتَفَلُوا لِعيدِهِمْ، والحَرمُ قد غَصَّ بهم، والمُؤَذِّنُ الزَّمْزَمِيُّ فوقَ سَطْحِ القُبَّةِ — على الْعادةِ رافعًا صَوْتَهُ بالثَّناءِ علَيْهِ، والدُّعاءِ له، مُتَناوِبًا في ذلك مع أَخِيه. فلمَّا أَكْملَ الأَمِيرُ الأُسبوعَ (طاف سَبْعَ مرَّات)، عَمَدَ إلى مِصْطَبةِ قُبَّةِ «زمزم»، ممَّا يُقابلُ الرُّكْنَ الأَسْوَدَ، فَقَعَدَ بها، وبَنُوه عن يَمِينِه ويسارِه، ووزيرُه وحاشيَتُه وقوفٌ على رأَسِهِ. وعادَ الشَّيبِيُّونَ لِمَكانِهم من البَيْتِ المُكرَّمِ، يَلْحَظُهم النَّاسُ بأَبْصارٍ خاشِعَةٍ لِلْبَيْتِ، غابِطَةٍ لِمحَلِّهم منه، ومكانِهم من حِجابَتِهِ وسِدانَتِه.

فَسُبحان مَنْ خَصَّهم بالشَّرفِ في خِدْمَتِهِ!

وحضَرَ الأَميرَ — مِنْ خاصَّتِه — شُعَراءُ أَربعةٌ، فأَنْشدُوه، واحدًا إِثْرَ واحد، إلى أَنْ فَرَغُوا مِن إنشادِهم. وفي أَثْناءِ ذلك تَمكَّن وقتُ الصَّلاةِ (تَعَيَّنَ وَقْتُ صَلاةِ العِيدِ تَعَيُّنًا تامًّا)، وكان ضُحًى من النَّهارِ.

(١٦) خُطْبَةُ الْعِيدِ

فأَقْبلَ القاضي الخطيبُ يتَهادَى بين رايتَيْهِ السَّوْداوَيْنِ، والفرقعةُ — المتقدم ذكْرُها — أَمامَه، وقد صَكَّ الحرمَ صوتُها، وهو لابِسٌ ثيابَ سوادِه. فجاءَ إلى المَقامِ الكريمِ، وقامَ الناسُ للصَّلاةِ. فلما قضَوْها رَقِيَ المِنبرَ وقد أُلْصِقَ إلى موضِعه المُعَيَّنِ له كلَّ يومِ جُمُعَة من جِدارِ الكَعبَةِ المُكرمةِ حيثُ البابُ الكريمُ شارعٌ (قريبٌ)، فخطب خطبةً بليغةً. والمُؤَذِّنُون قُعُودٌ دُونَه في أَدراجِ المِنْبَرِ. فعند افتتاحِه فُصولَ الخُطبةِ بالتَّكْبيرِ يُكَبِّرُون بتَكْبِيره، إلى أن فَرَغَ من خُطبتِهِ. وأَقبلَ الناسُ بعضُهم على بعض، بالمصافَحَةِ والتَّسْليمِ، والتَّغافُرِ والدُّعاءِ، مَسْرُورِينَ جَذِلينَ، فَرِحين بِما آتاهُم الله من فَضْلِهِ. وبادَرُوا إلى البيتِ الكَريمِ فدخَلُوا بسَلامٍ آمِنِينَ، مُزْدَحِمينَ علَيْهِ فَوْجًا فَوْجًا، فكانَ مشْهَدًا عَظِيمًا.

وأَخَذَ الناسُ — عِندَ انْتِشارِهِم من مُصَلاَّهم، وقضاءِ سُنَّةِ السلامِ بعضِهم على بعض — في زِيارةِ الْجَبَّانةِ بالمَعْلَى، تَبَرُّكًا باحْتِسابِ الخُطا إليها، والدُّعاءِ بالرَّحْمَةِ لِمَنْ فيها مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ.

الفصل الحادي عشر

بَيْن العِيدَيْن

(١) في محلَّة «مِنًى»

وفِي يومِ السبْتِ — التاسعَ عَشَرَ من شَوَّال — صَعِدْنا إِلى «مِنًى» لُشاهَدِةِ المَناسِكِ المُعظَمةِ بها، ولُعايَنَةِ مَنزِلٍ اكْتُرِي لنا فيها إِعدادًا للمُقامِ بها أَيامَ التَّشْرِيقِ (وهِيَ الأَيَّامُ الثَّلاثَةُ الَّتِي تلِي عِيدَ الأَضْحى)، إن شاءَ اللهُ، فأَلفَيناها تَملأُ النُّفوسَ بَهجةً وانْشِراحًا: مَدينَةً عظيمَةَ الآثارِ، واسعَةَ الاِختطاطِ، عتِيقةَ الوضْعِ، قد دَرَسَتْ إلاَّ منازِلَ يَسيرَةً مُتَّخَذَةً للنُّزولِ، تَحُفُّ بجانبَيْ طريق مُمتدِّ الطُّولِ، كأَنه مَيدانٌ: انبساطًا وانفِساحًا.

(٢) مسجدُ البَيْعَةِ

فأَوَّلُ ما يَلْقَى المُتوجِّهُ إِليها — عن يسارِه وبِمَقْرَبة منها — مسجدُ البَيعَةِ المُبارَكة التي كانت أَوَّلَ بَيعة في الإسلامِ، عقَدها العَباسُ رضي الله عنه للنَّبيِّ ﷺ عَلَى الأَنصارِ.

(٣) جَمْرَة العَقَبةِ

ثُمَّ يُفضَى منهُ إِلى «جمرةِ العَقبَةِ»، وهي أَوَّلُ «مِنًى» للمُتوَجِّهِ من «مكةَ»، وعن يَسارِ المارِّ إِليها. وهي عَلَى قارِعةِ الطَّريقِ، مُرْتفِعةٌ للمتراكِمِ فيها من حَصَا الْجَمَراتِ. ولَوْلا آياتُ اللهِ البيِّناتُ فيها لكانت كالْجِبالِ الرَّوَاسِي، لِما يجتَمعُ فيها عَلَى تَعاقُبِ الدُّهورِ وتوالِي الأَزمِنَةِ. لكنْ للهِ — عزَّ وجلَّ — فيها سرٌّ كَريمٌ من أَسرارِه الخفِيَّاتِ. وعليها مَسجِدٌ مُبارَك، وبها علَمٌ مَنصوبٌ شِبهُ أَعلامِ الحَرمِ التي ذكَرناها، فيَجْعلُها الرَّامِي عن يَمِينِه،

مُستقْبِلًا «مكةَ» — شَرَّفَها اللهُ — ويَرْمي بها سَبْعَ حَصَياتٍ. وذلك يومَ النَّحْرِ إِثْرَ طُلوعِ الشمْسِ. ثم يَنحَرُ أَو يَذبَحُ وَيحلِقُ. والُمحَلَّقُ (مَوْضِعُ حَلْقِ الرَّأْسِ) حَوْلَ «مَكَّة»، والَمنْحَرُ في كلِّ موضِعٍ من «مِنًى»، لأَنَّ «مِنًى» كلَّها مَنحَرٌ (مَذْبَحٌ).

وبعْدَ هذه الجَمْرةِ العَقَبيَّةِ موضعُ «الجَمْرَةِ الوُسطَى»، ولها أَيضًا عَلَمٌ منصوبٌ. بينَهما قَدْرٌ يسيرٌ. ثُمَّ بعدَها يُلقِي الجمْرَةَ الأُولى، ومسافُتها منها كمسافةِ الأُخْرَى.

(٤) رَمْيُ الجمَرات

وفي وَقتِ الزَّوَالِ من ثاني يومِ النَّحْرِ تُرْمَى في الأُولَى سبع حَصَياتٍ، وفي الوُسطَى كذلك، وفي العَقَبةِ كذلك؛ فتلك إحدَى وعِشرون حصاةً. وفي الثَّالثِ من يومِ النَّحْرِ — في الوقتِ بعَينِه — كذلك عَلَى التَّرتيبِ المذكورِ، فتلك اثنَتانِ وأَربعُونَ حَصاةً في اليومَينِ، وسَبْعٌ رُمِيَت في العَقَبَةِ يومَ النَّحْرِ، وَقتَ طُلوعِ الشَّمسِ كما ذكَرناه، فتلك تَكْمِلةُ تِسعٍ وأَربعَين جَمْرةً.

وَفي إِثْرِ ذلك يَنْفصلُ الحاجُّ إلى «مكةَ» من ذلك اليومِ.

واختُصِرَ في هذا الزَّمانِ إحدَى وعِشرُونَ كانت تُرْمى في اليَومِ الرَّابعِ عَلَى ذلك التَّرتيبِ لاستِعجالِ الحَاجِّ، خَوفًا من العَربِ الشُّعْبيِّين (بنِي شُعْبَةَ)، إلى غيرِ ذلك من مَحذُوراتِ الفِتَنِ، الُمغَيِّراتِ لآثارِ السُّنَنِ.

فمضَى العَمَلُ اليَومَ عَلَى تِسْع وأَربَعينَ حَصاةً. وكانت في القَدِيمِ سَبعينَ. واللهُ يَهَبُ القَبولَ لعبادِه.

والصادِرُ من «عَرفاتٍ» إلى «مِنًى» أَوَّلُ ما يُلقِي: الجمْرةُ الأُولَى، ثم الوُسطَى، ثم جَمْرةُ العقَبةِ. وفي يَومِ النَّحْر تكُونُ جَمْرةُ العقَبةِ أُولَى مُنفَرِدةً بسبْعِ حَصيات — حَسْبَما تقدَّمَ ذِكْرُهُ — ولا يَشترِكُ معها سِواها في ذلك اليومِ. ثم في اليومَين بعدَه تَرجعُ الآخرةَ عَلَى التَّرتيبِ حَسْبَما وَصَفناه. وبعدَ الجمْرَةِ الأُولَى يُعَرِّجُ عن الطَّريق يَسيرًا ويلقَى مَنحَر الذَّبيحِ ﷺ حيثُ فُدِيَ بالذَّبحِ العظيمِ. وعَلَى المَوْضعِ الُمبارَكِ مَسجدٌ مَبنِيّ، وهو بمَقْرَبَة من سَفْحِ جَبلِ «ثَبِير».

(٥) مسجد الخَيْفِ

ويُفْضَى من ذلك إلى مسجدِ «الخَيْفِ»، وهو آخِرُ «مِنى» في تَوجُّهِكَ (أَعنِي آخِرِ المَعمورِ منها بالبُنْيانِ)، وأما الآثارُ القديمةُ فآخِذَةٌ إلى أَبعدِ غايةٍ أَمامَ المَسجِدِ. وهذا المَسجِدُ المُبارَكُ متَّسعُ الساحَةِ كأَكبَرِ ما يكونُ من الجوامعِ، والصَّوْمعةُ وسَطَ رَحْبَةِ المَسجِدِ. وله في القِبْلَةِ أَرْبعُ بَلاطاتٍ يَشملُها سَقفٌ واحدٌ. وهو منَ المساجِدِ الشهيرَةِ: بركةً وشرف بُقْعَةٍ. وكَفَى ما وَرَدَ في الأَثَرِ الكريمِ من أن بُقْعَتَهُ الطَّاهِرَةَ مَدْفِنُ كثيرٍ من الأَنْبِياءِ، صلواتُ الله عليهم.

وبِمَقْرَبةٍ منهُ — عن يَمِينِ المارِّ في الطريقِ — حَجَرٌ كبيرٌ مُسْنَدٌ إلى سَفْحِ الجَبَلِ، مُرْتَفِعٌ عنِ الأَرْضِ يُظِلُّ ما تَحْتَهُ. ذُكِرَ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَعَدَ تحتهُ مُسْتَظِلًّا.

(٦) العودُة إلى «مكةَ»

فلمَّا قَضَيْنا مُعايَنَةَ هذه المَشاهِدِ الكريمَةِ أَخَذْنا في الانصرافِ مُسْتَبْشِرِينَ بِما وَهَبَنا اللهُ من فَضْلِهِ في مُباشَرَتِها، ووَصَلْنا إلى «مكةَ» قريبَ الظُّهر، والحمدُ للهِ على ما منَّ به.

(٧) غار حراءَ

وفي يومِ الأَحَدِ المُوفِي عِشرينَ لِشَوَّالٍ صَعِدْنا إلى الجَبَلِ المُقَدَّسِ «حِراءَ»، وتبرَّكْنا بمُشاهَدَةِ الغارِ في أَعلاهُ الذي كان النبيُّ ﷺ يتعبَّدُ فيه، وهو أَوَّلُ موضعٍ نزلَ فيهِ الوحيُ عليه.

(٨) صلاة الاستسقاءِ

وفي ضَحْوَةِ يومِ الثُّلاثاءِ الثاني والعِشْرِينَ منه اجتَمَعَ الناسُ كافةً للاسْتِسْقاءِ تُجاهَ الكعبةِ المُعَظَّمَةِ، بَعد أن نَدَبَهُمُ القاضي إلى ذلك، وحَرَّضَهُم على صيامِ ثلاثةِ أَيَّامٍ قَبْلَه. فاجتَمَعُوا في هذا اليومِ الرابعِ، وقد أَخلَصُوا النِّيَّاتِ للهِ عزَّ وجلَّ. وبَكَر الشَّيْبِيُّونَ ففتَحوا البابَ المُكَرَّم من البيتِ العتيق. ثُمَّ أَقبلَ القاضي بينَ رايتَيْهِ السوْداوَيْنِ لابسًا ثيابَ البَياضِ، وأُخْرِجَ مَقامُ الخليل إِبراهيمَ ﷺ، وَوُضِعَ على عتَبةِ بابِ البيْتِ المُكرَّم، وأُخرِجَ مُصحَفُ «عثمان» رضيَ اللهُ عنهُ — من خِزانَتِهِ، ونُشِرَ بإِزاءِ المَقامِ المُطَهَّرِ، فكانتْ دَفَّتُهُ الواحِدةُ عليهِ، والثَّانيَةُ على الباب الكريمِ.

ثُمَّ نُودِيَ فِي النَّاسِ بالصَّلاةِ جامعةً. فصلَّى الْقاضى بهِم — خَلْفَ موضِعِ المَقام المُتَّخَذِ مُصَلًّى — رَكعتَيْنِ، قرأ في إِحْداهُما بِسُورَةِ «سَبِّح اسْمَ رَبِّك الأَعْلَى»، وفي الثانية بِسُورَة «الغَاشِيَةِ»، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ — وقد أُلْصِقَ إلى مَوْضِعِهِ المَعْهُودِ من جدارِ الكَعْبَةِ المُقدَّسَةِ — فَخَطَب خُطْبَةً بليغةً والَى فيها الاستغفارَ، ووَعَظ الناسَ وذكَّرَهُم وخَشَّعَهُم، وحَضَّهُم على التَّوْبةِ والإنابةِ للهِ — عزَّ وجلَّ — حتَّى نَزَفَتْ دَمْعَها العُيونُ، واستَنْفَدَتْ ماءَها الشُّؤُونُ، وعَلا الضَّجِيجُ، وارتفَعَ الشَّهِيقُ والنَّشِيجُ؛ وحوَّل رِداءَهُ، وحوَلَ النَّاسُ أَردِيَتَهُمْ، اتِّباعًا للسُّنَّةِ.

(٩) أيام الاستسقاءِ

ثُمَّ انْفَضَّ الجَمْعُ راجِينَ رَحمةَ اللهِ، غيرَ قانِطينَ منها، واللهُ يتلافَى عِبادَه بِلُطْفِهِ وكَرَمِهِ. وتَمادَى اسْتِسْقاؤُه بالنَّاس ثلاثةَ أَيَّام متَواليَةٍ — عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ — وقد نالَ الجَهْدُ (المَشَقَّةُ) من أَهل الْحِجازِ وأَضَرَّ بهم القَحْطُ، وأَهْلَكَ مَواشِيَهم الجَدْبُ. لم يُمْطَروا في الرَّبِيعِ، ولا الخريفِ، وَلا الشِّتاءِ، إلاَّ مَطرًا طَلًا (قَلِيلًا) غيرَ كافٍ ولا شافٍ. واللهُ لَطيفٌ بعبادِه، غيرُ مُؤاَخِذِهم بِجَرائِمِهمْ، إِنَّهُ الحَنَّانُ المَنَّانُ.

(١٠) على جبل «ثوْر»

وفي يومِ الْخميسِ الرَّابِعِ والعشرينَ من شوَّال صَعِدْنَا إِلى جَبل ثَوْرٍ لِمُعايَنةِ الغارِ المُبارَكِ الذي أَوَى إِليه النبيُّ ﷺ مع صاحبِهِ الصِّدِّيقِ — رَضيَ اللهُ عنهُ — حَسْبَما جاءَ في مُحْكَمِ التَّنْزيلِ العزيزِ، وقد ولَجْنا هذا الغارَ. وهذا الجبلُ صَعْبُ المُرْتَقَى جدًّا يُقَطِّعُ الأَنْفاسَ تَقْطيعًا، لا يكادُ يُبْلَغُ مُنْتهاهُ إلاَّ وقد أُلْقِيَ بالأَيْدِي إِعْياءً وكَلالًا، وهُو من «مكةَ» عَلَى مِقدار ثلاثةِ أَميالٍ.

وفي يومِ الجُمُعةِ بعدَه، وَصلَ السَّرْوُ اليمنِيُّونَ في عَدد كثير مُؤَمِّلين زِيارَةَ قَبْرِ الرَّسولِ، وجَلبوا مِيرَةً (زادًا) إلى «مكةَ» عَلَى عادَتِهم. فاسْتَبْشَرَ الناسُ بقُدومِهمُ اسْتِبْشارًا كثيرًا، حتى إنَّهم أَقاموهُ عِوَضَ نُزولِ المَطرِ. ولطائِفُ اللهِ لسكانِ حَرَمِهِ الشريفِ واسعةٌ، إنهُ — سُبْحانهُ — لطيفٌ بعبادِه، لا إِله سِواهُ.

(١١) مولد النبي

استهلَّ هلالُ ذِي القَعْدَةِ ليلةَ الأَرْبِعاءِ. وهذا الشهرُ المُبارَكُ ثانِي الأَشهُرِ الحُرُمِ وثاني أَشهُرِ الحَجِّ. وفي يومِ الإثنين — الثالثَ عشرَ منهُ — دخلْنا مولدَ النبيِّ، وهو مسجدٌ حفيلُ البُنْيانِ، وكانَ دارً لعبدِ الله بنِ عبدِ المُطَّلب: أَبي النبيِّ. ومولدُه ﷺ شِبْهُ صَهْرِيجٍ صغير سَعَتُه ثلاثةَ أَشْبار، وفي وَسَطِه رُخامةٌ خَضْراءُ سَعَتُها ثُلُثا شِبرٍ مُطوَّقةٌ بالفِضَّة. فتكونُ سَعَتُها — مع الفِضَّةِ المُتَّصِلَةِ بها — شِبْرًا. وهوَ مَسْقَطٌ لأَكْرَمِ مولود عَلَى الأَرْض، ومَمَسٌّ لأَطهَر سُلالَةٍ وأَشْرَفها. وبإِزائِهِ مِحْرابٌ حفيلُ القَرْنَصَةِ (كَثيرُ الزُّخْرُفِ) مرسومةٌ طُرَّتُه (جانِبُهُ المُقَدَّمُ) بالذَّهَبِ. وهذا المَوْضِعُ المُبارَكُ هو شَرْقِيُّ الكعبةِ مُتَّصِلٌ بِسفْحِ الجَبَل. ويُشْرِفُ عليهِ بمَقْرَبةٍ منهُ جبلُ «أَبي قُبَيْس» وعَلَى مقرَبة منهُ أيضًا مسجِدٌ مكتوبٌ عليهِ: هذا المَسجدُ هوَ مولودُ عليِّ بن أبي طالب رضوانُ اللهِ عليه، وفيه تَرَبَّى رسُولُ اللهِ ﷺ وكانَ دارًا لـ«أَبي طالبٍ» عمِّ النبيِّ وكافِلِهِ.

(١٢) قبة الوحي

ودخلتُ أَيضًا دارَ «خَديجةَ» الكُبرَى — رَضْوانُ اللهِ عليها — وفيها قُبَّةُ الوَحْيِ. وفيها أَيضًا مَوْلِدُ «فاطمةَ» —رضي الله عنها — وهو بيتٌ صغيرٌ مائِلٌ للطُّولِ. والمَوْلِدُ شِبْهُ صِهْرِيجٍ صَغِيرٍ، وفي وَسَطِهِ حَجَرٌ أَسْوَدُ. وفي ذلك البيتِ موْلِدُ «الحسَنِ» و«الْحُسَيْنِ» ابنَيْها — رضيَ اللهُ عنهما — وهُوَ لاصِقٌ بالجدارِ؛ ومَسْقَطُ شِلْوِ «الحَسَن» لاصِقٌ بِمَسْقَطِ شِلْوِ الحُسَينِ (والشِّلْوُ: الْجَسَدَ).

وعليهما حجرانِ مائِلانِ إلى السوادِ، كأَنَّهما علامَتانِ لِلْمَوْلِدَيْنِ.

(١٣) مواطنُ كريمَةٌ

وفي الدارِ المُكرَّمةِ أَيضًا مُخْتَبَأُ النبيِّ ﷺ شَبِيهُ القُبَّةِ. وفيهِ مَقْعَدٌ في الأَرْضِ عميقٌ شَبيهُ الحُفْرَةِ، داخلٌ في الجدارِ قليلًا. وقد خرجَ عليه منَ الجدارِ حجرٌ مبْسوطٌ، كأَنَّه يُظِلُّ المَقْعَدَ. قيلَ إِنهُ الحجرُ الذي غَطَّى النبيَّ عند اختبائِهِ في ذلك المَوضِعِ. وعَلَى كلِّ واحد —

من هذه المَوالِيد — قُبَّةُ خَشَبٍ صغيرةٌ تصونُ المَوضِعَ، غيرُ ثابتةٍ فيهِ، فإذا جاءَ المُبْصِرُ لها نَحَّاها، ولَمَسَ الموضِعَ الكريمَ، وتَبَرَّك بهِ، ثم أَعادها عليه.

(١٤) زعيم الشَّيْبِيِّينَ

وفي يومِ الْجُمُعَةِ — الرابعِ والعِشْرِينَ من ذِي القَعْدَة — نَفَذَ أَمْرُ الأَميرِ «مُكَّثِرٍ» بالقَبْضِ عَلَى زعيمِ الشَّيْبِيِّينَ «مُحمدِ بن إسماعيل»، وانتهاب منزلِهِ وصرْفِهِ عنْ حِجابَةِ البيتِ الحرامِ. وذلك لِهَناتٍ (لأَشْياءَ) نُسِبَتْ إِليهِ، لا تليقُ بِمَن نِيطَتْ به سِدَانَةُ البيتِ العتيقِ (ومَنْ يُرِدْ فيهِ بِإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ). أَعاذَنا الله من سُوءِ القَضاءِ، ونفوذِ سِهامِ الدُّعاءِ. وفي هذهِ الأَيامِ السالِفَةِ من الشهر المَذكورِ توَالى مَجيءُ السَّرْوِ اليَمَنيِّينَ — في رِفاق كثيرة — بالمِيرَةِ من الطَّعامِ وسواهُ، وضُروبِ الإدامِ والفواكِهِ اليابِسَةِ، فأَرْغَدُوا البَلَدَ (وسَّعُوا أَرزاقه وأَخْصبُوه). ولَوْلاهُم لكانَ من اتِّصالِ الجَدْبِ وغَلاءِ السِّعْرِ في جَهْدٍ ومَشَقَّةٍ، فَهُمْ رحمةٌ لهذا البَلَدِ الأَمِين.

(١٥) زُوَّار «طَيْبَةَ»

ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلى زِيارَةِ التُّرْبَةِ المباركةِ «طَيْبَةَ» مَدْفِنِ رسولِ الله ﷺ، ووصلوا في أَسْرَعِ مُدَّةٍ. قطَعُوا الطَّريقَ من «مَكَّة» إلى «المَدينَةِ» في أَيَّامٍ يَسِيرةٍ، ومن صَحِبَهم من الحاجِّ حَمِدَ صُحْبَتَهُمْ.

(١٦) أَفواج اليمن

وفي أَثْناءِ مغِيبِهم وَصَلَتْ منهم طوائِفُ أُخَرُ للحجِّ خاصَّةً — لضيق الوَقْتِ عنِ الزِّيارة — فأَقامُوا بـ«مكةَ»، ووصلَ الزُّوارُ منهم، فضاقَ بهم المُتَّسَعُ. فلمَّا كانَ يومُ الإِثْنَيْنِ — السَّابعِ والعِشْرينَ من الشهر — فُتِحَ «البَيْتُ العَتِيقُ»، وتَولَّى فَتْحَه من الشَّيْبِيِّينَ ابنُ عم الشَّيبيِّ المَعْزُولِ، وهوَ أَمْثَلُ طريقةً منه على ما يُذْكَرُ.

فازدَحمَ السَّرْوُ للدُّخولِ، عَلَى العادَةِ. فجاءُوا بأَمرٍ لم يُعْهَد فيما سلَف: يَصعَدُون أَفْواجًا حتى يَغَصَّ البابُ الكريمُ بهم، فلا يَسْتَطِيعونَ تَقَدُّمًا ولا تأَخُّرًا، إلى أن يَلِجُوا

على أَعْظَمِ مَشَقَّة. ثُمَّ يُسْرِعُونَ الخروجَ فيضيقُ البابُ الكريمُ بهم. فينحدِرُ الفوجُ منهم على المَصْعَدِ، وفوجٌ آخَرُ صاعدُهُ، فيلْتَقِيه وقد ارتبَطَ بعضُهم إلى بعضٍ. فرُبَّما حُمِل المُنْحَدِرُون في صُدُورِ الصَّاعِدِينَ، وربَّما وقَفَ الصَّاعِدُونَ للمُنْحَدِرينَ وتضاغطُوا إلى أَن يَميلوا، فيقعَ البعضُ على البعضِ. فيُعاينُ النَّظَّارَةُ منهم مَرْأًى هائِلًا. فمنهم سَلِيمٌ ومنهم غيرُ سليمٍ.

وأَكْثَرُهم إِنَّما ينْحَدِرون وَثْبًا عَلَى الرءُوسِ والأَعناقِ.

(١٧) أَعجب ما رأَينا

ومن أعجبِ ما شاهَدْناهُ في ذلك اليَوْم أَن صَعِدَ بعض من الشَّيْبِيِّينَ — في أَثناءِ ذلكَ الزِّحامِ — يَرُومُون الدُّخُولَ إلى البَيْتِ الكريمِ. فلَمْ يَقدِرُوا على التخلُّصِ، فتعلَّقوا — منْ عَضادتَي البابِ (وهُما: خَشَبتاهُ مِنْ جانِبه) — بأَسْتارِ حافَتَيْهِما. ثُمَّ إِنَّ أَحدَهُم تَمَسَّكَ بإِحْدَى الشَّرائِطِ القِنَّبِيَّةِ (الكَتَّانيَّةِ) — وهذه الشَّرائطُ مُمْسِكة للأَستار — إلى أن علاَ الرُّءُوسَ والأَعناقَ فوطِئَها، ودخلَ البيْتَ فلَم يَجِدْ مَوْطِئًا لِقَدَمِه سِواها، لِشِدَّةِ ازدحامِهم، وتَراصِّهِمْ وتَراكُمِهِم، وانْضِمامِ بَعْضِهِم إلى بَعْضٍ.

وهذا الجَمْعُ الذي وَصلَ منهُمْ في هذا العامِ لم يُعْهَدْ قَطُّ مِثْلُهُ فيما سلَف من الأَعوام. ولله القُدْرَةُ المُعْجِزَةُ.

(١٨) إِحرام الكعبة

وفي هذا اليومِ (الذي هو السابعُ والعِشرُونَ من ذِي القَعْدَةِ) شُمِّرَتْ أَسْتارُ الكعبَةِ المُقَدَّسَةِ إلى نَحْوِ قامَةٍ ونصفِ قامةٍ — من الجُدْر — من الجوانبِ الأَرْبَعَةِ. ويُسَمُّونَ ذلك إحْرامًا لها، فَيَقولون: «أَحرَمَتِ الكعبةُ»، وبهذا جَرَتِ العادَةُ دائمًا في مِثْلِ هذا الوقْتِ من الشَّهْرِ. ولا تُفْتَحُ مِنْ حِينِ إِحْرامِها إلاَّ بَعْدَ الوَقْفَةِ.

فكأَنَّ ذلك التَّشْمِيرَ إِيذانٌ بالتَّشْمِيرِ للسَّفَرِ، وإيذانٌ بقُرْب وقْتِ وَداعِها المُنْتَظَرِ.

لا جعلَهُ اللهُ آخِرَ وَداعٍ، وقَضى لنا إِليها بالعودَةِ، وتَيْسِير سَبيل الاستِطاعَةِ، بِعِزَّتِهِ وقُدْرَتِه.

(١٩) زَوْرَة الوَداع

وفي يومِ الجُمُعَةِ الرَّابعِ والعشرينَ قبلَ هذا اليومِ، كان دُخولُنا إلى البَيْتِ الكريمِ على حالِ اخْتِلاس وانتهاز فُرصَة أَوجدَتْ بعضَ فُرجَةٍ من الزِّحامِ. فدخَلْناه دُخُولَ وَداعٍ، إذ لا يُتَمَكَّنُ دُخُولُه — بعد ذلك — لِتَرادُفِ الناسِ عليهِ — ولا سِيَّما الأَعاجِمُ الواصِلُون مع الأَمير العِراقِيِّ. فإِنَّهم يُظْهِرون — من التَّهافُتِ عليْه، والبِدار إِلَيهِ، والازْدِحام فيهِ — ما يُنْسِي أَحوالَ السَّرْو اليَمَنِيِّين، لفَظاظَتِهم وغِلْظَتِهم. فلا يَتَمَكَّنُ لأَحَدٍ مِنْهُم النَّظَرُ، فَضْلًا عن غيرِ ذلك. واللهُ — عزَّ وجلَّ — لا يجعَلُهُ آخِرَ العهْدِ ببَيْتِه الكريمِ، ويَرْزُقُنا العَودَ إلَيهِ على خَيْرٍ وعافية.

(٢٠) قبة الحديد

وفي يومِ إِحْرام الكَعبةِ المَذكُورِ، أُقلِعَت — عن موْضِعِ المَقامِ المُقَدَّسِ — القُبَّةُ الخشبيَّةُ التي كانت عليهِ، ووُضِعَت — عِوَضَها — قُبَّة الحَديد، إِعدادًا للأَعاجمِ. لأَنها لو لَم تكُن حَديدًا لأَكلُوها أَكلًا، فَضلًا عن غَيرِ ذلك، لِما هُم عليه من صِحةِ النُّفوسِ — شَوقًا إلى هذه المَشاهدِ المُقَدَّسةِ — وتَطارُحِهم بجُسومِهم عليها.

واللهُ يَنفَعُهم بِنيَّاتِهِم.

(٢١) الزعيم المَعزول

وفي يومِ الثُّلاثاءِ الثَّامنِ والعِشرينَ من الشهْرِ، جاءَ زَعيمُ الشَّيْبِيِّينَ المَعزولُ يتَهادَى بين بَنِيهِ — زَهْوًا وإِعجابًا — ومِفتاحُ الكَعبةِ المُقدَّسَةِ بيَدِه قد أُعِيدَ إليه. ففَتح البابَ الكَريمَ، وصَعِدَ مع بَنِيهِ السَّطحَ المُبارَكَ الأَعْلَى، بأَمراسٍ من القِنَّبِ غَليظةٍ (حِبالٍ من الكَتَّانِ)، وقد أَوثَقوا تلك الحِبالَ في أَوتادِ الحديدِ المَضْرُوبةِ في السَّطحِ، وأَرسَلوها إلى الأَرضِ. فيُرْبَطُ فيها شَبيهُ مَحمِلٍ من العُود (الْخَشب)، ويجلِسُ فيه أَحدُ سَدَنَةِ البيتِ من الشَّيْبِيِّينَ، فيُصعَدُ به عَلى بَكَرَةٍ مُعَدَّةٍ لذلك، في أَعلى ذلك السَّطحِ، فيتَولَّى خِياطَةَ ما مزَّقَتهُ الرِّيحُ من الأَسْتارِ.

(٢٢) ثمَنُ الوظيفة

فسأَلْنا: كَيف عادَ هذا الشَّيبِيُّ المَعزُولُ إِلى وظِيفتِهِ، وصُرِفَ إلى خُطَّتِهِ، عَلَى صِحَّةِ الهَناتِ المَنسوبَةِ إِليهِ؟ فأُعْلِمْنا: أَنه صُودِرَ عليها بخَمْسِ مئة دينارٍ مَكِّيَّةٍ استَقْرَضَها ودَفَعها.

فطالَ التَّعجُّبُ من ذلك. وتحقَّقْنا أَنَّ إِظهارَ القَبْضِ عليه لم يكُنْ غَيْرَةً ولا أَنَفَةً عَلَى حُرُماتِ اللهِ المُنتهَكَةِ عَلَى يدَيهِ. والحالُ تُشبِهُ بعضُها بعضًا. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وإِلى اللهِ المُشتكَى من فَسادٍ ظَهرَ — حتى في أَشرَفِ بِقاعِ الأَرضِ — وهو حَسْبُنا ونعْمَ الوكِلُ!

(٢٣) آثارٌ جليلة

وفي يومِ الأَرْبعاء التاسِعِ والعِشْرِينَ مِنْ ذي القَعْدَةِ المَذكورِ، دخَلْنا دارَ الخَيْزُرانِ التي كانَ مِنها منْشَأُ الإِسْلامِ. وهِي بإِزاءِ «الصَّفا»، ويُلاصقُها بَيْتٌ صَغيرٌ — عَن يَمينِ الدَّاخِلِ إِلَيْها — كان مَسكَنَ «بِلالٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وبالقُرْبِ مِنْها بُيُوتٌ لِلْكِراءِ من الحاجِّ.

وهذه الدَّارُ المُكَرَّمَةُ دارٌ صغيرةٌ، وهي مجدَّدةُ البِناءِ.

وعن يَمِينِ الدَّاخِلِ إِلَى هذِهِ الدَّار بابٌ يُدْخَلُ مِنه إِلى قُبَّةٍ كَبيرة بديعةِ البِناءِ، فيها مقَعْدُ النَّبيِّ والصَّخْرَةُ التي كان إِليْها مُسْتَنَدهُ. وعنْ يَمينِ المَقْعَدِ موضعُ «أَبِي بَكْر الصِّدِّيق»، وعَنْ يَمين «أَبي بكرٍ» موضِعُ «عَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ».

والصَّخْرَةُ التي كان إِليها مُستَنَدُهُ، هِيَ داخِلَةٌ في الجِدار شِبْهُ المِحراب.

وفي هذِهِ الدَّارِ كانَ إِسْلامُ «عُمَرَ بنِ الخَطَّاب»، ومنها ظَهَرَ الإِسْلامُ على يَدَيْهِ، وأَعزَّهُ اللهُ بِه.

الفصل الثاني عشر

عرفات

(١) ارتقاب الهِلال

استَهلَّ هلالُ ذِي الحِجَّةِ ليلةَ الخميسِ بِمُوافَقَةِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ مارسَ. وكان للنَّاسِ في ارتِقابِهِ أَمْرٌ عَجيبٌ، وَشأْنٌ من البُهْتَانِ غريبٌ، ونُطْقٌ من الزُّورِ كادَ يُعارِضُهُ مِنَ الجَمادِ — فضْلًا عن غيرِهِ — رَدٌّ وتَكذِيبٌ.

وذلك أنهمُ ارتَقَبُوه — ليلَةَ الخَمِيس المُوفِّي ثَلاثِينَ — والأُفُقُ قد تراكَمَ غَيْمُه، إِلى أن عَلَتْهُ — مع المَغِيبِ — بعضُ حُمْرَةٍ من الشَّفَقِ.

فَطَمِعَ النَّاسُ في فُرْجَةٍ من الغَيْمِ، لعلَّ الأَبْصارَ تَلْتَقِطُهُ فيها.

(٢) تسرُّع العامَّة

فَبَيْنما هُمْ كَذلك إذ كَبَّر أَحَدُهُم، فكَبَّرَ الجَمُّ الغَفِيرُ لِتَكْبِيرِه، ومَثَلُوا قِيامًا، يَنْظُرُونَ ما لا يُبْصِرُون، ويُشِيرُون إِلى ما يَتَخَيَّلُونَ، حِرْصًا منهم عَلَى أَن تكونَ الوَقْفَةُ بِعَرَفاتٍ يومَ الجُمُعَةِ، كأَنَّ الحجَّ لا يرتَبِطُ إلا بهذا اليومِ بِعَيْنِهِ.

فاختلَقُوا شَهاداتٍ زُوريَّةً، ومَشَتْ منهم طائِفَةٌ من المَغارِبَةِ — أَصْلَحَ الله أَحْوالَهم — ومن أَهْلِ مصْرَ وأَربابها. فشَهِدُوا عندَ القاضِي برؤْيَته. فردَّهم أَقْبَحَ رَدٍّ، وجرَّح شَهاداتِهم أَسوَأَ تَجْرِيح، وفَضَحَهُمْ في تَزْيِيفِ أَقْوالِهم أَخْزَى فَضِيحَةٍ، وقالَ: «يا للْعَجَب! لو أَن أَحَدَهُمْ يشْهَدُ برُؤْيتِهِ الشَّمْسَ — تحتَ ذلك الغَيْمِ الكَثِيفِ النَّسْجِ — لَما قَبِلْتُهُ. فكيفَ بِرُؤْيَةِ هِلالٍ هو ابْنُ تِسعٍ وعشرِينَ لَيْلَةً؟».

وكانَ أَيضًا مِمَّا حُكِيَ من قَوْلِه: «تَشَوَّشَت المَغارِبُ (اضطرب أَمْر المَغارِبَة): تَعَرَّضَتْ شَعْرَةٌ من الحاجِبِ، فأَبْصرُوا خَيالًا ظَنُّوه هِلالًا» (يَعْنِي أَنَّ شعرةً من حاجِبِ الرَّائي لاحَتْ أَمامَ عَيْنَيه، فحسِبها لاستدارتها هلالا).

(٣) ظُهورِ الهِلال

وكانَ لهذا القاضِي: «جمالِ الدينِ» —في أَمرِ هذه الشَّهادَةِ الزُّورِيَّةِ — مَقامٌ من التَّوَقُّف والتَّحَرِّي، حَمِدَه له أَهْلُ التَّحْصيل، وشكَرهُ عليهِ ذَوُو العُقولِ، وحُقَّ لهم ذلكَ، فإِنَّها مَناسِكُ الحَجِّ لِلْمُسْلِمين أَتوْا لها من كلِّ فَجٍّ عميق. فلَوْ تُسُومِحَ فيها بَطَلَ السَّعْيُ، وفالَ الرَّأْيُ (فَسَدَ). واللهُ يَرْفَعُ الالتِباسَ والباسَ بِمَنِّهِ.

فلَمَّا كانت ليلَةُ الجُمُعَةِ، ظهرَ الهلالُ — في أَثناءِ فُرَجِ السَّحاب — وقدِ اكتَسَى نُورًا من الثَّلاثينَ لَيلَةً، فزَعَقَتِ العامَّةُ زَعَقاتٍ هائلَةً، وتَنادَتْ بِوَقْفَةِ الجُمُعَةِ، وقالتِ: «الحمدُ للهِ الذي لم يُخَيِّبْ سَعْينا، ولا ضَيَّعَ قَصْدنا»، كأَنَّهم قدْ صَحَّ عندَهُم أَنَّ الوَقْفَةَ إذا لم تكُنْ تُوافِقُ يوْمَ الجُمُعَةِ لَيْسَتْ مَقْبولةً، ولا الرَّحْمَةُ فِيها من اللهِ مَرْجُوَّةً مأْمُولَةً. تعالى الله عن ذلِكَ عُلوًّا كَبيرًا.

(٤) قرارُ القاضي

ثُمَّ إِنَّهم — يومَ الجُمُعَةِ المذكُورة — اجْتَمَعُوا إلى القاضِي، فأَدَّوْا شَهاداتٍ بِصِحَّةِ الرُّؤْيةِ تُبْكِي الحقَّ وتُضْحِكُ الباطلَ.

فَردَّها وقال: «يا قَومُ: حَتَّامَ هذا التَّمادي في الشَّهْوَةِ، وإِلامَ تَستَنُّونَ (تُسْرعون في الجَرْي) في طُرُقِ الهَفْوةِ»، وأَعلَمَهُم أَنه قد استَأْذَن الأَميرَ «مُكْثِرًا» في أَن يكونَ الصُّعودُ إِلى «عرَفاتٍ» صَبيحَةَ يومِ الجُمُعَةِ، فيَقِفُوا عَشِيَّةً بها. ثم يَقِفُوا صَبيحَةَ يومِ السبْتِ بعْدَه، ويَبيتُوا ليلةَ الأحدِ بـ«مُزْدَلِفَةَ»، فإن كانت الوقْفةُ يومَ الجُمُعَةِ، فما عليهم في تأخيرِ المَبيت بـ«مُزْدَلِفَةَ» بأْسٌ؛ إذ هو جائزٌ عند أَئِمَّةِ المُسْلِمينَ. وإن كانت يَومَ السبْتِ فبِها ونِعْمَت (فَنِعْمَ ذلك). وأَمَّا أن يَقَعَ القَطْعُ بها يَومَ الجُمُعَةِ فتَغريرٌ بالمُسلِمينَ، وإِفْسادٌ لمَناسِكِهِم، لأَنَّ الوَقْفَةَ يومَ التَّرْويَةِ عِندَ الأَئِمَّةِ غيرُ جائِزَة، كما أَنها جائِزَةٌ يومَ النَّحْرِ.

فَشَكَر جَميعُ مَن حضَر للقاضِي هذا المَنْزِعَ من التَّحقِيقِ، ودعَوا له، وأَظهَرَ مَنْ حَضَر مِنَ العامَّة الرِّضا بذلك، وانصَرَفُوا عنْ سَلامٍ.

(٥) موسم الحج

وهذا الشَّهْرُ المُبارَكُ هُوَ ثالِثُ الأَشْهُرِ الحُرُمِ، وعَشْرُهُ الأُولَى مُجْتَمعُ الأُمَمِ، ومَوْسِمُ الحَجِّ الأَعْظَمِ، شَهْرُ العَجِّ (النِّداء) والثَّجِّ (السَّيْل)، ومَلتقَى وفودِ اللهِ منْ كلِّ أَوْب وفَجٍّ، مَهْبِطُ الرَّحْمَةِ والبَرَكاتِ، ومَحلُّ المَوْقِفِ الأَعْظَم بـ«عَرَفاتٍ»، جَعَلَنا اللهُ مِمَّن فازَ فيه بالحَسَناتِ، وتعرَّى به من ملابِسِ الأَوْزارِ والسَّيِّئات، إنَّهُ أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ.

والأَميرُ العِراقِيُّ مُنْتَظِرٌ لِكَشْفِ هذا الشَّكِّ عنِ النَّاسِ في أَمْرِ الهِلالِ، لعلَّهُ قد اتَّضَحَ له اليقينُ فيه إنْ شاءَ الله.

وفي سائِر هذه الأَيَّام كلِّها — إلى هَلُمَّ جرًّا — تَصِلُ رِفاقٌ من السَّرْو اليَمَنِيِّينَ، وسائِر حُجَّاجِ الآفاقِ، لا يُحْصِي عددَها إلاَّ اللهُ مُحْصِي آجالِها وأَرزاقِها.

ومن أَوَّلِ هذا الشهرِ المُبارَكِ ضُرِبَتْ دَبادِبُ الأَمير بُكْرَةً وعَشِيَّةً، وفي أوقاتِ الصَّلواتِ، كأَنَّها إشْعارٌ بالمَوْسِمِ، ولا يزالُ كذلك إلى يوم الصُّعودِ إلى «عرفاتٍ».

(٦) الأَمير الهارب

وفي يومِ الإثْنَيْنِ الخامِسِ — أَو الرابعِ — من هذا الشهرِ، وصلَ الأميرُ «عُثْمانُ بنُ عَلِيٍّ» صاحِبُ «عَدَنٍ»: خرجَ منها فارًّا أَمامَ «سَيْفِ الإسلامِ» المُتَوَجِّهِ إلى اليَمَنِ، وَرَكِبَ البحرَ في مَراكِبَ كثيرَةٍ، مَشْحُونَةٍ بأَحوالٍ عظيمةٍ، وأَموالٍ لا تُحْصَى كَثْرَةً لأَنَّهُ طالُ مُقامُهُ في تلك الولايةِ، واتَّسَعَ كَسْبُهُ.

وعندَ خُرُوجِهِ من البحرِ لَحِقَتْ مراكِبَهُ حَراريقُ (سُفُنُ) الأمير سيفِ الإسلامِ، فأَخَذَتْ جميعَ ما فيها من الأَثْقال. وكان قد اسْتَصْحَبَ الْخِفَّ (الخفيف) النفيسَ الخطِيرِ معَ نفسهِ إلى البَرِّ — وهو في جُمْلَةٍ من رِجالِه وعَبِيده — فَسَلِمَ بهِ، وَوَصَل إلى «مَكَّة» بعيرٍ مُوقَرَةٍ (جِمالٍ مُثْقَلَةٍ) مَتاعًا ومالًا، دَخَلَتْ — عَلَى أَعْيُنِ الناس — إلى دارِه التي ابْتَنَاها بها، بعد أَن قَدَّمَ دنانيرَه وَذَهَبُهُ وَنفيسَ ذَخائِرِه وجُمْلَةَ رَقِيقِهِ (عبيدِه) وخَدَمِهِ لَيلًا.

وبالْجُمْلَةِ فحالُهُ لا تُوصَفُ: كَثْرةً واتِّساعًا، والذي انْتُهِبَ له أَكثرُ، لأَنهُ كان في ولايتهِ يُوصَفُ بِسُوءِ السِّيرَةِ معَ التُّجَّارِ. وكانَتِ المَنَافِعُ التِّجارِيَّةُ كلُّها راجِعَةً إِليهِ، والذَّخائِرُ الهِنْدِيَّةُ المَجْلُوبَةُ كلُّها واصِلَةً إلى يَدَيْهِ. فاكتَسَبَ سُحْتًا عظيمًا (مالًا حَرامًا)، وحَصَل عَلَى كُنوزٍ قارُونيَّةٍ. لكنَّ حوادثَ الأيَّامِ قد ابْتَدَأَتْ بالْخَسْفِ بهِ، ولا يُدْرَى حالُ أَمْرِهِ مع «صلاحِ الدِّين» لِما يكونُ.

والدُّنْيا مُفْنِيَةٌ مُحِبِّيها، وآكِلَةٌ بَنِيها، وثَوابُ اللهِ خيرُ ذخِيرَةٍ، وطاعَتُهُ أَشْرَفُ غَنِيمَة.

(٧) الأَميرُ العِراقِيُّ

وبَقيتِ الشَّهَادة مضطَربة — في أَمْرِ هذا الهِلالِ المُبارَكِ المَيْمُونِ — إلى أَن تَواصَلَت الأَخبارُ برُؤْيَتِه لَيْلَةَ الخميسِ الذي يُوافِقُ الخامِسَ عَشَرَ من مارِسَ. شهِدَ بذلك ثِقاتٌ من أَهلِ الزُّهْدِ والوَرَعِ: يَمنِيُّونَ وسِوَاهُم من الواصلينَ من المدينةِ المكرَّمَةِ. لكنْ بَقِيَ القاضِي على ثَباتِهِ وتَوَقُّفِهِ في القَبُولِ، وأَرْجَأَ الأَمْرَ إلى وصولِ المُبَشِّرِ المُعْلِمِ بِقُدومِ الأَميرِ العِراقِيِّ؛ لِيَتَعَرَّفَ — من قِبَلِهِ — ما عندَ أَميرِ الحاجِّ في ذلك.

فلمَّا كان يومُ الأَرْبعاءِ السَّابعُ من الشهرِ، وصل المُبَشِّرُ. وكانت نُفُوسُ أَهْلِ «مَكَّة» قد أَوْجَسَتْ خِيفَةً لِبُطْئِه، حَذَرًا من حِقْدِ الْخَلِيفَةِ عَلَى أَميرِهِمْ «مُكْثِرٍ» لِمَذْمُومِ فعلٍ صدرَ عنهُ.

فكانَ وصولُ هذا البشِيرِ أَمانًا وتَسْكِينًا للنُّفُوسِ الشَّارِدَةِ.
فوصَل مُبَشِّرًا ومؤْنِسًا، وأَعْلَمَ بِرُؤْيةِ الهلالِ لَيْلَةَ الخَمِيسِ.

(٨) خطبةُ القاضي

وتواتَرَتِ الأَنْباءُ بذلك، فصحَّ الأَمرُ عند القاضي صِحَّةً أَوْجَبتْ خُطْبَتَهُ في ذلك اليوم على ما جَرَتْ به العادَةُ؛ في اليومِ السابعِ من ذِي الحِجَّةِ إِثْرَ صَلاَةِ الظُّهْرِ، عَلَّمَ الناسَ فيها مَناسِكَهُمْ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ غَدَهُمْ هو يومُ الصُّعُودِ إلى «مِنى» وهو يومُ التَّرْوِيةِ، وأَنَّ وَقْفَتَهُمْ يومُ الجُمُعَةِ.

(٩) الصعود إلى «مِنى»

فلمَّا كان يومُ الخمِيسِ بَكَرَ الناسُ بالصُّعُودِ إلى «مِنى»، وتَمادَوْا منها إلى «عرفَاتٍ»، وكانت السُّنَّةُ المَبيتَ بها، لكنْ تَرَكَ الناسُ ذلك اضْطِرارًا، بسببِ خوْف بَني شُعْبَةَ المُغِيرينَ علَى الحُجَّاجِ في طرِيقهِم إلى «عرفاتٍ».

(١٠) شجاعة الأَمير «عثمانَ»

وصدَرَ عن هذا الأَميرِ «عُثْمانَ» المُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ في ذلكَ اجْتِهادٌ؛ بلْ جِهادٌ يُرْجى له بِهِ المَغْفِرَةُ لجميعِ خَطاياهُ إنْ شاءَ اللهُ. وذلك أَنهُ تقَدَّمَ بجميعِ أَصحابِه شاكِينَ الأَسْلِحَةَ إلى المَضِيق الذي بين «مُزْدَلِفَةَ» و«عَرفاتٍ»، وهو مَوْضِعٌ ينْحَصِرُ الطريقُ فيهِ بين جَبلَيْنِ، فَينْحَدِرُ الشُّعْبيُّونَ من أَحَدِهِما، وهو الذي عن يَسارِ المارِّ إلى «عرَفاتٍ»، فَيَنْتَهِبونَ الحاجَّ انْتِهابًا. فَضَربَ هذا الأَميرُ قُبَّةً في ذلكَ المضيقِ بين الجَبلَيْنِ، بعْدَ أن قَدَّمَ أحد أصحابِه فصَعِدَ إلى رأْسِ الجَبَلِ بِفَرَسِه، وهو جَبَلٌ كَؤُودٌ (صَعْبٌ). فعَجِبْنا من شأْنِهِ؛ وأَكْثَرُ التَّعَجُّبِ من أَمْرِ الفَرَسِ، وكَيْف تَمَكَّنَ له الصُّعُودُ إلى ذلك المُرْتَقى الصَّعْبِ. فأَمِنَ جميعُ الحاجِّ بِمُشارَكةِ هذا الأميرِ لهم. فحَصَلَ عَلَى أَجْرَيْنِ: أَجْرِ جِهادٍ، وحَجٍّ؛ لأن تأْمِينَ وَفْدِ اللهِ — عزَّ وجلَّ — في مِثْلِ ذلك اليوْمِ من أَعْظَمِ الجِهادِ. واتَّصَلَ صُعُودُ النَّاسِ — ذلك اليوْمَ كلَّهُ واللَّيْلَةَ كُلَّها إلى يَوْمِ الجُمُعَةِ كلِّهِ — فاجتَمَعَ بعَرفاتٍ منَ البَشَرِ جمعٌ لا يُحْصِي عدَدَهُ إلاَّ اللهُ.

(١١) مزدلفة

و«مُزْدَلِفَةُ» بين «مِنى» و«عَرفات» مِن «مِنى» إليْها مِثْلُ ما مِن «مَكَّةَ» إلى «مِنًى»، وذلك نَحْوُ خَمْسةِ أَمْيال، ومِنها إلى «عَرفاتٍ» مثلُ ذلك أَو أَزْيَدُ قليلًا، وتُسَمَّى «المَشْعَرَ الحَرامَ»، وتُسَمَّى «جمْعًا»، فلَها ثلاثةُ أَسْماءٍ. وقبْلَها بنَحْوِ المِيل «وادِي مُحسِّر»، وجَرَت العادَةُ بالهَرْولَةِ فيهِ. وهوَ حدٌّ بين «مُزْدَلِفَةَ» و«مِنى»؛ لأَنهُ مُعْتَرِضٌ بينهما. و«مُزْدَلِفَةُ» بسِيطٌ من الأَرْض فسيحٌ بين جبلَيْنِ، وحوْلَهُ مصانِعُ (أَحْواضٌ) وصَهاريجُ كانت للْماءِ في زَمانِ «زُبَيْدَةَ» رَحِمَها الله.

(١٢) الحِلُّ والحَرَم

وفي وَسَطِ ذلك البَسِيطِ من الأَرْضِ حَلْقٌ (وادٍ) في وَسَطِهِ قُبَّةٌ، في أَعْلاها مَسْجِدٌ يُصْعَدُ إليهِ عَلَى أَدْراج (سَلالِمَ) مِن جِهَتَيْنِ، يَزْدَحِمُ النَّاسُ في الصُّعودِ إليهِ، والصَّلاةِ فيهِ عندَ مَبيتِهِمْ بها.

و«عرفاتٌ» أيضًا بسِيطٌ من الأَرْض مَدَّ البَصَر، يُحْدِقُ (يُحيط) بذلك البَسِيطِ الأَفْيَحِ (الواسِعِ) جِبالٌ كَثيرَةٌ. وفي آخر ذلك البَسيطِ: جبلُ الرَّحْمَةِ، وفيهِ وحَوْلَهُ موْقِفُ النَّاسِ، والعَلَمانِ قَبْلَهُ بنَحْوِ المِيلَيْن. فما أَمامَ العَلَمَيْنِ إلى «عَرفاتٍ» حِلٌّ، وما دُونَهُما حَرَمٌ.



(١٣) بطن «عُرَنَة»

وبِمَقْرَبَةٍ مِنْهُما مِمَّا يَلِي «عرفاتٍ»: «بَطْنُ عُرَنَةَ» الذي أَمر النَّبيُّ ﷺ بالارْتفاعِ عنهُ في قوْلِه: «عرَفاتٌ كلُّها مَوْقِفٌ، وارْتَفِعُوا عن بَطْنِ عُرَنَةَ»، فالواقف فيهِ لا يَصِحُّ حَجُّهُ، فيَجِبُ التَّحَفُّظُ من ذلك، لأَنَّ الْجَمَّالينَ — عَشِيَّةَ الوَقْفَةِ — رُبَّما اسْتَحَثُّوا كَثيرًا من الحاجِّ، وَحذَّرُوهُم الزَّحْمةَ، واسْتَدْرَجوهُم بالعَلَمَيْنِ اللَّذَيْنِ أَمامَهُم، إلى أَن يَصِلُوا بهم «بَطْنَ عُرَنَةَ» أو يُجيزُوهُ، فَيُبْطِلوا علَى الناسِ حَجَّهُمْ. والمُتَحَفِّظُ لا يَنْفِرُ من المَوْقِفِ حتى يَتَمَكَّنَ سُقُوطُ القُرْصَةِ مِن الشَّمْسِ (تغِيبَ عَيْنُ الشَّمْس، وهُوَ وقْتُ الغُروبِ).

(١٤) جبل الرحمة

وجبَلُ الرَّحْمَةِ هذا مُنْقَطِعٌ عن الْجِبالِ، قائِمٌ في وَسطِ البَسِيطِ. وهو كلُّه حِجارَةٌ مُنْقَطِعَةٌ بَعْضُها عن بَعْضٍ. وكانَ صعبَ المُرْتَقَى، فأَحْدَثَ فيه «جَمالُ الدِّينِ» — الوزِيرُ الذي أَسْلَفْنا ذِكْرَ مآثِرِهِ — أَدْراجًا، يُصْعَدُ فيها بِالدَّوابِّ المُوقَرَةِ (المُحَمَّلَةِ)، وأَنْفَقَ فيها مالًا عَظِيمًا. وفي أَعْلَى الجَبَل قُبَّةٌ تُنْسَبُ إِلَى «أُمِّ سَلِمَةَ» رَضِيَ اللهُ عنْها، ولا يُعْرَفُ صِحَّةُ ذلك، وفي وَسَطِ القُبَّةِ، مَسْجِدٌ يتزاحَمُ النَّاسُ للصَّلاةِ فيه. وحوْل ذلك المَسجِدِ سَطْحٌ مُحْدِقٌ بِهِ، فَسيحُ السَّاحَةِ، جَمِيلُ المَنْظَرِ، يُشْرِفُ منهُ على بَسِيطِ «عرفاتٍ»، وفي جِهَةِ القِبْلَةِ منْهُ جِدارٌ، وقد نُصِبَتْ فيهِ مَحارِيبُ يُصَلِّي الناسُ فيها، وفي أَسْفَلِ هذا الجَبَلِ المُقدِّسِ — عن يَسارِ المُسْتَقْبِلِ لِلْقِبْلَةِ فيه — دَارٌ عَتِيقةُ البُنْيانِ، في أَعلاها غُرَفٌ لها طِيقانٌ، تُنْسَبُ إلى آدَمَ ﷺ. وعن يَسارِ هذه الدَّارِ — في اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ — الصَّخْرَةُ التي كانَ عِنْدَها موقِفُ النَّبِيِّ ﷺ. وحولَ جبلِ الرحمةِ، والدارِ المُكَرَّمَةِ، صهاريجُ لِلْماءِ وجِبَابٌ. وعن يسارِ الدَّارِ أَيْضًا — على مقرَبَةٍ منها — مَسْجِدٌ صغيرٌ.

(١٥) وادي الأَراك

وبمقرَبةٍ من العَلَمَيْن — عن يسارِ مُسْتَقْبِلِ القِبْلَةِ — مسجدٌ قديمٌ فسيحُ البِناءِ، بقي منه الجِدارُ القِبْلِيُّ، يُنْسَبُ إلى إبراهيمَ ﷺ، فيهِ يخطبُ الخطيبُ يومَ الوَقْفَةِ، ثُمَّ يَجْمَعُ بينَ الظُّهْر والعَصْرِ. وعن يسار العَلَمَيْنِ أَيْضًا — في استِقْبالِ القِبْلَةِ — وادِي الأَراك، وهو أَراكٌ أَخْضَرُ يَمْتَدُّ في ذلك البسيطِ — مع البَصَرِ — امتدادًا طَويلًا.

(١٦) في «عرفات»

فتكاملَ جمعُ النَّاسِ بعرفاتٍ يومَ الخميسِ وليلَةَ الجُمُعَةِ كلَّها. وفي نَحْوِ الثُّلُثِ الباقي من ليْلَةِ الجُمُعَةِ وصلَ أَميرُ الحاجِّ العراقِيُّ، فضربَ أَخْبِيتَهُ (خِيامَهُ) في البسيطِ الأَفْيَحِ، مِمّا يَلِي الجانِبَ الأَيْمَنَ من جَبَلِ الرَّحْمَةِ في اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ. والقِبْلَةُ في «عَرَفات» هي إلى مَغْرِبِ الشَّمْسِ؛ لأَنَّ الكَعبَةَ المُقَدَّسَةَ في تلك الْجِهَةِ منها. فأَصْبَح يومَ الجُمُعَةِ في «عَرَفاتٍ» جمْعٌ لا شَبِيهَ له إلاَّ الحَشْرُ، لكِنَّهُ — إنْ شاءَ اللهُ تَعالى — حَشْرٌ لِلثَّوابِ، مُبَشِّرٌ بالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ يومَ الحشرِ للحِسابِ.

زَعَمَ المُحَقِّقُونَ من الأَشْياخِ المُجاوِرِينَ أَنَّهُمْ لم يُعايِنُوا قَطٌّ في «عرفاتٍ» جمعًا أَحْفَلَ منهُ، ولَمْ يُر مِنْ عَهْدِ الرَّشيدِ — الذي هُوَ آخِرُ منْ حَجَّ من الْخُلَفاءِ — جَمْعٌ في الإسلامِ مثلُهُ. جعلَهُ اللهُ جمْعًا مرحُومًا معْصُومًا بعِزَّتِهِ.

(١٧) تلبية الحجيج

فلمَّا جُمِعَ بين الظُّهْرِ والعصرِ يومَ الْجُمُعَةِ المَذكُورِ، وقَفَ النَّاسُ خاشِعِين باكِينَ، وإلى الله — عزَّ وجلَّ — في الرَّحمة مُتضَرِّعِين، والتكْبِيرُ قد عَلا، وضَجِيجُ الناسِ بالدُّعاءِ قد ارتَفع. فما رُئِيَ يومٌ أَكثَرُ مدامِعَ ولا قُلوبًا خَواشِعَ، ولا أَعْناقًا — لِهَيبَةِ اللهِ — خَوانِعَ خَواضِعَ، من ذلك اليَومِ. فما زال الناسُ عَلَى تلك الحالَةِ، والشَّمْسُ تَلفَحُ وُجوهَهمْ إلى أن سَقَط قُرصُها، وتَمَكَّنَ وَقتُ المَغْربِ. وقد وَصلَ أَميرُ الحاجِّ مع جُملَةٍ من جُنْدِه الدَّارِعينَ (لابِسِي الدُّروعِ)، ووقَفوا بِمَقْرَبةٍ من الصَخَراتِ عندَ ذلِكَ المسجِدِ الصَّغِيرِ. وأَخذَ السَّرْوُ اليَمَنيُّونَ مَواقفَهُم بِمَنازِلِهم المعلُومةِ لهم في جبال «عرَفات» المُتَوارَثةِ عن جَدٍّ فَجَدٍّ من عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ، لا تَتَعَدَّى قَبيلَةٌ عَلَى مَنزِل أُخرى.

وكان المُجْتمِعُ منهم في هذا العامِ عدَدًا لم يَجْتمِعْ قَطُّ مِثلُه.

(١٨) أُمراءُ وأَميرات

وكذلك وَصَل الأَميرُ العِراقيُّ في جَمْعٍ لم يَصِلْ قَطُّ مِثلُه. ووَصَل معهُ من أُمراءِ الأعاجِمِ الخُرسانِيِّينَ، ومن النِّساءِ العَقائِلِ المَعْرُوفاتِ بالْخَواتِينِ (واحدَتُهُنَّ «خاتُونُ»)، ومن السَّيِّداتِ — بنَاتِ الأُمراءِ — كَثيرٌ، ومن سائِرِ العَجَمِ عددٌ لا يُحصَى. فوقَفَ الجميعُ، وقد جَعَلوا قُدْوَتَهُم في النَّفْرِ (التَّفَرُّقِ والانْصِرافِ) الإمامَ المالِكِيَّ، لأَنَّ مَذهَب مالكٍ — رضِيَ اللهُ عنه — يَقتَضِي أَلاَّ يُنفَرَ حتى يتمَكَّنَ سُقوطُ القُرْصَةِ، ويَحينَ وقتُ المَغْرِبِ. ومن السَّرْوِ اليَمَنِيِّينَ من نَفَر (انْصَرف) قَبْلَ ذلك. فلَما أن حان الوَقتُ أَشارَ الإِمامُ المَالِكيُّ بيَدَيهِ، ونَزَل عن مَوقِفِه، فدَفَع الناسَ — بالنَّفر — دفْعًا ارتَجَّتْ له الأَرضُ، ورَجَفَت الْجبالُ.

فيا لَه مَوقِفًا ما أَهوَلَ مَرآهُ، وأَرجَى في النُّفوسِ عُقباهُ!

(١٩) سُرادِقُ الأَميرِ العراقيّ

وكانت مَحلَّةُ هذا الأَميرِ العِراقيِّ جَميلَةَ المَنظَر، بهيَّةَ العُدَّةِ، رائقَةَ المَضارِبِ والأَبنِيَةِ، عجيبةَ القِبابِ والأَرْوِقَةِ، عَلَى هَيئاتٍ لم يُرَ أَبدعُ منها مَنظَرًا. فأَعظمُها مَرأَى مَضرِبُ الأَميرِ، وذلك أَنه أَحدَقَ به سُرادِقٌ — كالسُّورِ — من كَتَّانٍ، كأَنه حَديقةُ بُستانٍ، أَو زَخرَفةُ بُنيانٍ. وفي داخِلِه القِبابُ المَضْرُوبةُ، وهي كلُّها سَوادٌ في بَياضٍ، مُرقَّشَةٌ مُلوَّنةٌ، كأَنها أَزاهيرُ الرِّياضِ. وقد جَلَّلَتْ صَفحاتِ ذلك السُّرادِقِ — من جَوانِبِهِ الأَربعةِ كلِّها — أَشكالٌ دَرَقيَّةٌ، من ذلك السَّوادِ المُنزَّلِ في البَياضِ، يَستَشعِرُ الناظرُ إِليها مَهابةً، يَتَخَيَّلُها دَرَقًا مُزَخرَفًا (والدَّرقُ: التُّرُوسُ، وهي: قِطَعٌ مِنَ الجِلدِ تُحْمَلُ لِلْوقَايةِ مِنَ السُّيُوفِ). ولهذا السُّرادِقِ — الذي هو كالسُّورِ المَضْرُوبِ — أَبوابٌ مُرتفِعةٌ كأَنها أبوابُ القُصورِ المُشَيَّدةِ، يُدخلُ منها إِلى دَهاليزَ وتَعاريجَ، ثم يُفضَى منها إِلى الفَضاءِ الذي فيه القِبابُ.

(٢٠) مَحَلَّة الأَمير

وكأَنَّ هذا الأَميرَ ساكِنٌ في مَدينة قد أَحدَقَ بها سُورُها، تنْتقِلُ بانتِقالِه، وتنزِلُ بنزُولِه. وهي من الأُبَّهاتِ المُلوكيةِ التي لم يُعهَدْ مِثلُها عند مُلوكِ المَغرِبِ. وداخِلَ تلكَ الأَبواب حُجَّابُ الأَميرِ وخَدمُهُ وغاشِيَتُه (الَّذِينَ يَغْشَوْنَ مجلِسَهُ). وهي أبوابٌ مُرتفِعة يَجيءُ الفارِسُ برايتِه فيَدْخُل عليها دونَ تَنكِيسٍ ولا تطأْطُؤٍ، قد أُحكِمَتْ إِقامةُ ذلك كلِّه بتَدبيرٍ هَندسيٍّ غريبٍ، ولسائرِ الأُمراء — الواصِلينَ صُحْبَةَ هذا الأَميرِ — مضارِبُ دونَ ذلك، لكنَّها عَلَى تلك الصِّفةِ، وقِبابٌ بَديعةُ المنْظَرِ، عجيبةُ الشَّكلِ، قد قامت كأَنها التِّيجانُ المنصوبَةُ، إلى ما يَطُولُ وصْفُهُ، ويَتَّسِعُ القَولُ فيهِ، من عظيمِ احتفَالِ هذه المحلَّةِ في الآلةِ والعُدَّةِ، وغيرِ ذلك مِمّا يَدُلُّ عَلَى سَعةِ الأَحوالِ، وعظيمِ الانخِراقِ (الزِّيادَةِ والمُبالَغَةِ) في المَكاسِبِ والأحوالِ.

(٢١) محامل المُتْرَفين

ولهم أَيضًا — في مَراكِبِهم عَلَى الإِبِلِ — قِبابٌ تُظِلُّهُم، بَديعةُ المَنْظَرِ، عَجِيبةُ الشكْلِ، قد نُصِبَت عَلَى محامِلَ من الأَعوادِ يُسمُّونَها القشاواتِ، وهي كالتَّوابِيتِ المُجَوَّفةِ. وهي لرُكَّابِها — من الرِّجالِ والنساءِ — كالأَمْهدَةِ للأَطفالِ، تُمْلأُ بالفُرُشِ الوَثِيرَةِ، ويَقعُد الرَّاكِبُ فيها مُسْتريحًا، كأَنه في مِهادٍ لَيِّنٍ فسِيح، وبإزائِهِ معادِلُهُ — أَوْ مُعادِلتُه — في مثل ذلك من الشِّقَّةِ الأُخرَى. والقُبَّةُ مضروبة عليهما. فَيُسارُ بهما — وهُما نائمان لا يشعُرانِ — أو كَيفَما أَحَبَّا. فعنْدَما يَصِلانِ إلى المَرحَلَةِ التي يَحُطَّانِ بها، يُضْرَبُ سُرادِقُهما — للْحِينِ — إن كانا من أَهلِ التَّرفُّهِ والتنَعُّمِ، فيُدْخَل بهما إِلى السُّرادِقِ وهما راكِبان، ويُنصَبُ لهما كُرْسِيٌّ ينزلانِ عليهِ، فيَنْتَقِلانِ من ظِلِّ قُبَّةِ المَحْمِلِ إلى قُبَّةِ المَنزل، دونَ واسطةِ هواءٍ يلْحَقُهُما، ولا خَطفَةِ شمسٍ تُصِيبُهما. وناهِيكَ من هذا التَّرْفيه! فهؤلاءِ لا يَلْقون لِسَفرِهم — وإن بَعُدَت شُقَّتُه — نَصَبًا، ولا يجِدُونَ — عَلَى طُولِ الحَلِّ والتَّرْحالِ — تَعَبًا.

(٢٢) راكِبو المَحارات

ودُونَ هؤلاءِ في الرَّاحَةِ راكِبُو المَحاراتِ — وهي شبيهَةُ الشَّقادِفِ التي تقدَّم وَصْفُها في ذِكرِ صحراءِ «عَيْذابَ» لكنَّ الشَّقادفَ أَبسطُ وأَوسَعُ، وهذه أَضَمُّ وأَضيَق، وعليها أَيضًا ظَلائلُ تَقي حرَّ الشمْسِ. ومَن قصُرتْ حالُه عنها — في هذه الأسفار — فقد حَصَل عَلَى نَصَبِ السَّفرِ الذي هو قِطعةٌ من العَذابِ.

(٢٣) في «مزدلفة»

ثم يَرجعُ القولُ إِلى استيفاءِ حالِ النَّفْرِ، عَشِيّةَ الوَقْفَةِ بعرفات. وذلك أن الناسَ نَفَرُوا منها بعد غُروبِ الشَّمْسِ كما تقدَّم الذِّكْرُ، فوصلُوا «مُزْدَلِفَة» مع العِشاءِ، فجمعُوا بها بَيْنَ العِشاءِ والمَغْربِ، حَسْبَما جَرَتْ بهِ سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ واتَّقدَ المَشْعَرُ الحرامُ تلك الليلَةَ كلها مَشاعِيلَ من الشَّمَعِ المُسْرَج (المُوقَدِ)، وأَمَّا مَسْجِدُهُ المذكُورُ فعادَ كله نُورًا، فيُخَيَّلُ لِلنَّاظِر إِلَيْهِ أَن كواكِبَ السَّماءِ كلَّها نَزَلَت بهِ.

(٢٤) شُمُوع العَجَم

وعَلَى هذِه الصَّفَةِ كان جبلُ الرَّحْمَةِ ومسجِدُه ليلَةَ الجُمُعَةِ، لأَنَّ هؤلاءِ الأَعاجِمَ والخُراسَانِيِّينَ — وسِواهُم من العِراقيِّينَ — أعظَمُ الناسِ هِمَّةً في استِجْلابِ هذا الشَّمَعِ والاسْتِكْثارِ منه، إضاءَةً لهذِهِ المشاهِدِ الكَريمةِ. وعلى هذه الصِّفَةِ عادَ الحرمُ مُدَّةَ مُقامِهم فيه. فَيَدْخُلُ منهم كلُّ إِنْسانٍ بشَمْعةٍ في يدِه. وأَكْثَرُ ما يَقْصِدُون بذلك حَطِيمُ الإمامِ الحَنَفِيِّ، لأَنَّهم عَلَى مَذْهَبه. وشاهَدْنا شَمَعًا عَظِيمًا تنوءُ الشَّمْعَةُ منه بالعُصْبَةِ (تَعْجِزُ الجَماعَةُ مِنَ النَّاسِ عَنْ حَمْلها). وقد وُضِعَ أَمامَ الحنَفِيِّ، فباتَ الناسُ بالمَشْعَرِ الْحرامِ هذِهِ الليلةَ، وهي ليلةُ السَّبْتِ. فلما صَلُّوْا الصُّبْحَ غَدَوْا منه إلى «مِنى» بعدَ الوُقُوفِ والدُّعاءِ، لأنَّ «مُزْدَلِفَةَ» كلَّها مَوْقِفٌ إلاَّ «وادِيَ مُحَسِّر»، ففيه تَقَعُ الهروَلَةُ في التَّوَجُّهِ إلى «مِنى» حتى يُخْرَجَ عنه. ومن «مُزْدَلِفَةَ» يَسْتَصْحِبُ أَكثرُ الناسِ حَصَياتِ الجمارِ — وهو المُسْتَحَبُّ — ومنهم من يلتَقِطُها حولَ مسجِدِ الخَيْفِ بِمِنًى، وكلُّ ذلكَ جائزٌ.

(٢٥) رميُ الجَمَرات

فلمَّا انتهى الناسُ إلى «مِنى» بادرُوا إلى رَمْيِ جَمْرَةِ العَقَبَةِ بسَبْعِ حَصَياتٍ، ثمَّ نَحَرُوا أو ذَبَحُوا، وحلُّوا من كلِّ شيءٍ (صارَ كُلُّ شيء حَلالًا لَهُمْ)، — إلاَّ النِّساءَ والطِّيبَ — حتى يَطوفوا طوافَ الإفاضَةٍ. ورَميُ هذه الجَمْرَةِ (جَمْرَةِ العَقَبةِ) عند طُلوعِ الشمسِ من يومِ النحْرِ. ثمَّ تَوَجَّهَ أَكْثَرُ الناسِ لِطوافِ الإفاضَةِ، ومنهم من أَقامَ إلى اليومِ الثاني، ومنهم من أَقامَ إلى اليوم الثالِثِ، وهو يومُ الانحِدارِ إلى «مكةَ». فلمَّا كان اليومُ الثاني من يومِ النَّحْرِ — عند زَوالِ الشَّمْسِ — رَمَى النَّاسُ بالجَمْرَةِ الأُولى سَبْعَ حَصَياتٍ، وبالْجَمرةِ الوُسْطَى كذلك. وبهاتَيْنِ الجَمْرتَينِ يَقِفُونَ للدُّعاءِ، وبجمرَةِ العَقَبَةِ كذلك. ولا يَقِفُونَ بها، اقتداءً في ذلك كلِّه بفِعل النَّبيِّ ﷺ، فَتَعُودُ جمرةُ العَقَبَةِ — في هذيْن اليومَيْنِ — أَخيرةً. وهي — يوم النَّحْرِ — أُولَى مُنْفَرِدَةٌ لا يُخْلَطُ معها سِواها.

(٢٦) رسول الْخليفة

وفي اليومِ الثاني من يومِ النَّحْر — بعد رمْي الْجَمَراتِ — خَطَبَ الخطيبُ بِمَسْجِدِ الْخَيْفِ، ثُمَّ جمعَ بين الظُّهْرِ والعَصْرِ. وهذا الخطيبُ وصل مع الأميرِ العِراقِيِّ مُقَدَّمًا من عند الْخليفةِ للخُطبةِ والقضاءِ بـ«مكَّةَ» — عَلَى ما يُذكَرُ — ويُعرَفُ بـ«تاجِ الدِّينِ»، وهو ظاهِرُ البلادَةِ والبَلَهِ؛ لأَنَّ خُطْبَتَهُ أَعْرَبَتْ عن ذلك، ولسانُه لا يُقيمُ الإعْرابَ.

(٢٧) العائدون إلى «مكة»

فلمَّا كان اليومُ الثَّالِثُ تَعَجَّلَ النَّاسُ في الانحدارِ إلى «مكةَ» بعد أَن كَمَلَ لهم رَمْيُ تِسعٍ وأَرْبَعِينَ جَمْرَةً: سَبْعٌ منها يومَ النحر بالعَقَبَةِ وهي الْمُحَلِّلَةُ، ثم إحدى وعِشْرُونَ في اليومِ الثَّاني — بعدَ زوالِ الشَّمْسِ — سَبْعًا سَبْعًا في الجَمراتِ الثَّلاثِ، وفي اليوم الثَّالِث كذلك. ونفَرَ النَّاسُ إلى «مَكَّة» فمنهم من صلَّى العصرَ بالأَبْطَحِ، ومنهم من صلاَّها بالمَسْجِدِ الحَرَامِ، ومنهم من تعجَّل فصلَّى الظُّهْرَ بالأَبْطَحِ.

(٢٨) سبب التعْجيل

ومضَتِ السُّنَّةُ قديمًا بإقامَةِ ثلاثَةِ أَيَّامٍ بعدَ يومِ النَّحْرِ بِمنًى لإكْمالِ رَمْيِ سَبْعِينَ حَصاةً، فوقَع التَّعْجِيلُ — في هذا الزَّمانِ — في اليوْمَينِ؛ كما قالَ اللهُ تَبارَكَ وتعالَى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وذلك مخافَةَ بني شُعْبَةَ، وما يَطرَأُ من حَرَّابةِ المَكِّيِّينَ.

(٢٩) القضاءُ على الفِتنة

وقد كانت في يومِ الانحدارِ المذكورِ بين سُودانِ أَهْلِ «مكةَ» وبين الأَتراكِ العِراقيِّينَ جَوْلَةٌ وهَوْشَةٌ وَقَعَتْ فيها جِراحاتٌ، وَسُلَّت السُّيوفُ، وفُوِّقَت القِسِيُّ (جمع قَوْس، أَيْ: أُعِدَّتْ لِينْطَلِقَ النَّبْلُ مِنْها)، ورُمِيَتِ السِّهامُ، وانتُهِبَ بَعْضُ أَمْتِعَةِ التُّجَّار؛ لأَنَّ «مِنًى» — في تلك الأَيَّامِ الثَّلاثةِ — سُوقٌ من أَعْظَمِ الأَسْواقِ، يُباعُ فيها من الجَوْهَرِ النَّفيسِ، إلى أَدْنَى الخرَزِ، إلى غير ذلك من الأَمْتِعَةِ وسائرِ سِلَعِ الدُّنْيا، لأَنَّها مُجْتَمَعُ أَهْلِ الآفاقِ. فوَقَى اللهُ

شَرَّ تلك الفِتْنَةِ تَسْكينًا لها سَريعًا، وكانت عَيْنُ الكَمالِ في تلك الوَقْفَةِ الهَنيئَةِ، وكَمَلَ للنَّاسِ حَجُّهُمْ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين.

(٣٠) الكُسْوَةُ العِراقيَّة

وفي يومِ السَّبْتِ — يومِ النَّحْرِ المذكورِ — سِيقَت كُسْوَةُ الكَعْبَةِ المُقَدَّسَةِ من مَحَلَّةِ الأَمير العِراقيِّ إلى «مكَّة» عَلَى أَرْبعةِ جمالٍ تقدَّمَها القاضى الجديدُ بكُسْوَةِ الخليفَةِ السَّوادِيَّةِ، والرَّاياتُ عَلَى رَأْسِهِ، والطُّبولُ تَهُزُّ وراءَه (يَعْلو صَوْتُها ويرتَفِعُ، والهِزَّةُ: الصوتُ القَويُّ)، وابنُ عمِّ الشَّيْبِيِّ: «محمدُ بنُ إسماعيل» معَها؛ لأَنَّهُ ذُكِرَ أَنَّ أَمْرَ الخليفَةِ نَفَذَ بِعَزْلِهِ عن حِجابَةِ البيْتِ لِهَناتٍ (مَساوئَ، وَخِصالٍ مَكْروهَةٍ) اشْتَهَرَتْ عنهُ، واللهُ يُطَهِّرُ بَيْتَهُ المُكرَّمَ بِمَن يرضَى من خُدَّامِهِ بِمَنِّهِ. وهذا ابنُ العَمِّ هو — كما أَسْلَفْنا — أَحسنُ طريقةً منهُ، وأَمْثَلُ حالًا. فوُضِعَتِ الكُسْوَةُ في السَّطْحِ المُكرَّمِ أَعلَى الكعبةِ. فلمَّا كان يومُ الثُّلاثاءِ — الثالثَ عَشَرَ من الشهرِ — اشْتَغَلَ الشَّيبِيُّونَ بإِسْبالِها (إرخائها) خضراءَ يانِعَةً، تُقَيِّدُ الأَبْصارَ حُسْنًا، في أَعلاها رسمٌ أَحمرُ واسعٌ مَكْتُوبٌ فيه في الصَّفْحِ المُوَجَّهِ إلى المَقام الكريمِ — حيث البابُ المُكرمُ، وهو وجْهُها المُباركُ — بعدَ البَسْمَلَةِ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وفي سائِرِ الصَّفَحاتِ اسْمُ الخليفةِ والدعاءُ له. وتَحُفُّ بِذلك الرسمِ طُرَّتان حَمْراوان بدوائرَ صغارٍ بيضٍ، فيها رسْمٌ بخطٍّ رقيق يتضمَّنُ آياتٍ من القُرْآن وذكرَ الخليفةِ أَيضًا. فَكَمَلَتْ كُسْوَتُها، وشُمِّرَتْ أَذيالُها الكَريمةُ صَوْنًا لها من أَيْدِي الأَعاجِمِ، وشدةِ اجتِذابِها، وقُوَّةِ تهافُتِها عليها وانْكِبابِها. فلاحَ للناظِرِينَ منها أجملُ منظرٍ، كأَنَّها عروسٌ جُلِيَتْ في السُّنْدُسِ الأَخْضَر. أَمتعَ الله بالنَظَرِ إليها كلَّ مشتاقٍ إلى لقائِها، حَريصٍ عَلَى المُثولِ بفِنائها (ساحَتِها).

(٣١) زَحْمة الوافدين

وفي هذه الأَيامِ يُفْتَحُ البيْتُ الكريمُ كلَّ يوم للأَعاجِمِ العِراقيِّين والخُرسانِيِّينَ وسِواهم من الواصِلين مع الأَمير العِراقِيِّ. فظهرَ من تَزاحُمِهِمْ وتَطارُحِهِمْ عَلَى البابِ الكريمِ، ووصولِ بعضِهم عَلَى بعضٍ، وسباحَةِ بعضهم عَلَى رءوسِ بعض — كأَنَّهم في غديرٍ من الماءِ —

أَمرٌ لم يُرَ أَهْوَلُ منه يؤَدِّي إلى تَلَفِ المُهَجِ (الأَرْواحِ)، وكَسْرِ الأَعضاءِ، وهم في خِلال ذلك لا يُبالُونَ ولا يتَوَقَّفُونَ، بل يُلْقُونَ بأَنْفُسهم عَلَى ذلك البيْتِ الكريم — من فرْطِ الطَّرَبِ والارتياحِ — إلْقاءَ الفَراشِ بِنَفْسِهِ عَلَى المِصْباحِ. فعادَت أحوالُ السَّرْو اليَمَنِيِّينَ في دخولهم البيتِ المُبارِكِ — عَلَى الصِّفَةِ المتُقدمةِ الذِّكْرِ — حالَ تُؤَدَةٍ (هَوادةٍ وَرِفْق) وَوَقارٍ، بالإضافَةِ إلى هؤلاءِ الأَعاجمِ، نَفَعَهُم اللهُ بنِيَّاتهم. وقد فُقِدَ مِنْهم في ذلك المُزْدَحَمِ الشَّدِيد من دَنا منهم أَجلُهُ، واللهُ يَغْفِرُ لِلْجَميعِ. وربما زاحَمَهُم في تلك الحالِ بعضُ نسائِهم، فيخْرُجْن وقد نَضِجَتْ جلودُهُن طَبْخًا في مَضِيقِ ذلك المُعتَرَكِ الذي حَمِيَ بأَنْفاسِ الشَّوْق وطَيْشِهِ، واللهُ يَنْفَعُ الجميعَ بمُعتَقَدِهِ وحسنِ مقْصِدِهِ، بِعِزَّتِهِ.

(٣٢) الواعظ الخُراسانيّ

وفي ليلَةِ الخميسِ — الخامسَ عَشَرَ من الشهرِ — إِثْرَ صلاةِ العَتَمَة (صلاةِ العشاءِ) نُصِبَ مِنْبَرُ الوَعْظِ أَمامَ المَقامِ، فَصَعِدَه واعظٌ خُراسانِيُّ البَشارَةِ (والبَشارَةُ: الْجَمالُ)، مليحُ الإشارَةِ، يَجْمَعُ بينَ اللِّسانَيْنِ: عَرَبيٍّ وعَجمِيٍّ، فأَتَى — في الحالَيْن — بالسِّحْرِ الحَلالِ من البَيانِ. فصيحُ المَنْطِق، بارعُ الأَلْفاظِ، ثُمَّ يَقْلِبُ لسانَهُ للأَعاجِمِ بِلُغَتهم فيَهُزُّهم إطْرابًا، ويُذِيبُهم زفراتٍ وانتِحابًا. فلمَّا كانت الليلَةُ الأُخْرَى بعْدَها، وُضِعَ مِنْبَرٌ آخرُ خَلْفَ حطيمِ الحنَفِيِّ، فصَعِدَ إِثْرَ صلاةِ العَتَمَةِ أيضًا شَيْخٌ أَبْيَضُ السِّبالِ (جَمْع سَبَلَ، وهي مُقدَّمُ اللِّحْيَةِ)، رائِعُ الجلالِ، بارعُ التَّمامِ في الفَضْلِ والكَمالِ. فصدَع (جَهَرَ) بِخُطْبَة انتَظَمَتْ آيَةَ الكُرْسِيِّ كلِمَةً كلمَةً، ثم تَصَرَّفَ في أَساليبَ من الوَعْظِ، وأَفانينَ من العِلْمِ — باللِّسانَيْن أَيضًا — حرَّكَ بها القُلُوبَ حتى إَطارَها، وأَوْرَثَها احْتِدامًا (شِدَّةَ غَلَيان) بالخَشْيَةِ بعدَ اسْتِعارِها (اشْتِعالها)، وفي أَثناءِ ذلك تَرْشُقُه سِهامٌ من المَسائِل، فيَتَلَقَّاها بمِجَنٍّ (وِقايةٍ) من الجواب السَّريعِ البَليغِ، فتَحارُ لهُ الأَلْبابُ، وَيْلكُ كلّ نَفْسٍ منهُ الإغرابُ والإعجابُ، فكأَنَّما هُوَ وَحْيٌ يُوحَى. وهذا الذي مَشَى بهِ وُعَّاظُ هذه الجهاتِ المَشْرقيَّةِ من إِلْقاءِ المَسائِلِ إليهم، وإفاضَةِ شآبيبِ (سُيُول) الامْتِحانِ عليهم، من أَعجَبِ المُغْربَةِ عن غريبِ شأْنِهِمْ، والنَّاطِقَةِ بِسِحْرِ بَيانِهم وليْسَت في فَنٍّ واحِدٍ، إنَّما هِيَ في فُنونٍ شَتَّى. رُبَّما قُصِدَ بها التَّعْنيتُ (الإِرْهاقُ والتَّشْدِيد)، والتَّنْكِيتُ (الطَّعْنُ والاسْتِهْزاءُ)، فَيأْتُونَ بالجوابِ كخَطْفَةِ

البَرْقِ، وارْتِدادِ الطَّرْفِ. والفضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ. وبين أَيْدِي هؤُلاءِ الوُعَّاظِ قرَّاءٌ يَنْغِمونَ بالقِراءَةِ، فَيأْتُونَ بأَلْحانٍ تُكْسِبُ الجمادَ طَرَبًا وَأَرْيَحِيَّةً، كأَنَّها المَزاميرُ الدَّاوُودِيَّةُ. فلا تَدْرِي من أَيِّ أَحْوالِ هذا المُجْتَمَعِ تعْجَبُ. واللهُ يُؤْتِي الحِكْمَةَ من يَشاءُ. وسَمِعْتُ هذا الشَّيْخَ الواعِظَ يُسْنِدُ الحديثَ إلى خَمْسَةٍ من أَجْدادِهِ: جَدٌّ عن جَدٍّ، نَسَقًا مُسَلْسَلًا عن أَبيهِ إليهم عَلَى اتِّصالٍ، كلُّهم لهُ لَقَبٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ من العِلْمِ، ومكانَتِهِ من التَّذْكِيرِ والوَعْظِ، فهو مُعْرِقٌ (أَصِيل) في الصَّنْعَةِ الشَّريفَةِ، تَليدُ المَجْدِ فيها (والتَّلِيدُ: القَدِيم المَوْروث). وفي أَيَّامِ المَوْسِمِ كلِّها عادَ المَسْجِدُ الحرامُ — نزَّهَهُ اللهُ وشَرَّفَهُ — سُوقًا عظيمةً، يُباعُ فيها من الدَّقيقِ إلى العَقِيقِ، ومن البُرِّ إلى الدُّرِّ، إلى غَيرِ ذلك من السِّلَعِ. فكان مَبيعُ الدَّقيق بدارِ النَّدْوَةِ إلى جِهَةِ بابِ بَنِي شَيْبَةَ. ومُعْظَمُ السُّوقِ في البَلاطِ الآخِذِ من الشَّمالِ إلى الشَّرْقِ. وفي ذلكَ من النَّهْي الشَّرْعيِّ ما هُو مَعْلُومٌ. واللهُ غالبٌ على أَمرِه.

الفصل الثالث عشر

من مَكّة إلى المدينة

(١) الزَّاهر

في عَشِيٍّ يومِ الأَحَدِ الثَّامِنَ عَشَرَ من الشَّهْرِ المذْكور، وهوَ أَوَّلُ إبريلَ كانَ تَبْرِيزُنا (خُروجُنا) إلى مَحَلَّةِ الأَميرِ العِراقِيِّ بالزَّاهِرِ، وهو عَلَى نحْوِ المِيلَيْن من البلَدِ، وقد كَمَلَ اكتراؤُنا (استئْجارُنا ما نَرْكُبُه) إلى الموْصِلِ، وهو أَمامَ «بغداد» بعَشَرَةِ أَيَّامٍ، عرَّفنَا اللهُ الخَيْرَ والخِيَرَةَ (حُسْن الاخْتِيار). فأَقمْنا بالزَّاهِر ثلاثةَ أَيَّامٍ نُجَدِّدُ العَهْدَ كلَّ يومٍ بالبَيْتِ العتيقِ، ونُعيدُ وَداعَهُ. فلمَّا كانتْ ضحْوَةُ يومِ الخميسِ — الثَّاني والعِشْرين من ذِي الحِجَّةِ — أَقْلَعَتِ المَحَلَّةُ عَلَى تُؤَدَةٍ ورِفْق، بسَبَبِ البُطءِ والتَّأَخُّر. ونزَلَتْ عَلَى نحو ثمانِيَةِ أَمْيالٍ من الموْضِعِ الذي أَقْلَعَتْ منهُ بمقْرَبة من «بَطْنِ مَرٍّ». واللهُ كَفيلٌ بالسَّلامَةِ والعِصْمةِ.

(٢) الحنين إلى «مكة»

فكانت مُدَّةُ مُقامِنا بـ«مَكَّةَ» قدَّسها اللهُ — من يومِ وُصولنا إليها وهو يومُ الخميسِ الثالثَ عشَر لربيعِ الآخِرِ من سَنةِ تِسْعٍ وسبعِينَ، إلى يومِ إقلاعِنا من الزَّاهِرِ وهو يومُ الخميسِ الثاني والعشرينَ لذي الحِجَّةِ من تِلْكَ السَّنةِ — ثمانيةَ أَشهُرٍ وثُلُثَ شهْرٍ، التي هي — بحِسب الزَّائدِ والنَّاقِص من الأَشهُرِ — مِائَتا يومٍ واثنتانِ وخمْسَةٌ وأَربعونَ يومًا، سَعيداتٌ مُبارَكاتٌ، جعلَها اللهُ لذاتِه، وجعلَ القَبُولَ لها مُوافِقًا لِمَرْضاتِه. غِبْنا عن رُؤْيةِ البَيتِ الكَريمِ، فيها ثلاثةَ أَيامٍ: يومَ عرفةَ وثانيَ يومِ النحْرِ ويومَ الأَربعاءِ، الذي هو

الحادي والعِشرونَ لِذى الحِجَّةِ، قَبلَ يومِ الخميس يومِ إقلاعِنا من الزَّاهِرِ. واللهُ لا يَجعلُه آخر العَهدِ بحَرَمِهِ الكَريمِ بمنِّه.

(٣) بطن مَرٍّ

ثم أقلَعْنا من ذلك المَوْضِعِ إثْرَ صلاةِ الظُّهرِ من يومِ الخميس إلى«بطن مَرٍّ» وهو وادٍ خصيبٌ كثيرُ النَّخْل ذُو عَيْن فَوَّارَةٍ سَيَّالةِ الماءِ، تُسقَى منها أَرضُ تلك الناحيةِ. وعَلَى هذا الوادِي قُطْرٌ مُتَّسِعٌ وقُرًى كَثيرةٌ وعيونٌ. ومنه تُجلَبُ الفَواكِهُ إلى «مكةَ» —حرَسَها اللهُ — فَأَقمنا به يومَ الجُمُعةِ لسبَبٍ عجيبٍ يَتَّصِلُ بالمَلِكَةِ «خاتُونَ» بنتِ الأَميرِ مسعودٍ مَلكِ الدُّرُوبِ والأَرمَنِ — وما يلى بلادَ الرُّومِ — وهي إحدَى الْخَواتِينِ (الأَميرات) الثلاثِ اللاتي وَصَلْن للحَجِّ مع أَميرِ الحاجِّ أبي المَكارِمِ طاشْتَكِينَ مَولَى أَميرِ المُؤْمِنينَ، المُوَجَّهِ كلَّ عامٍ من قِبَل الخَليفَةِ، وهو يتوَلَّى له هذه الخُطَّةَ نحوَ ثَمانِيَةِ أَعوامٍ أَو أزيدَ. وخاتُون هذه أعظَمُ الخواتينِ قَدْرًا، لأَنَّ مَمْلَكَةَ أَبيها عظيمةٌ. والمقْصُودُ من ذِكْرِ أَمرها أَنها أَسْرَتْ (سارَتْ لَيْلًا) من «بطن مَرّ» لَيلةَ الجُمُعَةِ إلى كَّةَ — في خاصَّةٍ من خَدَمِها وحَشَمِها — فلمَّا أَشرَقَت شمْسُ يومِ الجُمُعَةِ افْتَقَدها الأَميرُ، فوجَّهَ إليها ثِقاتٍ من خاصَّةِ أصحابِه، يسأَلونَها عن سَبَبِ انصِرافِها، وأَقامَ بالنَّاسِ ينْتَظرُ الخاتونَ، فوصَلَت في وقْتِ العَتَمةِ (ثُلُثِ اللَّيْل الأَوَّلِ) من يومِ السَّبْتِ.

(٤) ظُنون الناس

وتساءَلَ النَّاسُ في ذلك، وعجبوا من انصرافِ تلك المَلِكَةِ المُتْرَفَةِ، وكَثُرتْ ظُنونُهم، واختَلَفت آراؤُهم في تعرُّف سِرِّها. فمِنهم مَن يقُولُ: إنها انصَرفَتْ غاضِبةً لبعْضِ ما انْتَقَدتْه عَلَى الأَميرِ. ومنهم مَنْ قال: شِدَّةُ شَوقِها لرُؤْيةِ البَيتِ المُكَرَّمِ عَطفَتْ بها إِليهِ، ولا يعلَمُ الغَيبَ إلا اللهُ.

(٥) الأَمير «مسعود»

وكَيْفما كانَ الأَمْرُ، فقَدْ كفَى الله العُطلةَ والتَّأَخُّرَ بِسبَبِها، وأَطْلَقَ سَبِيلَ الحاجِّ. ولله الحَمْدُ عَلَى ذلك. وأَبُو هذهِ الخاتُونِ وهُوَ الأَميرُ مسعودٌ —كما أَسلفنا— في بَسْطَةٍ منْ مُلْكِهِ، واتِّساعٍ مِنْ إِمْرَتِهِ، يرْكَبُ له — عَلَى ما حُقِّقَ عندَنا — أَكثرُ من مئة أَلفِ فارِسٍ، وصهرُه علَيها (زَوْجُ خاتونَ هذِهِ) نورُ الدِّين: صاحبُ آمِدَ وما سِواها، ويَرْكَبُ له أَيْضًا نحوُ اثْنَيْ عَشَرِ أَلْف فارسٍ.

(٦) خاتون الأُولى

ولخاتُونَ هذِه أَفعالٌ من البِرِّ كثيرةٌ في طَريق الحاجِّ، منها سَقْيُ الماءِ للسَّبِيل، وقَدْ عَيَّنَتْ لِذلك نحوَ ثلاثينَ ناضِحةً (والناضحَة: النَّاقَةُ يُسْتَقَى عليها)، ومثلَها للزادِ (الطَّعامِ). واستجلَبَتْ — لِما تختصُّ به من الكُسْوةِ والأَزْوِدَةِ (الأطعمة) وغيرِ ذلك — نحوَ مئة بَعيرٍ. وأَمْرُها يَطُولُ وصْفُهُ. وسِنُّها نحوُ خَمْسةٍ وعِشْرينَ عامًا.

(٧) خاتون الثانية

ولِخاتُونَ الثَّانِيَةِ: أُمِّ مُعِزِّ الدِّينِ صاحبِ الموصل أَفعالٌ كثيرةٌ من الْبِرِّ، وهِيَ زَوْجُ بابَكَ أَخِي نُورِ الدِّينِ الذِي كانَ صاحبَ الشَّام. رحِمَه اللهُ.

(٨) خاتون الثالثة

وخاتونُ الثالثَةُ ابنةُ الدَّقُوسِ صاحبِ أَصْبَهانَ من بلادِ خُراسانَ. وهي أَيضًا كبيرةُ القدرِ، عظيمةُ الشَّأْنِ، مَيَّالَةٌ للخَيْر، كثيرة المَبَرَّات.

وشأْنُ هؤلاءِ الْخَواتِينِ عَجيبٌ جدًّا، فيما هُنَّ بسبِيلِهِ مِن الخَيْرِ، والاحْتِفال في الأُبَّهةِ المُلُوكيَّةِ.

(٩) آبار عثمانَ

وَلَمَّا حانُ ظُهْرُ يَوْمِ السَّبْتِ الرابع والعشرينَ لذي الحِجَّةِ أَقْلعْنا وَنَزَلْنا بمقْرَبَةٍ من عُسْفانَ. ثُمَّ أَسْرَيْنا إِليها نصْفَ الليْلِ، وصبَّحْناها بُكْرَةَ يومِ الأَحِدِ.

وهي في بَسيطٍ من الأَرْضِ بينَ جِبالٍ، وبِها آبارٌ مَعِينةٌ (ذاتُ ماءٍ ظاهِرٍ جارٍ) تُنْسبُ إِلَى عُثْمانَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ. وبها حَصْنٌ عَتِيقُ البُنْيانِ، ذُو أَبراجٍ مُشَيَّدَةٍ، غَيْرُ مَعْمُورٍ، قَدْ أَثَّر فِيه القِدَمُ، وأَوْهَتْهُ قِلَّةُ العِمارَةِ ولُزُومُ الخراب.

فاجَتْزنا «عُسْفانَ» بأَمْيالٍ، ونزَلْنا مُريحِين قائلِين (ارْتَحْنا ونمْنا نَومَةَ القَيْلُولَةِ، وهي النومُ في مُنْتَصَفِ النَّهار).

(١٠) مَحَلَّةٌ «خُلَيْصٍ»

ثُمَّ أَقلَعنا إِلَى خُلَيْص — إِثْرَ صلاةِ الظُّهْر — فبلْغَناها عَشِيَّ النَّهارِ. وهِيَ أَيْضًا في بَسِيط منَ الأَرْضِ. وحدائِقُ النَّخْلِ فيها كثيرة. ولهذه المَحَلَّةِ جبل، فِيهِ حِصْنٌ مُشيَّدٌ في قُنَّتِه (أَعْلاهُ)، وفِي البَسيطِ حِصْنٌ آخَرُ قدْ أَثَّرَ فيهِ الخَرابُ.

(١١) عيْنُ «خُلَيْص»

وبها عَيْنٌ فَوَّارَة، قَدْ أُحْدِثَتْ لها أَخادِيدُ في الأَرْضِ مُسَرَّبةٌ (شُقُوقٌ مُسْتَطيلَةٌ في جَوْفِ الأَرْض) يُسْتَقَى منها عَلَى أَفواهٍ كالآبارِ، يُجَدِّدُ الناسُ بها الماءَ، لِقِلَّتِه في الطريقِ، بِسبَب القَحْطِ المُتَّصِلِ. واللهُ يُغِيثُ بِلادَهُ وعِبادَهُ.

وأَصْبَحَ الناسُ بتلكَ العَيْنِ مُقِيمِين — يومَ الإثنين — لإِرْواءِ الإِبل، واسْتِصْحابِ الماءِ.

(١٢) رَكْبُ أَمير الحج

وهذه الجُملَةُ العِراقِيَّةُ، ومَنِ انْضافَ إِليْها من جُموعِ الخُرسانيَّةِ، والمَواصِلة (سكان الموصل) ومِن سائرِ جهاتِ الآفاق — مِن الواصِلينَ صُحْبَةَ أَمِير الحاجِّ — جَمْعٌ لا يُحْصِي عَدَدَهُ إِلاّ اللهُ تعالَى، يَغَصُّ بهم (يضيق) البَسِيطُ الأَفْيَحُ (الواسِعُ الرَّحْبُ)، ويَضِيقُ عنهم المَهْمَهُ الصَّحْصَحُ (الصَّحْراءُ الفَسِيحةُ الأَرْجاءِ). فتَرَى الأَرْضَ تَمِيدُ بهم مَيْدًا (تُزَلْزَل)،

وتَمُوجُ بجَمعِهمْ مَوْجًا، فتُبْصِرُ منهم بَحْرًا طامِيَ العُبابِ (زاخرَ المَوْج)، ماؤُهُ السَّرابُ (وهو الَّذي تَراه يَلْمَعُ فِي الأَرْضِ نِصْفَ النهار كأَنَّهُ ماءٌ)، وسُفُنُهُ الرِّكابُ (الإِبِلُ)، وأَشْرَعُتُهُ الظَّلائِلُ المَرْفوعَةُ والقِبابُ. وهي تَسيرُ سَيْر السُّحُبِ المُتَراكِمَةِ، يَتداخَلُ بَعْضُها على بَعْضٍ، ويَضْرِبُ بَعْضُها جَوانِبَ بَعْضٍ، فتُعاينُ لها تَزاحُمًا — في الْبَراحِ المُنْفَسِحِ — يَهولُ ويَرُوعُ، وتَسْمَع لها اصْطِكاكًا عاليًا، وتَقْرَعُ المحاراتُ فيه بَعْضُها بَعْضًا (والمحاراتُ: نَوْعٌ من الشقادِف يُشْبِهُ الهَوْدَجَ). فَمن لم يُشاهِدْ هذا الرَّكْبَ العِراقِيَّ لم يُشاهِدْ مِنْ أَعاجِيب الزَّمانِ ما يُحدَّثُ به، ويُتْحَفُ السَّامِعُ بِغَرابَتِهِ.

(١٣) ضلال المُنفرد

وحَسْبُك أَنَّ النازلَ فِي منْزلِ مِن منازلِ هذه المَحَلَّةِ، متَى خَرجَ عَنْها لِبَعْضِ شَأْنِهِ — ولم تَكُنْ له دَلالةٌ يَسْتَدِلُّ بها على موْضِعِه — ضَلَّ وتَلِفَ، وعادَ مَنْشُودًا فِي جُمْلَةِ الضَّوالِّ (أَصْبَح فِي عِداد التَّائهين الَّذِين لا يُهْتَدَى إِليهم بِغَيْرِ المُنادين)، ورُبما اضطُرَّ إلى الوصولِ إلى مضربِ الأَميرِ، ورفْعِ مسأَلَتِه (حاجَتِه) إِلَيْه، فيأْمُرُ أَحدَ المُنْشِدِين (المُنادين) والهاتِفين (الصائحين) بأَوامِره — مِمَّن قد أُعِدَّ لِذلك — أَن يُرْدِفَه خَلْفَه على جمل، ويَطُوفَ به المَحلَّةَ العجَّاجَةَ (الصَّاخِبَةَ المَمْلوءَةَ صِياحًا وجَلَبةً وضَوْضاءَ) وهو قد ذَكَر له اسمَه، واسمَ جمَّالِه، واسمَ البلد الذي هو منه. فيرفعُ عقِيرَتَه (صَوْتَه) بِذلك، مُعَرِّفًا بهذا الضَّالِّ، ومنادِيًا باسْمِ الجَمَّالِ وبلَدِه، إلى أَنْ يَقَعَ عليهِ فَيُؤَدِّيَهُ إِليهِ. ولوْ لم يَفْعَلْ ذلك لكان آخِرَ عَهْدِهِ بصاحِبِهِ، إلاَّ أَن يَلْتَقِطَهُ التِقاطًا، أَو يَقَعَ عليهِ مُصادَفَةً واتِّفاقًا.

فهذا من بَعْضِ عجائِبِ شُئونِ هذه المَحَلَّةِ، وعجائبُها أَكْثَرُ من أَن يُحِيطَ بها الوَصْفُ. ولأَهْلِها من قُوَّةِ الجِدَةِ (الْغِنَى) واليَسارِ ما يُعينُهم عَلَى ما هم بسَبِيلِهِ، والمُلْكُ بيدِ اللهِ يُؤْتِيهِ من يَشاءُ.

(١٤) هدايا الخواتين

ولهؤُلاءِ النِّسْوَةِ الْخَواتِين في كلِّ عامٍ — إذا لَم يَحْجُجْنَ بأَنْفُسِهن — نَواضِحُ مُسَبَّلَةٌ مع الحاجِّ (إِبلٌ يُسْتقَى علَيها الماءُ ليشربَ منهُ الحُجاجُ بِلا ثَمَنٍ). وَهنَّ يُرْسِلْنَها مع ثِقاتٍ يَسْقُونَ أَبْناءَ السَّبيل في المواضِعِ المعروفِ فيها الماءُ، في الطريقِ كلِّه، وبـ«عرفات»

وبالمسجِدِ الحرامِ في كلِّ يومٍ وليلَةٍ. فلَهُنَّ في ذلك أَجْرٌ عظيمٌ. فتَسْمَعُ المُنادِيَ عَلَى النَّواضِحِ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بالماءِ لِلسَّبِيلِ، فيُسْرِعُ إليهِ المُرْمِلُونَ (الذين فَرغَ ما مَعَهم من الزَّادِ والْماءِ — بِقِرَبِهم وأَبارِيقِهِم — فيملَئُونَها)، ويقولُ المُنادِي بصَوْت عالٍ، مُنَوِّهًا بِفَضْلِهِنَّ: «أَبْقَى اللهُ المَلِكَةَ خاتُونَ بنتَ المَلك الذي من أَمرِهِ كَذا، ومن شأْنِهِ كذا». ويُحَلِّيهِ بِحُلاهُ (يُلَقِّبُهُ بأَسْمَى رُتَبِهِ، ويُنَوِّهُ بأَنبلِ مَزاياهُ) إعلانًا باسْمِ الخاتُون، وإظهارًا لصَنِيعها، واسْتِجْلابًا للدُّعاءِ لها من الناسِ. والله لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

وتفسيرُ هذه اللَّفْظَةِ: «خاتونَ» أَنها — عِنْدَهُمْ — بِمَنْزِلَة السَّيِّدَةِ، أَوْ ما يَلِيقُ بهذا اللَّفْظِ المُلُوكيِّ النِّسائِيِّ.

(١٥) طُبول الرحيل

وهذه المَحَلَّةُ — لِعظَمِها وكِبَرِها — تُخَيِّلُ لِرائِيها أَنها دُنْيا بأَسْرِها، وهي على ذلك الاِتساع والاِزدحام، إذا حَطَّتْ رِحالَها، ونَزَلَتْ مَنْزِلَها؛ ثمَّ ضَرَبَ الأَميرُ طَبْلَهُ — للإِنْذارِ بالرَّحيلِ — لَمْ يَكُنْ بينَ اسْتِقْلالِ (انْتِقال) الرَّواحِلِ بأَوْقارِها (أَحْمالِها) ورِحالها ورُكَّابها إلاَّ لَحَظاتٌ يَسِيرَةٌ.

فلا يكادُ يَفْرُغُ النَّاقِرُ من الضَّرْبَةِ الثَّالِثَةِ، إلاَّ والرَّكائِبُ (الإِبِلُ) قد أَخَذَتْ سبيلَها. كلُّ ذلك من قُوَّةِ الاِسْتِعْدادِ، وشدَّة الاِسْتظهارِ (التَّهيُّؤ) علَى الأَسْفارِ.

(١٦) أَنْوارُ الطريق

وإِسْراؤُنا باللَّيلِ بِمَشاعيلَ مُوقَدَةٍ، يُمْسِكُها الرَّجَّالَةُ بأَيْدِيهم (والرَّجَّالَةُ هُم: المُشاةُ)، فلا تُبْصِرُ ناقةٌ من النِّياقِ إلا أَبصرْتَ أَمامَها مِشعَلًا. فالناسُ يَسِيرونَ منها بين كَواكِبَ سَيَّارَةٍ تُوَضِّحُ غَسَقَ الظَّلْماءِ، وتُباهِي بها الأَرْضُ أَنجُمَ السَّماءِ. والمَرافقُ الصِّناعِيَّةُ وغيرها — من المَصالِحِ الدِّينِيَّةِ، والمَنافِعِ الْحَيوانِيَّةِ — كلُّها مَوجودةٌ بهذه المَحَلَّةِ غَيرُ معدُومة، ووَصْفُها يَطولُ، والأَخبارُ عنها لا تَنحصِرُ.

فلمَّا كان ظُهْرُ يومِ الإثنين إِثْرَ الصَّلاةِ، أَقلَعْنا مِن«خُلَيصٍ» مُرْتَحِلِين. وتمادَى سيرُنا إلى العِشاءِ، ثم نَزَلْنا ونمْنا نومَة خَفِيفَةً. ثم ضُرِبَت الطُّبولُ، فأَقلَعْنا وأَسْرَينا (سِرنا لَيْلًا)، ومازِلْنا في سيرِنا إلى ضُحًى مِن النَّهارِ، ثم نَزَلْنا مُرِيحِينَ إلى أَوَّل الظُّهرِ من يوم الثُّلاثاءِ.

(١٧) وادي السَّمَك

ثم أَقْلَعْنا — من مَنْزِلِنا ذلك — إلى وادٍ يُعرَفُ بِاسْمِ «وادِي السَّمَكِ»، وهوَ اسْمٌ يكادُ يكونُ واقِعًا عَلَى غيرِ مُسَمًّى.

فنزلْناه مع العِشاءِ، وأَصْبَحْنا بِهِ مُقيمِينَ يوْمَ الأَرْبعاءِ، لتجديدِ حَمْلِ الماءِ. وهو بهذا الوادي في مُسْتَنْقعاتٍ، ورُبَّما حُفِرَ عليهِ في الرَّمْل.

(١٨) مرحلة شاقة

فأَقْلَعْنا منه أَوَّلَ ظُهْرِ يومِ الأَرْبعاءِ. ثمَّ أَجَزْنا — مع اللَّيْل — عقبةً مُحَجَّرَةً (مملوءَةً حجارةً) كَؤُودًا (صَعْبَةً)، وقد هلك فِيها من الْجِمالِ كثيرٌ. ونزَلْنا في بَسيطٍ من الأَرْضِ، ونِمْنا إلى نِصْفِ اللَّيْلِ. ثمَّ رحَلْنا في مَهْمَهٍ أَفْيَحَ (فَضاءٍ فسيحٍ)، لا يُدرِكُ آخِرَهُ مَدُّ البَصَرِ، ورَمْلَةٍ مُنْثالَة (مُنْصَبَّة)؛ فَمَشَت الْجِمالُ فيها دُونَ مُقطَّرَةٍ لانْفساحِ طريقِها (مَشَتْ مُتَفَرِّقَةً. والْمُقَطَّرَةُ: أَنْ تَمْشِيَ الجمالُ واحدًا بَعْدِ واحِد).

(١٩) محلة «بدر»

ثمَّ نزلْنا مُرِيحين قائلين يومَ الخميس (نائمين في القيلُولَةِ وَهي وَقتْ الظهر). وَبينَنا وَبينَ «بدْرٍ» مقدارُ مرْحَلَتَيْنِ. فلما كان أَوَّلُ الظُّهْرِ رحلْنا إلى مقْرَبَة من «بدْرٍ» فنَزَلْنا لِنَبيتَ فيها، ثمَّ قُمْنا قَبْلَ نِصْفِ اللَّيْل، فوصَلْنا «بَدْرًا» وَقد ارْتَفَعَ النَّهارُ.

(٢٠) موقعة «بدر»

و«بَدْر» قريةٌ فيها حدائقُ نَخْل مُتَّصِلَةٌ، وَفيها حِصْنٌ عَلَى رَبْوَة مُرْتَفِعَةٍ. ويُدْخَلُ إِليها عَلَى بَطْنٍ وادٍ بين جبالٍ. وَبِبَدْرٍ عيْنٌ فوَّارةٌ. وموضِعُ القَليبِ (البئْر) — الذي كان بإِزائِه الوقْعَةُ الإِسْلامية (غزوَةُ «بَدْرٍ»)، التي أَعَزَّتِ الدَّينَ، وأَذَلَّتِ المُشْرِكِينَ — هو اليومَ نَخيٌ. وَموضِعُ الشُّهَداءِ خلْفَه. وَجبلُ الرَّحْمَةِ — الذي نزلَتْ فيه المَلائِكَةُ — عن يَسارِ الداخِل منها إِلى الصَّفْراءِ.

(٢١) جبل الطُّبول

وبإِزائِهِ جبلُ الطُّبُولِ، وَموضَعُ عريشِ النبيِّ ﷺ (مَقامه الذي كان فيهِ أَثْناءَ تِلْكَ الوَقْعَةِ المَشْهُورَة). وَبينَ بدرٍ والصَّفْراءِ بَريدٌ (والبَرِيدُ نَحْوُ اثْنَي عَشَر ميلًا). والطريقُ إِليها في وادٍ بينَ جبالٍ تَتَّصِلُ بها حدائقُ النَّخِيلِ. والعيونُ فيه كثيرةٌ. وهو طريقٌ حسنٌ. وَبالصَّفْراءِ حِصنٌ مُشيَّدٌ، وَيَتَّصِلُ به حصونٌ كثيرةٌ، منها حِصْنانِ يُعْرَفانِ بالتوْءَمَيْنِ، وحَصنٌ يُعرفُ بالْحَسَنيَّة، وآخرُ يعرفُ بالْجَديدِ، إِلى حُصونٍ كثيرةٍ، وَقُرًى مُتَّصِلَةٍ.



(٢٢) الصَّفراءُ

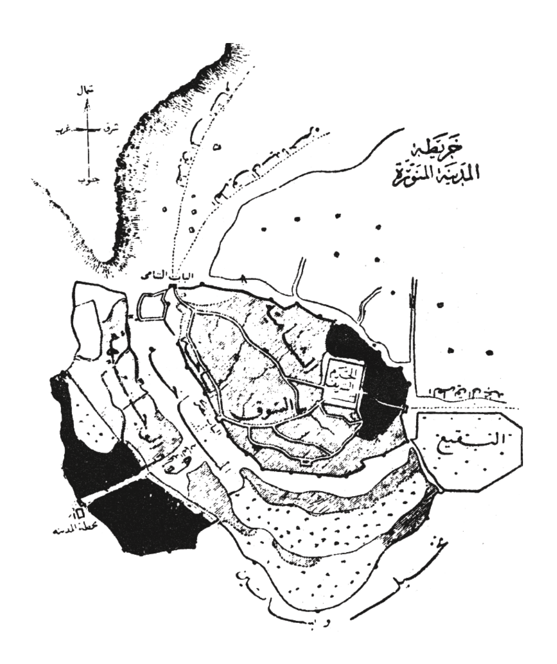
واستهلَّ هِلالُ شهر المحرم سنةَ ثمانينٍ وخمس مئة، ليلَةَ السَّبْتِ بمُوافَقَةِ الرابعَ عَشَرَ لشهرِ أَبريلَ — ونحنُ مُقْلِعُون من بدرٍ إلى الصَّفْراءِ، فبِتْنَا بهذه البُقْعَةِ الكريمةِ: «بدرٍ»، حيثُ نصرَ اللهُ المُسلمينَ وقَهَرَ المُشركينَ. وكانَ نُزولُنا بالصَّفْراءِ إِثْرَ صلاة العِشاءِ، فأَصْبَحْنا ذلك اليومَ — أَعْنِي يومَ السبْتِ — مُقِيمِينَ مُرِيحِينَ بها، ليَتَزَوَّدَ الناسُ منها الماءَ، ويأْخُذوا نَفَسَ اسْتِراحَة إلى الظهرِ. ومنها إِلى المدينةِ المُكَرَّمَةِ — إِن شاءَ اللهُ — ثلاثةُ أَيَّام.

(٢٣) الرَّوْحاء

فأَقلَعنا منها — ظُهْرَ ذلك اليوْمِ — وَتمادَى السَّيْرُ بنا إلى إِثْرِ صلاةِ العِشاءِ. والطَّريقُ في وادٍ متَّصِلٍ بينَ جبالٍ. فنزلْنا لَيْلَةَ الأَحَدِ، ثم أَقْلَعْنا نصفَ الليلِ، وَتمادَى سَيْرُنا إلى ضُحًى من النهارِ، فنزلْنا مُرِيحين قائِلِين (اسْتَرَحْنا ونِمنا في وَقت القَيْلولَة، وهي: منتصَفُ النَّهار) ببئْرِ «ذاتِ العلَمِ»، وَيَزْعُمونَ أنَّ «عَلِيَّ بنَ أَبي طالبٍ» قاتَلَ الجِنَّ بها. وتعرَفُ أَيضًا بالرَّوْحاءِ. وهذِه البئرُ متَناهِيَةُ بُعدِ الرِّشاءِ (حَبْلُ دَلْوِها طَويلٌ)، لا يكادُ يُلْحَقُ قَرارها، وَهي مَعِينَةٌ (كثيرةُ الماءِ).

(٢٤) وادي العقيق

ورحلْنا منها إِثْرَ صلاةِ الظهْرِ من يومِ الأَحَدِ، وتَمادَى بنا السيْرُ إلى إِثْرِ صلاةِ العِشاءِ، فنزلْنا شِعْبَ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللهُ عنهُ)، وَأَقلعْنا منهُ نصفَ الليل إلى تُرْبانَ إلى البَيْداءِ، ومنها تُبْصَرُ المَدِينَةُ المُكَرَّمَة. فنزَلْنا ضحَى يومِ الإثنين — الثالثِ للمُحَرَّمِ — بوادِي العَقيق، وَعَلَى شَفيرِهِ (حافَتِهِ) مسجدُ ذِي الْحُلَيفَةِ من حيثُ أَحرَمَ رسولُ اللهِ ﷺ. والمدينةُ من هذا الموْضِع عَلَى خَمْسَةِ أَميالٍ، ومن ذِي الحُلَيْفَةِ — حرَمِ الْمدينة — إلى مشهدِ حَمْزَةَ إِلى قُباءَ.



(٢٥) الرَّوْضة المكرمة

وأَوَّلُ ما يظهرُ للعينِ منارةُ مسجدِها بيضاءَ مرتَفِعَةً. ثُمَّ رحلْنا منها إِثْرَ صلاةِ الظهرِ من يومِ الاثنَيْن، فنزلْنا بظاهر المدينةِ الزهراءِ، والتربةِ البيضاءِ، والبُقْعَةِ المُشَرَّفَةِ بِمُحَمَّدٍ سيِّدِ الأَنْبياءِ ﷺ صلاةً تَتَّصِلُ مع الأَحيانِ والآناءِ. وفي عشيِّ ذلكَ اليومِ، دخلْنا الحرمَ المُقَدَّسَ لزيارَةِ الرَّوْضَةِ المكرَّمةِ المُطهَّرةِ، فوقَفْنا بإزائِها مُسَلِّمين. وصلَّيْنا بالروْضَةِ التي بيْنَ القَبْرِ المُقَدَّس والمِنبر، ثم صلَّينا صلاةَ المَغْرِبِ معَ الجماعةِ. وكانَ منَ الاتِّفاقِ السعيدِ لَنا أَنْ وَجدْنا بَعْض فُسحةٍ في تلكَ الحالِ لاشتغالِ الناسِ بإقامَةِ مَضارِبِهم، وترتيب رحالِهم؛ فتمكَّنَّا من الغرضِ المقصودِ، وفُزْنا بالمَشهدِ المحمودِ، وأَدَّيْنا حقَّ السلام على الصاحِبَيْنِ الضَّجِيعَيْن: صِدِّيقِ الإِسلامِ وفاروقِه، وانْصَرفْنا إلى رِحالِنا (مَنازلنا) مَسْرُورِين، ولِنعمةِ اللهِ شاكرين.

ولم يبْقَ لنا أَمَلٌ — من آمالِ وِجهَتِنا المبارَكَةِ — ولا وطرٌ إلاَّ قضَيْناه، ولا غرضٌ — من أَغراضِنا المأْمولةِ — إلاّ بَلَغْناهُ. وتفرَّغَتِ الخواطرُ للإِيابِ للوطنِ. نظَمَ اللهُ الشَّمْل، وتَمَّمَ عليْنا الفضلَ. والحمدُ لله على ما أَولاه وأَسْداه، وأَعادَهُ من جميل صُنعِه وأَبداهُ، فهو أَهلُ الحمدِ والشكرِ.

الفصل الرابع عشر

الحرَمُ المدَنِي

(١) الرَّوْضة الْمُقدَّسة

الْمَسْجدُ الْمُباركُ مستطيلٌ، وتَحُفُّه — من جهاتِه الأَربعِ — بلاطاتٌ مُسْتَديرةٌ به. ووسَطُه كلُّه صحنٌ مفروشٌ بالرَّمْل والحَصَى. فالجِهَةُ القِبْلِيَّةُ منها لها خَمْسُ بلاطاتٍ، كل بلاطةٍ منها تُشبِه البلاطةَ الأُخرى. والجهةُ الغربيةُ لها أَربع بلاطاتٍ. والروضةُ المُقَدَّسةُ مع آخرِ الجهةِ القِبليةِ، مِمَّا يلي الشَّرْقَ، وانتظمتْ من بلاطاتِه — مما يلي الصحْنَ — في السَّعَةِ اثنَتَيْنِ، وَنَيَّفت (زادَت وامْتَدَّت) إلى البَلاطِ الثَّالثِ بمقدارِ أَربعةِ أَشبارٍ. وَلها خمسةُ أَركانٍ بخمْسِ صَفَحاتٍ (جوانبَ)، وَشكلُها شكلٌ عجيبٌ، لا يَكادُ يتَأَتَّى تَصوِيرُه وَلا تَمثيلُه. والصفحاتُ الأَربعُ محرَّفَةٌ من القِبلَةِ تحريفًا بديعًا لا يَتَسَنَّى لأحد معه استقبالُها في صَلاتِه، لأَنه يَنحرفُ عن القِبْلةِ. وَأُخبِرْنا أَن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ —رضي اللهُ عنه — قد اخترعَ ذلك في تدبيرِ بنائِها مخافةَ أَن يتَّخذَها الناسُ مُصلًّى. وَأَخذتْ أَيضًا من الجهةِ الشرْقيةِ سَعَةَ بلاطَتَين. فانتظَم داخلُها — من أَعمِدةِ الأَبْلِطَةِ — ستَّةٌ. وَسَعةُ الصَّفحةِ القِبليَّةِ منها أَربعةٌ وَعشرونَ شِبرًا. وَسَعَةُ الصَّفحَةِ الشرقيةِ ثلاثونَ شِبرًا. وَما بينَ الرُّكْنِ الشرقِيِّ إِلى الرُّكْنِ الجنوبيِّ صَفحةٌ سَعَتُها خمسةٌ وَثلاثون شِبرًا. وَمن الركْنِ الجنوبيِّ إِلى الركْن الغَرْبيِّ صَفحة سَعتُها تسعةٌ وَثلاثونَ شِبرًا.

(٢) الرأْسُ الكريمُ

ومن الرُّكْنِ الغرْبِيِّ إلى القِبْلِيِّ صفحةٌ سَعَتُها أَرْبعةٌ وعشْرُون شِبْرًا. وفي هذه الصَّفحةِ صُندوقٌ آبنُوسٌ مُخَتَّمٌ بالصَّنْدَلِ مصفَّح بالفِضَّةِ مُكَوْكَبٌ (مُسَمَّرٌ) بها، هو قُبالَةَ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وطولُه خمسةُ أَشْبارٍ، وعرْضُهُ ثلاثةُ أَشْبارٍ، وارْتِفاعُهُ أَرْبعةُ أَشْبارٍ.

(٣) سَعة الروضة

وفي الصفحةِ — التي بينَ الرُّكْنِ الجنوبيِّ والرُّكْنِ الغَرْبيِّ — موْضِعٌ عليهِ سِتْرٌ مُسْبَلٌ، يقال: إنهُ كان مهبِط جبريلَ (عليه السَّلامُ)، فجميعُ سعَةِ الرَّوْضَةِ المكَرَّمَةِ — من جميعِ جِهاتها — مائتا شبْر واثنانِ وَسَبْعونَ شِبْرًا. وهي مُؤَزَّرَةٌ بالرُّخامِ البديعِ النَّحْتِ، الرائعِ النعْتِ، وينتهي الإزارُ منها إلى نحْوِ الثُّلُثِ أَو أَقَلَّ يسيرًا. وعليهِ من الْجِدارِ المُكَرَّم ثُلُثٌ آخَرُ قد عَلاه تضميخُ المِسْك والطيبِ مقدارَ نصفِ شِبْر، مسوَّدًا مُشَقَّقًا مُتراكِمًا مع طول الأَزْمِنَةِ والأَيَّامِ. والذي يعلوهُ من الجدار شَبابيكُ عُودٍ مُتَّصِلَةٌ بالسَّمْكَ الأَعْلَى (السَّطْحِ)، لأَنَّ أَعْلَى الرَّوْضَةِ المُباركة متصلٌ بِسَمْكِ المَسْجِدِ (سَقْفِهِ)، وإلى حَيِّز إزارِ الرُّخامِ تَنْتَهي الأَسْتارُ. وهي لازوَرْدِيَّةُ اللَّون مُخَتَّمَةٌ بخواتِيمَ بيضٍ مُثَمَّنةٍ ومرَبَّعَة. وفي داخلِ الخَواتيمِ دوائرُ مستديرةٌ، ونقطٌ بيضٌ تَحُفُّ بها. فمنظَرُها منظَرٌ رائِقٌ بديعُ الشَّكل. وفي أَعلاها رسمٌ مائلٌ إلى البيَاضِ.

(٤) الصِّدِّيق والفاروق

وفي الصَّفْحَةِ القِبْلِيَّةِ — أَمامَ وَجْهِ النبيِّ ﷺ مِسْمارُ فِضَّةٍ هو قُبالَةَ الوَجْهِ الكريمِ. فيقِفُ الناسُ أَمامَه للسَّلامِ. وإلى قدَمَيهِ ﷺ رأْسُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ورأْس عمرَ الفاروقِ مِمَّا يَلِي كَتِفَيْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. فيَقِفُ المُسَلِّمُ مستدبِرَ القِبْلَةِ، ومُستَقْبِلَ الوَجْهِ الكريمِ، فيُسَلِمُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ يَمينًا إلى وَجْهِ أَبي بَكْر، ثم إلى وَجْهِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُما. وَأَمام هذِه الصَّفْحَةِ المُكَرَّمَةِ نحوُ العِشرينَ قِنديلًا معلَّقَةً من الفِضَّةِ، وفيها اثْنان منْ ذَهَب.

(٥) الحَوْض المبارك

وفي جوْفِ الرَّوْضَةِ المُقَدَّسَةِ حَوْضٌ صغيرٌ مُرَخَّمٌ، في قِبْلَتِهِ شكلُ محرابٍ، قِيلَ: إنّه كان بَيْتَ فاطمةَ — رضيَ اللهُ عنْها — ويقالُ هو قبْرُها. والله أَعْلَمُ بحقِيقةِ ذلك. وعن يَمِين الرَّوضَةِ المُكَرَّمَةِ المِنْبَرُ الكريمُ. ومنه إليها اثْنَتانِ وأَربَعون خُطوةً. وَهو في الحَوْض المُبارَكِ الذي طولُه أَربعَ عشْرَةَ خُطوةً، وعَرضه ست خُطًا — وهو مُرَخَّمٌ كلُّه — وارتفاعُه شبرٌ وَنصفُ شِبْر. وبيْنه وبيْن الرَّوْضَةِ الصَّغِيرَةِ التي بين القبرِ الكريمِ والمِنْبَرِ — وَفيها جاءَ الأَثَرُ أَنَّها روضةٌ من رياضِ الجنةِ — ثمانِي خُطُوات.

(٦) مِنبر الرَّوضة

وفي هذه الرَّوْضةِ يتزاحمُ الناسُ للصلاةِ، وحُقَّ لهم ذلك. وارتفاعُ المِنبرِ الكَريم نحوُ القامةِ أَو أَزيدُ، وسعَتُه خمسةُ أَشبارٍ، وطُولُه خَمْسُ خُطواتٍ، وأَدراجُه ثمانٍ. وله بابٌ — عَلَى هيْئَةِ الشُّبَّاك — مُقفَلٌ يُفتَحُ الْجُمُعةِ، وطُولُه أَربعَةُ أَشبارٍ ونصفُ شبرٍ. والمِنبَرُ مُغَشًّى بعُود الآبنُوسِ.

(٧) مقعد الرسول

ومقْعَدُ الرسولِ — من أَعلاهُ — ظاهرٌ قد طُبِّقَ عليهِ بلوْحٍ من الآبنُوسِ غير مُتَّصِلٍ به، يَصونُه من القُعودِ عليهِ، فيُدْخِلُ الناسُ أَيديَهم إِليهِ، ويتَمسَّحُونَ به، تبرُّكًا بلَمْسِ ذلك المَقْعَدِ الكَريم.

(٨) لُعبة الحَسَنَينِ

وعَلَى رأْسِ رِجل المِنبر اليُمْنَى — حيثُ يضعُ الْخَطيبُ يدَهُ إذا خطَبَ — حَلْقَةُ فِضَّةٍ مُجَوَّفَةٌ مُستطيلَةٌ تُشبهُ حلْقةَ الْخَيَّاطِ التي يَضعُها في إِصبَعِهِ، صِفَةً لا صِغَرًا، لأَنها أَكبَرُ منها، لاعِبَةٌ، تستَديرُ في مَوضِعها، يزعُم الناسُ أَنها لُعْبةُ الحَسنِ والحُسين — رضيَ اللهُ عنهما — في حال خُطبةِ جَدِّهِما، صلواتُ اللهِ وَسلامهُ عليهِ.

(٩) عمَد المسجد

وطولُ المسجدِ الكريمِ مئة خُطوَةٍ وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ خُطوَةً. وَسعَتُه مئة وَسِتٌّ وَعِشْرُون خُطوَةً. وَعدَدُ سوارِيه مائَتان وَتِسعُون. وهي أَعمِدَةٌ مُتَّصِلَةٌ بالسَّمْكِ (السَّقْفِ) دُونَ قِسِيٍّ تَنْعَطِفُ عليْها، فكأَنَّها دعائِمُ قوائِمُ. وهي من حَجَرٍ منْحُوتٍ قِطَعًا قِطَعًا، مُلَمْلَمَةً ومُثَقَّبَة (والْمُلَمْلَمة: المُدَوَّرة المَضْمُومة). تُوضَعُ الواحِدَةُ في الأُخْرَى، ويُفرَّغُ بينَهُما الرَّصاصُ المُذابُ إلى أَنْ تتَّصلَ عمودًا قائمًا، وَتُكْسَى بِغِلالَةِ جَيَّارٍ (والغِلالَةُ: الطَّبَقَةُ الرَّقِيقَةُ، والجَيَّار: أَخْلاطٌ يُبَيَّضُ بها).

ويبالَغُ في صَقْلِها وَدَلْكِها، فتظهرُ كأَنَّها رُخامٌ أَبْيَضُ.

والبلاطُ المُتَّصِل بالقِبْلَةِ — من الخمسِ الْبَلاطات المذكورة — تَحُفُّ به مقصورةٌ تكتَنِفُه طولًا من غرب إلى شرقٍ، والمحرابُ فيها.

(١٠) مكتبة الحرَم

ويُصلِّي الإمامُ في تِلك الرَّوْضَةِ الصغيرةِ إلى جانبِ الصُّندوقِ. وَبينَها وبينَ الرَّوْضَةِ والقبرِ المُقَدَّسِ مَحْمِلٌ كبيرٌ مدهونٌ، عليه مُصحفٌ كبيرٌ في غِشاءٍ مُقْفَلٍ عليهِ، هو أَحد المصاحِفِ الأَربَعةِ التي وَجَّهَ بها عثمانُ بنُ عفَّانَ — رضَى اللهُ عنه — إلى البلادِ. وبإزاءِ المَقْصورةِ إلى جِهَةِ الشَّرْقِ خِزانَتانِ كَبِيرَتان تَحتَوِيانِ كُتُبًا وَمصاحِفَ، موقوفةً على المسجدِ المُبارِكِ.

(١١) منازل الأَصْفِياءِ

وَيَلِيهما في البلاطِ الثاني — لجهةِ الشرقِ أَيضًا — دَفَّةٌ (صَفْحَةٌ وَطَرِيقٌ) مُطْبَقَةٌ عَلَى وَجهِ الأَرضِ تُفضِي إلى خارجِ المسجدِ إلى دارِ أَبي بكرٍ الصِّديقِ. وَهو كانَ طريقَ عائشَةَ إليها. وبإزائِها دارُ عمرَ بنِ الخطابِ وَدارُ ابنهِ عبدِ الله رضي الله عنهما. وَلا شك أَنَّ ذلك الموضِعَ هو مَوضِعُ الْخَوْخَةِ الْمُفْضِيَةِ لدارِ أَبي بكرٍ التي أَمرَ النَّبيُّ ﷺ بإِبقائِها خاصةً.

(١٢) سَدَنة الحرم

وأَمامَ الروضةِ المقَدَّسةِ أَيضًا صُندوقٌ كبيرٌ هو للشَّمَعِ والأَتْوارِ التي تُوقَدُ أَمامَ الرَّوضِةِ كلَّ لَيلَةٍ. وفي الجهةِ الشرقيَّةِ بيْتٌ مَصنوعٌ من عُودٍ، هو مَوضعُ مَبِيتِ بعضِ السَّدَنَةِ الحارِسِين للمسجدِ المبارَكِ. وَسدنَتُه فِتيانٌ أَحابِيشُ وصَقالِبُ (وَهُما جِنسانِ من النَّاس)، ظِرافُ الهَيئات، نِظافُ الملابس والشَّاراتِ. والمُؤذِّنُ الراتِبُ فِيهِ (الثَّابتُ) أَحدُ أَولاد بلال رضي اللهُ عنه.

(١٣) قبة الزيت

وفي جهةِ جَوفِ الصَّحْنِ قُبةٌ كبيرَةٌ مُحْدَثَةٌ جديدةٌ تعرفُ بقُبَّةِ الزَّيتِ. هي مخزَنٌ لجميعِ آلاتِ المسجدِ المبارَكِ وما يُحتاجُ إليهِ فيه. وَبإِزائِها في الصَّحنِ خمسَ عشْرَةَ نخلةً، وَعَلَى رأْسِ المِحراب الذي في جدار القِبلَةِ — داخِلَ المقصورَةِ — حجرٌ مُرَبَّعٌ أصفَرُ، قدرُ شِبرٍ في شِبرٍ، ظاهرُ البريقِ والبَصيصِ، يقالُ إنه كان مِرآةَ كِسرَى. واللهُ أعلَمُ بذلك.

وفي أَعلاهُ — داخِلَ المِحرابِ — مِسمارٌ مُثَبَّتٌ في جِدارِه. فيه شِبهُ حُقٍّ صغيرٍ، لا يُعرَفُ من أَيِّ شيءٍ هو. وَيَزْعَمُ أَيضًا أَنه كان كأْسَ كِسرى. واللهُ أَعلَمُ بحقيقَةِ ذلك كلِّه.

(١٤) بدائع الصَّنعة

ونصفُ جدارِ القِبْلَةِ الأَسْفَلِ رخامٌ — موْضوعٌ إزارًا عَلَى إزار — مُخْتَلِفُ الصَّنْعَةِ واللَّوْنِ، مُجَزَّعٌ أَبدع تجزيع. والنصفُ الأَعْلَى من الجدار مُنَزَّلٌ كلُّه بِفُصُوصِ الذَّهبِ المعروفَةِ بالفُسَيْفِساءِ. قد أَنْتَجَ الصُّنَّاعُ فيه نتائِجَ منَ الصنْعَةِ غريبةً تضمَّنَت تصاويرَ أَشجارٍ مختَلفاتِ الصِّفاتِ، مائِلاتِ الأَغْصانِ بثَمَرِها. والمسجدُ كلُّه على تلك الصِّفَةِ، لكنَّ الصَّنْعَةَ في جدارِ القِبْلَةِ أَحفلُ، والجدارُ الناظِرُ إلى الصَّحْنِ من جهةِ القِبْلَةِ كذلك أَحفلُ، وَمن جهةِ الجَوْفِ أَيضًا. والغربيُّ والشرقِيُّ الناظرانِ إلى الصَّحْن مجرَّدانِ أَبيضان، قد زُيِّنا برسْمٍ يَتَضَمَّنُ أَنواعًا من الأَصْبِغَةِ، إلى ما يَطُولُ وصفُهُ وذكْرُه، منَ الاِحتفالِ في هذا المسجِدِ المُبارَكِ، المُحْتَوِي عَلَى التُّرْبةِ الطاهرةِ المُقَدَّسَةِ، وَموْضُوعُها أَشْرَفُ، ومحلها أَرْفَعُ من كلِّ ما بهِ تُزَيَّنُ.

الفصل الخامس عشر

آثار المدينة

(١) مسجد حمزة

فأَوَّلُ ما نذكر مِنْ ذلك مَسْجِدُ حمْزَةَ — عَمِّ النبي — ﷺ بِقِبْلِيِّ الجَبلِ، والجَبَلُ جنُوبيُّ المدينةِ، وَهو على مقدار ثلاثة أميال.

وَعلى قَبْرِه مَسْجدٌ مَبْنِيٌّ، والْقَبْرُ برحَبَةٍ جَنُوبيَّ المسجدِ. والشُّهداءُ بإزائِه، والغارُ الذي أَوَى إليهِ النَّبيُّ، وَبإِزاءِ الشُّهَداءِ تُرْبَةٌ حَمْراءُ هي التُّرْبةُ التي تُنْسَبُ إلى حمزةَ، وَيَتَبَرَّكُ الناسُ بها.

(٢) بابُ البَقِيع

و«بقيعُ الغَرْقَدِ» شَرْقِيَّ المدينةِ، يُخرَجُ إليهِ على باب يُعْرَفُ ببابِ البَقِيعِ. وَأَوَّلُ ما تَلقى عنْ يَسارِكَ — عندَ خُروجِكَ من الباب — مشهدُ صَفِيَّةَ عمةِ النبيِّ، أُمِّ الزُّبَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ. وَأمامَ هذِه التربَةِ قبرُ مالِكِ بن أَنَس: الإِمامِ المَدنِيِّ، وعليْهِ قُبَّةٌ صغيرةٌ مُخْتَصَرَةُ البناءِ.

(٣) السُّلالة الطاهرة

وَأَمامَهُ قبرُ السُّلالةِ الطَّاهرَةِ: إبراهيمَ ابنِ النبيِّ ﷺ، وَعليهِ قُبةٌ بَيضاءُ. وَعَلَى اليمينِ منها تُرْبَةُ ابنٍ لِعُمَرَ بنِ الخطَّابِ — رضي اللهُ عنهُ — اسمُهُ عبدُ الرحمنِ الأَوسَطُ، وَهو المعرُوفُ بأَبي شَحْمَةَ، وَهو الذي جَلَدَهُ أَبوهُ الْحدَّ فمرِضَ فماتَ. وَبإِزائها رَوضةٌ صغيرةٌ فيها ثلاثةٌ من أَولادِ النبيِّ. وَيَلِيها رَوضةُ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ، والْحَسَنِ بنِ عليٍّ،

وَهي قُبةٌ مُرتَفعةٌ في الهواءِ عَلَى مَقرَبةٍ من بابِ البَقيعِ، وَعن يمينِ الخارجِ منهُ. وَقبراهُما مُرْتَفِعانِ عن الأَرضِ، مُتَّسِعانِ مُغَشَّيانِ بأَلواحِ مُلْصَقَةٍ أَبدعَ إِلصاقٍ، مُرَصَّعَة بصفائحِ الصُّفْرِ (النُّحاسِ) وَمَسامِيرِه، على أَبدعِ صِفة، وَأَجملِ مَنظَر.

(٤) بَيْتُ الحَزَن

وَعَلَى هذا الشكل قَبرُ إِبراهيمَ ابنِ النبيِّ. ﷺ وَيَلي هذه القُبةَ العَبَّاسيَّةَ بيْتٌ يُنْسَبُ لِفاطمَةَ بنْتِ رسولِ اللهِ، وَيُعْرفُ ببَيتِ الْحَزَنِ. يُقال إِنه الذي آوَتْ إِلَيْهِ والتَزَمَت فيهِ الحُزْنَ عَلَى مَوتِ أَبيها.

(٥) مشاهد البَقيع

وَفي آخر البَقِيعِ قبرُ عُثْمانَ الشَّهِيدِ المَظْلومِ، وَعليهِ قُبَّةٌ صَغيرَةٌ مُخْتَصَرَةٌ، وَعَلَى مَقرَبة منه مشهَدُ فاطمةَ بنْتِ أَسدٍ: أُمِّ عَلِيٍّ. وَمشاهِدُ هذا البَقيعِ أَكْثَرُ من أن تُحْصَى، لأَنهُ مدفِنُ الجُمْهورِ الأَعْظَم من الصَّحابةِ الُمهاجرِينَ والأَنْصارِ (رضيَ اللهُ عنهم أَجمعين).

(٦) مسجد قُباءَ

وَقُباءُ قِبْلِيَ المدينةِ، وَمنها إِليها نَحْوُ المِيلَيْنِ. وكانت مدينةً كبيرَةً متصلةً بالمدينةِ الُمكَرَّمَةِ، والطريقُ إِليها بينَ حدائقِ النَّخْل المتَّصِلةِ، والنَّخِيلُ مُحْدِقٌ بالمدينةِ من جِهاتها، وَأَعْظَمُها جهةَ القِبلَةِ والشَّرْقِ، وَأَقلُّها جهةَ الغربِ، والمسجدُ المؤَسَّسُ عَلَى التقْوَى — بقُباءَ — مُجَدَّدٌ، وَهو مربَّعٌ مستوِي الطولِ والعَرْضِ، وَفيهِ مِئْذَنَةٌ طَويلةٌ بيضاءُ تظهرُ عَلَى بُعْدٍ، وفي صَحْنِهِ — مما يَلِي القِبْلَةَ — شِبْهُ مِحراب عَلَى مِصْطَبَة، هو أَوَّلُ موضع ركَعَ فيهِ النبيُّ ﷺ. وَفي قِبْلَتِه محاريبُ، وَله بابٌ واحِدٌ من جهةِ الغرْبِ، وَهُو سَبْعُ بلاطات في الطُّولِ، وَمثلُها في العَرْض.



(٧) ديار الأَبرار

وفي قِبلَة المسجدِ دارٌ لبَني النَّجَّار، وَيلِي دارَ بني النَّجَّارِ دارُ عائشةَ، وبإِزائها دارُ عُمَرَ، وَدارُ فاطِمَةَ، وَدارُ أَبي بكْر، وَآثارُ هذه القَرْيَةِ كثيرةٌ لا تُحصَى. ولِلْمَدِينَةِ المُكَرَّمَةِ أَربعة أبوابٍ وَهي تحت سُورَين، في كلِّ سورٍ بابٌ يُقابلُه آخَرُ، الواحدُ منها كله حديدٌ، وَيُعرَفُ باسمِه: «بابِ الحديدِ»، ويليهِ «بابُ الشريعةِ»، ثم «بابُ القِبْلَةِ» وَهُو مُغلَقٌ، ثم «بابُ البقِيعِ». وَقبل وُصولِك سُورَ المدينَةِ من جهةِ الغرب — بمقدارٍ يسيرٍ — تَلْقَى الخَنْدَقَ الشهيرَ الَّذِي صَنَعَهُ النبيُّ ﷺ عند تحزُّبِ الأَحزابِ.

(٨) العين المباركة

وبينه وبين المدينةِ — عن يمينِ الطريقِ — العَينُ المَنْسُوبَةُ لِلنبيِّ، وعليها حَلْقٌ (مَجْرى) عظيمٌ مُسْتَطِيلٌ. ومنبعُ العين وَسَطَ ذلك الحلْق، كأَنَّهُ الْحَوْض المسْتَطيل، وَتَحتَه سِقايَتان مُسْتَطيلتِانِ باستطالةِ الحَلْقِ، وقد ضُرِبَ بين كلِّ سِقاية وبين ذلك الحوْضِ بجدار. فأَصْبَحَ الحوض مُحْدَقًا بِجدارَيْنِ. وهو يَمُدُّ السِّقايَتَيْنِ. ويُهبَطُ إِليهما عَلَى أَدْراجٍ عدَدُها نحوُ الخمسةِ والعشرين دَرَجًا، وماءُ هذه العَيْنِ المُبارَكة يعُمُّ أَهلَ الأَرْضِ، فضلًا عن أَهل

المدينةِ، فهي لِتَطَهُّرِ الناسِ واستقائِهم، وغَسْل أَثوابهم. وذلك الحوضُ لا يُتناوَلُ فيه غيرُ الاِسْتِقاءِ (الشُّرب) خاصَّةً، صونًا لهُ، ومحافظةً عليه.

(٩) جبل الشيطان

وبالْقُرْب منها لجهةِ اليسارِ «جبلُ الشَّيْطانِ» حيثُ صَرَخَ — لَعَنَهُ اللهُ — يومَ أُحُدٍ حينَ قال: «قُتِلَ نَبِيُّكُمْ». وعَلَى شَفِيرِ ذلك الخَنْدَقِ حِصْنٌ يعرَفُ بِحِصْنِ العُزَّابِ، وهو خرِبٌ، قيل: إِنَّ عمرَ بناهُ لعُزَّابِ المدينةِ.

(١٠) طريقُ أُحُدٍ

وفي طَرِيق أُحُدٍ مَسْجِدُ عَلِيٍّ، ومسجدُ الفتحِ الذي أُنزلتْ فيهِ عَلَى النبيِّ ﷺ سورةُ الفَتْحِ. ولِلْمَدِينةِ الْمُكَرَّمَةِ سِقايَةٌ ثالِثَةٌ داخِلَ باب الحديدِ يُهْبَطُ إِليها عَلَى أَدْراجٍ، وماؤُها مَعِينٌ، وهي بمَقْرَبَةٍ من الحَرَمِ الكريمِ، وبقِبْلِيِّ هذا الحرَمِ الْمُكَرَّمِ دارُ مالكِ بْنِ أَنَسٍ إمامِ دارِ الهجرةِ. ويُطيفُ بالْحَرمِ كلِّه شارِعٌ مبلَّطٌ بالْحَجَر المَنْحُوت المفْرُوش.

الفصل السادس عشر

أَيّام الوداع

(١) بِنْتُ الأَمير

ومن عجيبِ ما شاهدْنا من الأُمورِ البديعةِ الداخلةِ مدخلَ السُّمْعَةِ والشهرةِ، أَن إِحدى الخواتين المذكوراتِ — وهي بنتُ الأَمير مسعودٍ — وصلَت عشيَّ يومِ الخميسِ السادسِ للْمُحرمِ، ورابعَ يومِ وصولِنا المدينةَ إلى مسجدِ رسول اللهِ ﷺ، راكِبةً في قُبَّتِها وحولَها قِبابُ كرائِمها وخدَمِها. والقراءُ أَمامها والفِتْيانُ والصَّقالِبُ بأَيدِيهم مقامعُ الحديدِ يَطوفُون حولَها، ويدفعُون الناسَ أَمامَها، إلى أن وصلَت إلى بابِ المسجدِ المكرمِ، فنزلَتْ تحتَ مِلْحَفَةٍ مبسوطةٍ عليها، ومشتْ إلى أن سَلَّمتْ عَلَى النبي ﷺ والحُرَّاسُ أَمامَها، والخدَّامُ يرفعُون أَصواتَهم بالدعاءِ لها، إِشادَةً بِذكرها. ثم وصلَت إلى الرَّوْضَةِ الصغيرةِ التي بينَ القبرِ الكريمِ والمنبرِ، فصلَّت فيها تحتَ المِلْحَفَةِ، والناسُ يتزاحَمُون عليها، والمقامِع تدفعُهم عنها. ثم صلَّت في الحَوْضِ بإِزاءِ المنبرِ، ثمَّ مَشتْ إلى الصَّفْحَةِ الغربيةِ من الروضةِ المكرمةِ، فقعدت في الموضعِ الذي يقالُ إِنه كانَ مهبطَ جبريلَ عليه السلامُ. وأُرْخِيَ السِّتْرُ عليها، وأَقامَ فتيانُها وصقالِبُها وحُجَّابُها عَلَى رأْسها خلْفَ السِّتْرِ، تأْمُرُهم بأَمرِها، واستجلَبَتْ معها إلى المسْجدِ حِملَين من المتاعِ للصَّدَقَةِ، فما زالت في موضِعها إلى الليل.

(٢) الواعظ الأَصبَهانيُّ

وقد وقَع الإيذانُ بوصولِ صدرِ الدين رئيسِ الشافعيَّةِ الأَصْبَهانِيِّ لعَقْدِ مجلسِ وعْظٍ تلك اللَّيْلَة، وكانتْ ليلَةَ الجُمُعَةِ السابعِ من المحرمِ، فتأَخَّرَ وصولُه إلى هَذْءٍ من اللَّيْل، والحرمُ قد غَصَّ بالمنتَظرينَ، والخاتونُ جالسةٌ موضِعَها.

وكان سببُ تأَخرِه تأَخُّرَ أَميرِ الحاج، لأَنَّه كانَ عَلَى عِدَةٍ (وَعْدٍ) من وصولِه إلى أن وصلَ، ووصل الأَميرُ، وقد أُعِدَّ له كُرسيٌّ بإِزاءِ الروضةِ المُقَدَّسَة، فصعِدَه وحضَر قُرّاؤُه أَمامَه، فابتدَرُوا القراءَةَ بنغماتٍ عجيبةٍ وتلاحينَ مطربةٍ مُشْجِيَةٍ. وهو يلْحَظُ الرَّوْضَةَ المُقَدَّسَةَ فيُعلِنُ بالبكاءِ.

(٣) لَباقَة الْخَطيب

ثم أخذَ في خُطْبَةٍ من إنشائِه سِحْرِيَّةِ البيانِ. ثم سلَكَ في أَساليبَ من الوَعْظِ باللسانَيْنِ، وأَنشَدَ أَبياتًا بديعةً من قولِه، منها هذا البيت، وكان يردِّدُه في كلِّ فصلٍ من ذكره ﷺ ويُشيرُ إلى الروضةِ:

هاتيكَ روضَتُه تفوحُ نَسِيمَا   صَلُّوا علَيْه وسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

واعتذَرَ من التقصيرِ لهولِ ذلك المَقامِ. وقال: «عجبًا للأَلْكَن الأَعْجَمِ، كيفَ يَنْطِقُ عند أَفصحِ العربِ!».

(٤) أَثر الوعظ

وتمادَى في وعظِهِ إلى أَن أَطارَ النُّفُوسَ خَشيةً ورِقَّة، وتهافتَتْ عليهِ الأَعاجِمُ معْلِنين بالتوبَةِ. وقد طاشَتْ أَلْبابُهم وذَهَلَتْ عقولُهم، فيُلْقُون نواصِيَهم بينَ يدَيْه، فيستدْعِي جلَمَيْن (مِقْصًّا) ويَجُزُّها ناصيةً ناصيةً، ويكْسُو عِمامَتَه ذلك الرَّجُلَ المجْزُوزَ الناصِيَةِ، فيوضَعُ عليهِ للْحِين عمامَةٌ أُخْرى من أَحدِ قرائِه أَوْ جُلَسائِه، ممنْ قد عَرَف منزِعَه الكريمَ في ذلك، فبادَر بعمامَتِهِ لاستجلابِ العَرْضِ النَّفِيس لمكارِمه الشهيرةِ عندَهم، فلا يَزالُ يخلَعُ واحدًة بعد أُخْرَى، إلى أَنْ خلَع مِنها عِدَّةً، وجزَّ نواصِيَ كثيرةً.

(٥) ثمن الوَعظ

ثم ختَمَ مجلِسَه بأَن قالَ: «معشرَ الحاضِرين! قد تكلمتُ لكُم ليلَةً بحرَمِ اللهِ — عزَّ وَجَلَّ — وهذه الليلَةَ بحرمِ رسولِهِ ﷺ. ولابدَّ للواعِظِ من كُدْيَةٍ، وأَنا أَسأَلُكُم حاجةً، إن ضَمِنْتُموها لي أَرَقتُ لكم ماءَ وجهي في ذكرها». فأَعلَن الناسُ كلُّهم بالإِسْعافِ والتَّلْبيَةِ، وشَهيقُهم قد عَلا. فقال: «حاجَتِي أَن تَكْشِفُو رءُوسَكم، وَتبْسُطُوا أَيْدِيَكم، ضارِعِين لهذا النَّبيِّ الكريمِ في أَنْ يَرْضَى عنِّي، ويسترضِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ!»

(٦) ضراعةُ التائِب

ثم أَخذَ في تَعْدادِ ذُنوبهِ والاعترافِ بها، فأَطارَ الناسُ عمائمَهم وبسَطوا أَيْدِيَهُم للنبِيِّ ﷺ، داعِين له باكينَ مُتَضَرِّعين. فما رأَيْتُ ليلَةً أَكثرَ دُموعًا ولا أَعظَمَ خُشوعًا من تلكَ الليلةِ. ثم انْفَضَّ المجْلِسُ وانفَضَ الأَميرُ، وانفَضَّت الخاتونُ من موضِعِها.

وعند وصول صدر الدِّينِ أزِيلَ السِّتْرُ عنها، وبقيَتْ بين خَدَمِها وكرائِمها مُتَلَفِّعَةً في رِدائِها، فعايَنَّا من أَمرِها — في الشُّهْرَةِ الملُوكيَّةِ — عجبًا.

(٧) صدر الدِّين

وأَمرُ هذا الرَّجلِ: صدرِ الدِّينِ عجيبٌ في أُبَّهَتِه، وملوكيته وفخامة هيئَتِه، وبهاءِ حالتِه، وظاهرِ مُكْنَتِه، ووُفور عَتادهِ وقُوَّتِه، وكثْرَةِ عبيدِه وخَدَمَتِه، واحتفالِ حاشيَتِهِ وغاشِيَتِهِ. فهُوَ — من ذلك — على حالٍ يَقصُر عنها الملوكُ، ولهُ مضرِبٌ كالتَّاج العظيمِ في الهواءِ، مُفَتَّحْ عَلَى أَبوابٍ عَلَى هَيْئَةٍ غريبةِ الوضعِ، بديعةِ الصَّنْعَةِ والشَّكْلِ. تُطِلُّ عَلَى المَحَلَّةِ من بُعْدٍ فتُبْصِرُه سامِيًا في الهواءِ. وشأْنُ هذا الرَّجل العظيمِ لا يستوعِبُه الوصفُ. شاهَدْنا مجْلِسَه فرَأَيْنا رجلًا يذُوبُ طلاقَة وبِشْرًا، ويَخِفُّ للزَّائِرِ كرامةً وبرًّا، على عظيمِ حُرْمَتِه، وفخامَةِ بِنْيَتِه. وهو قد أُعْطي البَسْطتَيْنِ عِلْمًا وجِسْمًا. اسْتَجَزْناه فأَجازَنا نثْرًا ونظمًا. وهو أَعظَمُ مَن شاهَدْنا بهذهِ الجهاتِ.

(٨) عَشِيَّةُ الوَداع

وفي عَشِيِّ ذلك اليوْمِ المبارَكِ كان وَداعُنا للرَّوْضَةِ المُبارَكَةِ، والتُّرْبةِ المُقَدَّسَةِ، فيا لَه وداعًا عَجبًا ذهَلَتْ لَهُ النفوسُ ارتياعًا، حتى طارتْ شَعاعًا، واسْتَشْرَتْ (عَظُمَتْ) بهِ النفوسُ التِياعًا، حتى ذابَتِ انصداعًا. وما ظَنُّكَ بموقِفٍ يُناجَى بالتَّوْدِيعِ فيهِ سيِّدُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وخاتَمُ النَّبِيِّين، ورسولُ ربِّ العالَمين! إنهُ لَمَوْقِفٌ تَنْفَطِرُ لَهُ الأَفْئِدَةُ، وتَطيشُ به الأَلْبابُ الثابتةُ المُتَّئِدَةُ. فوا أَسفاه وا أَسفاه! كلٌّ يبوحُ لَدَيْه بأَشْواقِه، ولا يَجدُ بُدًّا من فِراقِه، فما يسْتَطِيعُ إِلى الصَّبْرُ سَبيلًا، ولا تَسْمَعُ في هول ذلكَ المَقامِ إلا رَنةً وعَويلًا. وكلٌّ — بلِسانِ الحالِ — يُنْشِد:

مَحَبَّتِي تَقْتَضِي مُقامِي   وحالَتِي تَقْتَضِي الرَّحِيلاَ

وكان مُقامُنا بالمدينةِ المكَرَّمَةِ خمسةَ أَيَّامٍ، أَولُها يومُ الإثْنَيْن، وآخرُها يومُ الجُمُعَةِ. بَوَّأَنا الله — بزِيارَةِ هذا النَّبِيِّ الكريمِ — منزلَ الكرامَةِ، وجعلَه شَفِيعًا لنا يومَ القِيامَةِ، وأَحلَّنا — من فضلِه — في جوارِه دارَ المُقامَةِ برحْمَته، إنه غفورٌ رحيمٌ، جوادٌ كريم.

محفوظات

مِنْ نافِذَةِ الْقِطارِ

هَيْهاتَ، هَيْهاتَ، لا جِنٌّ ولا سَحَرَهْ   بِقادِرِينَ عَلَى أَنْ يَلْحَقُوا أَثَرَهُ!
هذِي الْمنازِلُ قَدْ مَرَّتْ عَلَى عَجلٍ   كَأَنَّها وَمْضَةٌ لِلْبَرْقِ مُخْتَصَرَهُ
هذا قَطِيعٌ — مِنَ الأغْنامِ — أَلْمَحُهُ،   وهذِه دَوْحَةٌ، فِي ظِلِّها بَقَرَهْ
وهذه تُرْعَةٌ — فِي إِثْرِ ها — ظَهَرَتْ،   وهَضْبةٌ، وحُقُولٌ — بَعْدها — نَضِرَهْ
هذا سَوادٌ عَلاَ فَوْقَ القِطارِ، وَقَدْ   عَمَّ الْفَضاءَ دُخَانٌ قاذِفٌ شَرَرَهْ
هذا القِطارُ بطِيئًا — بَعْدَ سُرْعَتِه —   وَذا صَفِيرٌ يُدَوِّى مُنْذِرًا خَطَرَهْ
هذى الْمَحَطَّةُ قَدْ لاحَتْ لأَعْيُنِنا   أَعْلامُها، وَوُفُودُ السَّفْرِ مُنْتَظِرهْ
يَحُلُّ فِيها قَليلًا، ثُمَّ يَتْرُكُها   لِغَيْرِها ماضِيًا، مُسْتَأْنِفًا سَفَرَهْ
كالسَّهْم مُنْصَلِتًا، والسَّيْلِ مُنْدَفِعًا،   يُثِيرُ — فِي عَدْوِهِ — الْحَصباءَ والْغَبَرَهْ

* * *

هَيْهاتَ، هَيْهاتَ، لا جِنٌّ ولا سَحَرَهْ   بِقادِرِينَ عَلَى أَنْ يَلْحَقُوا أَثَرَهُ
هُنا غُلامٌ أَراهُ صاعِدًا حَذِرًا   عَلَى النَّخِيلِ يُرجِّي — فَوْقَهُ — ثَمَرَهْ
وَهذِهِ ثُلَّةٌ — مِنْ قَرْيَ — خَرَجَتْ،   وكُلُّهُمْ رَافِعٌ — مِنْ دَهْشَةٍ — بَصَرَهْ
وَهذِهِ مرْكَباتٌ حُمِّلَتْ نَفَرًا،   وَفَوْقَ أُخْرَى شَعِيرٌ يَابِسٌ، وَذُرَهْ
وَثَمَّ طاحُونَةٌ، لاحَتْ — لأَعْيُنِنا   ثَوانِيًا، واخْتَفَتْ — في الْحَقْلِ — مُسْتَتِرهْ
هذا غَديرٌ، وَهذِي رَوْضَةٌ أُنُفٌ   تَهُبُّ مِنْها — عَلَيْنا — نَسْمَةٌ عَطِرَهْ
وَثَم مِئْذَنَةٌ — فِي الْجَوِّ — ذاهِبَةٌ،   وتِلْكَ سُوقٌ، بِها التُّجَّارُ مُنْتَشِرَهْ

* * *

شَتَّى مَناظِرَ مَرَّتْ – خَطْفَ بارِقَةٍ – كَـمـا تَـمُـرُّ بِـكَ الأَحْـلامُ مُـنْـتَـثِـرَهْ
مَرَّتْ – وَلَيْسَ لَها مِنْ عَوْدَةٍ أَبَدًا – كالطَّيْفِ وَلَّى، فَمَنْذا يَقْتَفِي أَثَرَه؟


هنداوي